

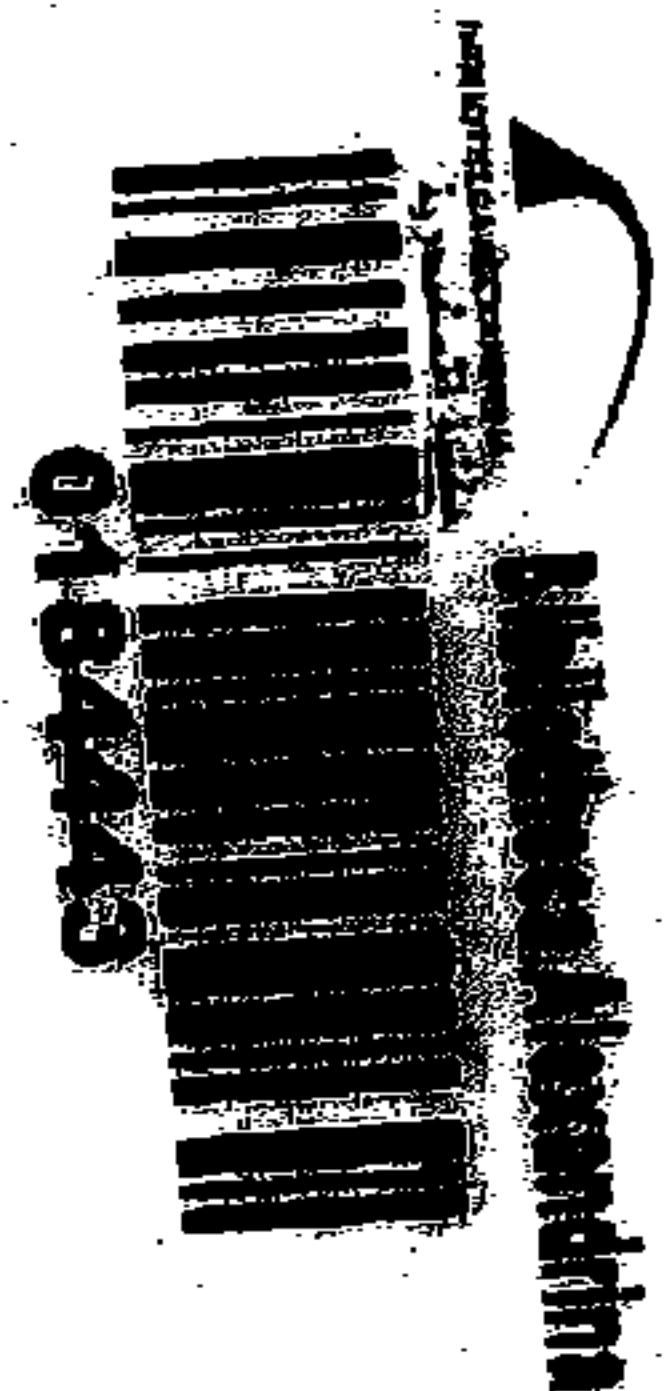
ظه حسين

على هامش السيرة

١



دار المعارف



قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

طرسين

على هامس السيرة

١

الطبعة الواحدة والثلاثون



دارالمعارف

فقرس

صفحة

٥	مقدمة
١	حفر زمزم
١٢	التحكيم
٢٤	الفداء
٣٥	الإغراء
٥٤	البين
٦٥	القضاء
٧٩	الردّة
٨٦	الطاغية
٩٣	البشير
١١٩	واهب الإسكندرية
١٤٧	اليتيم
١٥٩	الحاضنة
١٧٠	المراضع
١٨٥	السر

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

مقدمة

هذه صحف لم تُكتب للعلماء ولا للمؤرخين ؛ لأنى لم أرد بها إلى العلم ، ولم أقصد بها إلى التاريخ . وإنما هى صورة عرضت لى أثناء قراءتى للسيرة فأثبتتها مسرعاً ، ثم لم أر بنشرها بأساً . ولعلى رأيت فى نشرها شيئاً من الخير ؛ فهى تردّ على الناس أطرافاً من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم ، فليس يقرؤها منهم إلاّ أولئك الذين أتاحت لهم ثقافة واسعة عميقة فى الأدب العربى القديم . وإنك لتلمس الذين يقرءون ما كتب القدماء فى السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم .

إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون فى الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة فى الشرق ، يجدون فى قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ، ما يُغريهم به ويرغبهم فيه ، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة ، وفهمه أعسر ، وتدوقه أشدّ عسراً . وأين هذا القارئ الذى يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة ، والأخبار التى يلتوى بها الاستطراد ، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذى لا يكلف مشقة ولا عناء ! ذلك إلى أن الأدب القديم لم ينشأ لبقى كما هو ثابتاً مستقرّاً ، لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يلتمس الناس لذته إلا فى نصوصه يقرءونها ويعيدون

قراءتها ، ويستظهرونها ويمعنون في استظهارها . إنما الأدب الحصب حقاً ، هو الذى يلذك حين تقرأه ؛ لأنه يقدم إليك ما يرضى عقلك وشعورك ، ولأنه يوحى إليك ما ليس فيه ، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ، ويعيرك من خصبه خصباً ، ومن ثروته ثروة ، ومن قوته قوة ؛ ويُنطقك كما أنطق القدماء ، ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك ، أو يصور قلبك في صورته ؛ وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم ، ونحواتهم التي تضطرب في عقولهم .

هذا هو الأدب الحى . هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام . فأما ذلك الأدب الذى ينتهى أثره عند قراءته ، فقد تكون له قيمته ، وقد يكون له غناؤه ، ولكنه أدب موقوت يموت حين ينتهى العصر الذى نشأ فيه . ولو أنك نظرت في آداب القدماء والمحدثين لرأيت منها طائفة لا يمكن أن توصف بأنها آداب عصر من العصور أو بيئة من البيئات ، أو جيل من الأجيال ، وإنما هي آداب العصور كلها ، والبيئات كلها ، والأجيال كلها ؛ لا لأنها تُعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والأجيال فحسب ، بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحى إليهم ، وتجعل منهم الشعراء والكتّاب والمتصرفين في ألوان الفن على اختلافها .

وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تقرأ فتحدث اللذة وتثير الإعجاب في كل وقت وفي كل قطر ؛ بل هو يأتيها من هذا ، ومن أنها قد ألهمت

وما زالت تلهم الكتاب والشعراء ، وتوحى إليهم أروع ما أنشأ الناس من آيات البيان . ولقد كان «إيسكولوس» أبو التراجيديا اليونانية يقول إنه إنما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس . وما زال القصاص وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين أن يقولوا الآن ما كان يقوله إيسكولوس منذ خمسة وعشرين قرناً . ولم تكن قصص إيسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليوناني أقل خصباً من الإلياذة ؛ بل هي قد ألهمت من الكتاب والشعراء قديماً وحديثاً ، وما زالت قادرة على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى الغد . وإني لأذكر أني قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هي الثامنة والثلاثون من نوعها ، وقد سماها صاحبها «جيرودو» بهذا الرقم ؛ فوضع لها هذا العنوان «انفيريون رقم ٣٨» . كانت أسطورة تتصل بمولد هرقل فصورها سوفوكل قصة تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح . وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والأوربيين المحدثين يتأثرون ويذهبون مذهبه أو غير مذهبه ، في تصوير هذا الموضوع ، حتى انتهت القصص التي كتبت فيه شعراً ونثراً إلى هذا العدد الضخم . ولم يُحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا إليه ، بل زادهم ذلك حرصاً عليه ورغبة فيه . وكان بين الذين طرّفوه الشاعر اللاتيني «بلوت» والشاعر الفرنسي «موليير» . ثم لم يُشفق جيرودو من أن يطرق موضوعاً سبق إليه الفحول من شعراء التمثيل في العصور القديمة والحديثة ، فصور قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة في باريس سنة ١٩٢٩ فكان فوزها عظيماً ، وإعجاب النظارة والقراء بها لا حد له .

وفي أدبنا العربي على قوته الخاصة ، وما يكفل للناس من لذة ومتاع ،
قدرة على الرحي ، وقدره على الإلهام . فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم
لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ في صورة بعينها ، وإنما قصها الرواة في
ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف . وقل مثل ذلك
في السيرة نفسها ؛ فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية
وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضاً ؛ فصوروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها
من القوة والضعف والجمال الفنى . وقل مثل هذا في الغزوات والفتوح ،
وقل مثل هذا في الفتن والمحن التي أصابت العرب في العصور المختلفة . ولم
يقف إلهام هذا التراث الأدبي العظيم عند الكتاب والشعراء الذين ينمقون
النثر ويقرضون الشعر ، في اللغة العربية الفصحى ، بل جاوزهم إلى جماعة
من القصاص الشعبيين الذين تحلثوا إلى الناس في صور مختلفة وأشكال
متباينة ، بما كان لأبائهم من مجد مؤثقل ، وبما أصاب آباءهم من محن
مظلمة وفتن مدهمة ، عرفوا كيف يثبتون لها ويصبرون عليها ، ويخرجون
منها كراماً ظافرين . ولا خير في حياة القدماء إذا لم تُتلهم المحدثين ولم توح
إليهم رائع البيان شعراً ونثراً . وليس القدماء خالدين حقاً إذا لم يكن
التماسهم إلا عند أنفسهم ، ولا تعرف أباؤهم إلا فيما تركوا من الدواوين
والأشعار . إنما يحيا القدماء حقاً ، ويخلدون إذا امتلأت بصورهم
وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بها الزمن ، وكانوا حديثاً للناس إذا لقي
بعضهم بعضاً ، وكنوزاً يستثمرها الكتاب والشعراء لإحياء ما يعالجون
من ألوان الشعر وفنون الكلام .

إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم ، ومن إحياء ذكر العرب
الأولين ، قصدت حين أملت فصول هذا الكتاب . ولست أريد أن
أخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الكتاب ؛ فإنى لم أفكر فيه تفكيراً ،
ولا قدرته تقديراً ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ؛ إنما
دفعت إلى ذلك دفعاً ، وأكرهت عليه إكراهاً ، ورأيتنى أقرأ السيرة
فتمتلىء بها نفسى ، ويفيض بها قلبى ، وينطلق بها لسانى ، وإذا أنا
أملى هذه الفصول وفصولاً أخرى أرجو أن تنشر بعد حين .
فليس فى هذا الكتاب إذاً تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للإجادة ،
ولا اجتناب للتقصير ، وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد
من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التى لا أعدل بها كتباً أخرى مهما
تكن ، والتى لا أمل قراءتها والأنس إليها ، والتى لا ينقضى حجبها
وإعجابى بها ، وحرصى على أن يقرأها الناس . ولكن الناس مع الأسف
لا يقرءونها ؛ لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون . فإذا استطاع هذا
الكتاب أن يجلب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب
العربى القديم عامة ، والتماس المتاع الفنى فى صحفها الخصبه ، فأنا
سعيد حقاً ، موفق حقاً لأحب الأشياء إلى ، وآثرها عندى .
وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلتقى فى نفوس الشباب حب الحياة
العربية الأولى ، ويلفتهم إلى أن فى سداجتها ويسرها جمالا ليس أقل
روعة ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذى يجلبونه فى الحياة الحديثة
المعقدة ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى ، واتخاذها موضوعاً قيماً خصباً لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما ، بل كذلك للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلتقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد ، وإنما يهجر القديم إذا برئ من النفع ونحلا من الفائدة ، فإن كان نافعاً مفيداً فليس الناس أقل حاجةً إليه منهم إلى الجديد ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

وأنا أعلم أن قوماً سيضيعون بهذا الكتاب ؛ لأنهم مُخَدَّثُونَ يُكْبِرُونَ العقل ، ولا يثقون إلا به ، ولا يطمثون إلا إليه . وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها . وهم يشكون ويلحون في الشكوى حين يرون كلفَ الشعب بهذه الأخبار ، وجدته في طلبها ، وحرصه على قراءتها والاستماع لها . وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث ، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيعون بهذا الكتاب بعض الشيء ؛ لأنهم سيقروءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء ، وإن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل ، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ،

ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي ، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخواياهم وميلهم إلى السذاجة ، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، ما يجب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرأها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش .

وأحب أن يعلم الناس أيضاً أنى وسعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً ، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي ، أو بنحو من أنحاء الدين ؛ فإنني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة ، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ، ورجال الرواية ، وعلماء الدين . ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله ، الحديد في صورته وشكله ، إلى مصادره القديمة التي أخذ منها . فهذه المصادر قليلة جداً ؛ لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبري . وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد في كتاب من هذه الكتب . فإذا اتصل الخبر بشخص النبي فإنني أردته إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه ، لا أحتمل في ذلك تبعة خاصة ،

— ل —

لأنى لا أذهب فيه مذهباً خاصاً ، إلا أن يكون تبسطاً فى الشرح والتفسير
واستنباط العبرة والوصول بها إلى قلوب الناس .
فلييسر اللهُ سبيل هذا الكتاب إلى النفوس ، وليحسن الله موقعه
فى القلوب .

طه حسين

ديسمبر سنة ١٩٣٣

حفر زمزم

كان عبد المطلب سمح الطبع رضى النفس ، سخي اليد ، حلو العشرة عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً قوى الإيمان ، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة . ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً . وأبوه من مكة ، حيث التجارة والثروة . وحيث المكر والدهاء . وحيث الوثنية السهلة التي لا تحرج فيها ولا مشقة . وأمه من يثرب . حيث الزراعة والصناعة اليسيرة ، وحيث اليهودية تجاوز الوثنية فتضعفها ، وتنقص من ظلها وتكاد تمحوها ، وحيث الأخلاق اللينة والشائث الحلوة ، وحيث الظرف ونعومة الحياة . ولد في يثرب ، ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى مكة ، فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم وتخلق بأخلاقهم وسار سيرتهم ، حتى بلغ الشباب أو كاد . ثم أقبل عمه فانتزعه من إقليمه السهل الهين ، إلى إقليم آخر صعب عسير ، تجذب فيه الأرض ، ولا تبسم له السماء إلا قليلاً ، ويرحل أهله إلى الآفاق ويفد على أهله الناس من جميع الآفاق ، فهم يأخذون من الناس ويعطونهم ويبادلونهم الأخلاق والشائث كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة . ولعل أخلاق يثرب وخصال مكة قد اختصمت في نفس هذا الغلام . ولعل اختصاصها قد طال ، ولعل اختصاصها قد قصر . ولكنها على

كل حال قد انتهت إلى شيء من الاعتدال آخر الأمر . فلم يكتمل الفتي شبا به حتى كان فتي من قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش : فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها . على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشدّ التمييز ؛ فلم يكن يصدر في حياته ، كما كانوا يصلرون ، عن الروية والتفكير وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها ويأبى عليها ويغلو في الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يدعن لها ويأتمر أمرها . وكانت هذه القوة تُصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً . وتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح الخايل ، يبين الصورة ، يلمُّ به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمر . وتنتهي إليه مرة ثالثة صوتاً رقيقاً ، ولكنه ملح يملأ أذنيه يقظاناً ، ويملاً أذنيه نائماً ، يحثه على أن يأتي كذا وكذا من الأمر . وكان في هذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إبهام ، وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام . وكان الفتي ينكره ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتي يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان الصوت يتجنب الفتي حتى يؤيسه من نفسه ، ويلمُّ به فيكثر الإلمام . ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتي بألفاظ كالتى تقع في آذان الناس إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة غريبة الجرس غريبة المعنى .

كانت إليه رِفَادَة الحَاجِّ وسقايته بعد عمه المطلب ، فكان يُطعم الناس إذا حجوا البيت ويسقيهم ، يجمع لهم الماء في أحواض من الأَدَم . وكان يجد في جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهداً وعسراً . فبينما هو نائم ذات يوم أو ذات ليلة أتاه آت رأى شخصه ولم يتبين له سمته ولا شكلا ، وقال له في صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفرُ طيبة » . قال : « وما طيبة؟ » فانصرف الشخص ، وانقطع الصوت . وأفاق الفتى وفي نفسه ذعر وعجب وأمل ، وحاول أن يعود إلى النوم ، لعله يرى هذا الشخص ، أو يسمع هذا الصوت ، أو يتبين هذا الحديث ، ولكن كان النوم قد خاصم عينيه ، وانصرف عنه مع هذا الشخص الغريب . ففكر وأطال التفكير ، وقد روأطال التقليد ، وتقلب في مضجعه فأكثر القلب ، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه ، فجلس يرقى يبصره الحائر إلى السماء ، لعل شمس النهار أو نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا . ويخفض بصره إلى الأرض لعله يجد في إطراقه تفسير هذه الرؤيا . ويمد بصره نحو الكعبة ، لعل صنما من هذه الأصنام المنصوبة يوحى إليه تعبير هذه الرؤيا . ولكن السماء صامته والأرض ساكنة ، وعلى أصنام الكعبة شيء كأنه الوجوم ، فيرتد إلى الفتى بصره متعباً مكدوداً . وتهوى نفسه إلى قرارة ضميره ، لعلها تجد لهذا الرمز تأويلاً فلا تجد شيئاً ؛ فيشتد بها الذعر ، ويزداد فيها العجب . ويبقى الأمل . وينهض الفتى فيضطرب مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة .

ثم يُقبل الليل ويأوى الفتى إلى مضجعه ، وقد أنسى كل شيء ، إلا

أنه قد مشى كثيراً، وأجهد نفسه كثيراً، وأنه أشدُّ ما يكون حاجة إلى أن يبسط عليه النوم جناحيه . ها هو ذا مغرق في نوم هادئ مطمئن ، وقد هدأ من حوله كل شيء ، واطمأن في نفسه وجسمه كل شيء . ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل ساعياً إليه في أناة ، حتى إذا دنا منه قال له في صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة : « احفر بركة » ؟ وجسم الفتى هادئ مطمئن ، ولكن نفسه ثائرة مضطربة ، ولسانه يتحرك في ثقل ، وصوته ينبعث من بين شفثيه خفيفاً رقيقاً بهذه الكلمة : « وما بركة ؟ » . فينصرف الشخص ، وينقطع الصوت ، ويفيق النائم وجلاً مذعوراً ، معجباً آملاً ، ويفكر ويقدر ويتقلب . ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامته ، ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ، ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة في البله والوجوم . ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام ؛ فيهم على وجهه يلتمس في الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذي يُفزع ويغريه . ثم يعمل الناس في أمور الحياة ، وينقضي النهار بخيره وشره ، وحلوه وممره ؛ ويقبل الليل شيئاً فشيئاً ، فيبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام ، وما يزال يمدُّ في هذه الأردية حتى يغمر كل شيء ويستتر كل شيء ، لولا هذه المصابيح الضئيلة التي تشبُّ في الأرض ، وهذه النجوم القليلة التي تضطرب في السماء . وقد سَمَرَ الفتى مع السامرين ، فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار : هذا يحدث عن صور بُصرى وعظمتها ، وهذا عن الحورنق والسدير ، وهذا يذكر عُمدان ، وهذا يصف أخلاق اليمانيين ومكرهم بالتجار ، وهذا يتحدث

عن سداجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب ، وهذا يذكر ما أفاد من ربح حين باع الأدم في الحبشة ، وهذا يذكر للقوم ما حمل لهم من خمر بيسان . وهم في أثناء هذا كله يتنكرون على العجم والأعراب ، ويتفكهون بأحاديث أولئك وهؤلاء ، ويسخرون من أولئك وهؤلاء . حتى إذا تقدم الليل واطمأن كل شيء تفرقوا ، ونهض الفتي ثقيلاً ، فمشى إلى بيته متباطئاً يودّ لو فرّ من النوم ، ويودّ مع ذلك لو نام فألمّ به هذا الطائف . انظر إليه ! إنه ليردد : أيقذف بنفسه في أمواج النوم هذه التي تمثل أمام عينيه ؟ أم يبقى على الشاطئ يقظان يداعبه النوم ولا ينام ؟ ليردد ما استطاع ، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع ؛ فإن هذه الأمواج المصطخبة أمامه تستطيع أن تغطي على الشاطئ فتغمره ، وتغمر معه كل شيء . وكيف يستطيع هذا الفتي أن يمتنع عليها ، وما استطاعت أن تمتنع عليها جبال مكة هذه التي تحيط بها من كل ناحية !! انظر ! أتري حركة ؟ اسمع ! أتحسّ نبأة ؟ كل شيء هادئ ، كل شيء مطمئن ؛ فما نبوك وما امتناعك ! ! هلمّ إلى النوم لا تخف شيئاً ؛ إن هذه الأمواج تريح ولا تغرق . أقبل إلى هاتين الذراعين اللتين تمتدان إليك ، فستنسني بينهما كل شيء . ومن يدري ! لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة . وأطبق الفتي جفنيه واندفع أمامه ، فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على غيره من الناس والأشياء . ولكن ماذا ؟ هذا شخص يتقدم ساعياً هادئاً كأنه يمشى على الهواء ، حتى إذا دنا من الفتي ، قال في صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر المضمونة » . جسم

الفتى هادئٌ ولكن صورة من الحيرة قد ارتسمت على جبهته ، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفثيه وهو يقول : « ما المضمونة ؟ »
فينصرف الشخص . ويشيق الفتى مدعوراً مأخوذاً ، قد أظلم في نفسه كل شيء ، وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره ، لا يرتفع بصره إلى السماء ، ولا ينخفض إلى الأرض ، ولا يمتدّ إلى أصنام الكعبة ، ولكنه يدور حائراً .
وينهض الفتى وهو يقول : ما أرى إلا أنى سأجنّ ؛ لئن أصبحتُ لآتين الكاهن ، فلعلى أجد عنده من هذا العارض شفاء .

أقبلُ أيها الصبح ! أسرع في الخطو ، ارفقْ بهذه النفس الحائرة ؛ هلم إلى سوطك المشرق المضيء ، فبدد به هذه الأشخاص المائلة ، فرقْ به هذه الظلال المضطربة من حولي . ويقضى الفتى ليلاً طويلاً ثقيلاً ، حتى إذا كست الشمس بضوئها النقي ظواهر مكة وبطاحها ، أسرع الفتى إلى المسجد يريد أن يقص أمره على الكاهن . ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش في فناء المسجد ، حتى تذهب عنه حيرته ، ويفارقه وجومه ، ويمتلىء قلبه اطمئناناً وثباتاً . ماذا ؟ أأزعم للكاهن أنى مجنون ، وتشيع في هذه المقالة ، ويضحك منى حرب بن أمية ولداته ، ويتندّر على فتیان مخزوم !!
كلا ! ما أكثر هذه الخيالات التي تسكن إلى نفسها في قبور الموتى ، وتختبئ في الكهوف والأغوار ما أضاءت الشمس واستيقظت الطبيعة ، فإذا أظلم الليل ونام الكون ، انتشرت هذه الخيالات في الجوّ ، فمنها ما يصعد في السماء يرعى النجوم ، ومنها ما يهبط الأرض يروّع الناس . وما أرى أن هذا الطائف الذي يؤرقني منذ ثلاث إلا خيالا من هذه الخيالات ، لعله ظلّ ميت من

موتى قريش قد أنسيه قومه، فهم لا يزورونه ولا يقربونه إليه. لعله شيطان من هذه الشياطين التي تلح على الإنس فتتقاضاهم الطاعة وتضعهم لسلطانها كرهاً. لعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالتضحية والقربان. لقد مضت أيام ولم تقدم إلى الآلهة شاة ولم ينحر لهم جزور، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القاني الذي تحب الآلهة لونه ورائحته. إليه يا عبد المطلب؛ تقرب إلى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون، ولعلهم يكفون عنك هذا الشر. وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش، فتحدث وسمع، ولكنه كان شارد النفس، فلم يطل الحديث ولا الاستماع ونهض مولياً. فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية بن حوله: رأيتم إلى سرى بنى هاشم! إني لأراه محزوناً، وإني لأعرف في وجهه الهم، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه. ومضى الفتى إلى أهله. فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى، فاستقبلته دهشة وهي تقول: إليه يا شيبه! ما خطبك؟ إني لأنكرك منذ أيام، أراك مؤرق الليل، قلق النهار، قليل الحديث، طويل التفكير. ولقد هممت أن أسألك مرات، ولكنني خشيت ردك على وانتهاك لي؛ فإني لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء، ودعابة معهن، ولكني لا أجد عندك ما أجد عند قومك؛ فأنت صامت إذا خلوت إلى أهلك، وأنت منقطب الجبين إن ظلك معهم سقف. تحدث! ما يحزنك؟ اخرج عن هذا الصمت الذي لزمته، كن رجلاً من قريش، أشرك أهلك فيما يعينك. لقد أذكر يوم أنبأني أبي أنك خطبتني إليه. لقد فرحت

بهذا النبأ ، لقد كنت أتحدث إلى أترابي في البادية بأني سأصبح امرأة من قريش ، أجد من نعمة الحياة ولينها ، ومن ظرف الزوج ورقته ما لا يجدن تحت خيام بني عامر بن صعصعة . ولكني وجدت نعمةً وليناً ، ووجدت حباً وعطفاً ، ووجدت عناية لا تعدلها عناية ، ولم أجد أحب ما كنت أطمح إليه : لم أجد منك ابتسام الثغر ، ولا انبساط الجبين ، ولا انطلاق اللسان . قالت ذلك وانتظرت هنيهة . فأجابها زوجها بصوت هادئ حزين : عزيز عليّ يا سمراء ما تجدين من حزن ، وما تحسّين من خيبة أمل ! إني لأحبك كما يحب الظمآن ما ينقع غلته من الماء العذب إني لأنس إليك أنساً يزيل عن نفسي كل همّ ، ويحبب إليّ الحياة ويرغبني فيها . إني لأشتاق إلى التحدث إليك والاستماع لك والأنس بك . ولو خيرت لما عدلت بمجلسك مجلس قريش ، ولا بيتك فناء المسجد ودار الندوة . ولكن قوة خفية عاتية طاغية تملك عليّ نفسي ، وتأخذ عليّ كل سبيل وتدفعني إلى حيث لا أدري ولا أريد . إيه يا سمراء... ! إني لمؤرق الليل ، قلق النهار ، مفرّق النفس منذ ليل ، وإني لأخشى على نفسي شراً . هذا طائف يلمّ بي إذا أغرقت في النوم ، فيأمرني بصوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة ، أن أحفر شيئاً يسميه طيبة ، ويسميه برّة ، ويسميه المصنونة . فإذا سأله عما يريد ، انصرف شخصه ، وانقطع صوته ، وأفقت حائراً مدعوراً لقد هممت يا سمراء أن أقص رؤياي هذه على الكاهن ، وأن أصف له ما أرى وما أجد ، ولكنني أشفقت أن يتحدث الناس عنى أنى مجنون ، أو أن يتنلر بي فتیان قريش فيقولون : إن له رأيًا من الجن . أشيرى

ماذا ترين ؟ قالت سمراء : هون عليك ولا تغلُ في الخوف ولا تسرف في الإشفاق . ما أكثر ما يلمُّ أمثال هذا الطيف بالناس عندنا في البادية ، فلا يحفلون ولا يابهون . ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة في غير توسط للكاهن ولا توسل به ؛ قم ففضحِّ لهم ، وقرب إليهم ، فسيرضون وسيرضى الفقراء والجاهلون ، وسيغيظ ذلك قوماً من قريش . وما هي إلا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس ، فيهم الفقراء قد أقبلوا من البطاح والظواهر ، وفيهم الأغنياء قد أقبلوا يقدمون الضحايا بين أيديهم ؛ هؤلاء يتنافسون أيهم يُغلي الضحايا ويكثر منها ، وأولئك ينتظرون ويمنون أنفسهم بغريض اللحم وجيده . لقد سمعوا أن عبدالمطلب يريد أن يضحِّي ، وأن بني هاشم قد حفلت لذلك ؛ فكرهت أمية ألا تفعل فعلهم ، وكرهت مخزوم أن تسبقها عبد مناف ، فأقبل أشراف قريش يستبقون في التضحية ويتنافسون في القربان . تنافسوا ! تنافسوا أيها الأشراف ! استبقوا أيها الأغنياء ! فإن في ذلك شبع الفقراء وسعادة الأشقياء . وقضت مكة يوماً دامياً سميناً ، كثر فيه الطعام ، وكثر فيه الشراب ، ورضيت فيه الأصنام . وسعد الفتى بما رأى ، ونسى الفتى ما كان يهمله وينغصه ، وقدَّر الفتى أن قد صُرف عنه الشر ، وردَّ عنه المكروه . ورضيت سمراء ، فتحدثت كثيراً وسمعت كثيراً ، وأضحكت زوجها وابنها الحارث بمُلح الأعراب ونوادير البادية ، وقالت لزوجها وهي تمسح رأسه : أحبب إليَّ بهذا الطائف الذي أرقك وأضناك ؛ فقد حقق أمني وأراني ما كنت أطمح إليه ، ورسم في قلبي صورتك جميلة خلابة ، فلن

أراك منذ اليوم - مهما تكن الخطوب - إلا باسم الثغر ، منبسط الجبين ،
منطلق اللسان . وهل السعادة إلا لحظات قصار ، تصيبنا ولم تنتظرها ولم
نقدّر لها حساباً ؛ فما أسعد القلب الذي يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر ،
ويتخذها ذخيراً للأيام وما يعرض فيها من الخطوب !

قال عبد المطلب : إذا فأنت راضية ياسمراء . إن رضاك ليقع من
نفسى المحزونة موقع الماء من الأرض المجذبة . انعمى بما أنت فيه ، وانتظري
أن يقدر الله لك خيراً منه . فلو قد صرفت عنى هذه القوة العاتية الطاغية ،
لأريتك يا سمراء كيف تطيب الحياة ، وكيف ترق حواشى العيش !
وأوى الفتى إلى مضجعه راضياً مسروراً ، واستقبل النوم مبتهجاً له
راغباً فيه . ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعياً في هدوء ، كأنما يمشى
في الهواء ، حتى إذا دنا منه انحنى عليه ، ووضع على بجهته يداً باردة خفيفة
وقال فى صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر زمزم » .
واضطرب جسم الفتى كله ، واضطربت نفس الفتى كلها ، وانفتحت
شفتاه عن هذه الكلمة : « وما زمزم » ؟ . قال الطيف بصوت رفيق مؤنس ،
قد فارقت الغرابة والوحشة ، ومازجته سخرية ورحمة : « لا تُترَح ولا تُدَمُّ ،
تسنى الحنجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب
الأعصم » . قال الفتى : « الآن قد وعيت » . فتولى عنه الطيف باسماء وهو
يقول : « لله أنتم أيها الناس ؛ لا يكفيكم الوحي ، ولا تفقهون إلا سجع
الكهان ! رويداً ! عما قريب سيضئ الصبح ! » . ونهض الفتى مبتهجاً
مسروراً . فلما أصبح دخل على سمراء مشرق الوجه مضىء الأسارير .

قالت وهي تسعى إليه : أيهما أحبُّ إلى نفسي إشراق وجهك أم
إشراق الشمس ! ما أرى إلا أنك قضيت ليلاً هادئاً .

قال : انعمي صباحاً يا سمراء ! لقد طابت الحياة منذ اليوم . إن هذا
الطائف الذي يلمّ بي منذ ليالي ، طائف خير يأتي بالنعمة والغيث . إنه
يأمرني أن أحتضر في فناء المسجد بئراً ، فلأفعلنّ منذ اليوم . ولئن ظفرت
بها ليشربن الحجيج في غير جهد ولا عسر . هلمّ يا حارثُ خذْ
معوّلاً (١) ومكتلاً (٢) ومسحاة (٣) واتبعْ أباك .

(١) المعول : الفأس العظيمة .

(٢) المكتل : زنبيل من خوص .

(٣) المسحاة : الحجفة التي يجرف بها التراب والطين من على وجه الأرض .

التحكيم

لأُهمَّ قد لبَّيتُ مَنْ دَعَانِي وَجئتُ سَعَى الْمُسْرِعِ الْعَسْجَلَانِ
 ثَبَّتَ الْيَقِينَ صَادِقَ الْإِيمَانِ يَتَّبِعُنِي الْحَارِثُ غَيْرَ وَانِ
 جَذْلَانِ لَمْ يَحْفَلْ بِمَا يُعَانِي لَا أُهْمَ فَلَْتَصِدُقْ لَنَا الْأَمَانِي
 مَالِي بِمَا لَمْ تَرْضَهُ يَدَانِ

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضاً يملأ الفضاء من حوله، تقيماً يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء . وكان كل شيء مستقراً لا يضطرب فيه إلا هذا الصوت العريض النقي، وإلا هذه الذراع التي ترتفع بالمعول قوية، ثم تهوى به مُخْتَفِرَةً، ثم تدعه إلى المسحاة فتغرف بها التراب في المِكتل، وإلا هذا الغلام الناشئ يرقب حركة أبيه، ويسمع صوته ويردُّ عليه رجوعَ هذا الصوت كلما وصل في الدعاء إلى هذا البيت :

لَا أُهْمَ فَلَْتَصِدُقْ لَنَا الْأَمَانِي !

حتى إذا امتلأ المِكتل حمله بذراعيه الضعيفتين، وأسرع في شيء من الجهد إلى خارج المسجد، فألقى ما فيه ثم عاد، وأبوه يرفع المعول في الجو ويهبط به إلى الأرض، ويملاً فضاء البيت بصوته العريض، والعرق

يتصبّب على جبينه ، ولكنه لا يحسُّ جهداً ولا يجد إعياء . وكانت الشمس قد ألفت على الأرض رداءً من النور تقيئاً ، ولكنه ثقيل همد له كلُّ شيء ، وأوى له الناس إلى بيوتهم يقيلون ، وانقطعت له الحركة ، وخفتت الأصوات ، إلا هذه الجنادب التي يروقها وهج الشمس ، ويسكرها هب القیظ ، فتصدح بالغناء إذا سكت كلُّ شيء . وقد أخذ الغلام يحسُّ لذع الجوع وحرّ الظمأ ، ولكنه لا يقول شيئاً ، بل لا يكاد يفكر في شيء ، إنما سمعه وقلبه لصوت أبيه ، وعيناه للمكتل والتراب ، ونشاطه لإفراغ المكتل إذا امتلأت . وهما في ذلك ، إذا غلام يسعى قد أرسلته سمراء ، يحمل إلى الرجل والغلام شيئاً من طعام وشراب ، حتى إذا انتهى إليهما وضع ثقله وقال : مولاي ، هذا غذاؤك وغذاء الصبي ، قد أعدته سيدتي العامرية ، هيأته بيدها ، وهي تعزم عليك لتصين منه . ولترفقن بنفسك ولترفقن على هذا الصبي الحدث ! لقد قال الناس جميعاً ، وهذا كلُّ شيء لهذا الوهج الذي يصهر الأبدان ويحرق الجلود ، وأنت فيما أنت فيه من جدِّ يَضُنِّي ، وجهد يهلك ، لا تقبل ولا تستريح ، ولا تُريح هذا الطفل الذي لم يتعود الجهد والعناء ، بعض هذا يبلغك ما تريد . ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام إلا بأذن معرضة ، ولم يستقبله إلا بوجه مُشِيح ، إنما هو ماض في رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعاً في الجو وهبوطاً إلى الأرض ، والصبي يتبعه بسمعه وقلبه ، ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم إلى هذه السلّة وما فيها ، وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه . وانصرف إلى ما في هذه السلّة يعدّده ويخصيه ويتمثله : إن فيها لشواءً

غريضاً وإن فيها للبنأ يمازجه عسلٌ هُدَيْلُ الذي حمّله تخاله فيها حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام ، وإنّ فيها لماء عذباً . ومن يدرى ! لعل سمراء قد نقتت فيه شيئاً من زبيب الطائف ؛ فإنها تجيد ذلك وتحسنه . وعبد المطلب ماض في رجزه وفي حركة يديه بالمعول والمسحاة ، وقد امتلأ المكتل ، فيهمّ الصبي أن يحمله ليلقى ما فيه . ويدنو الغلام يريد أن يعينه في ذلك ، ولكن عبد المطلب ينهره نهراً عنيفاً : « إليك يا غلام ! فما لهذا الأمر إلا عبد المطلب وابنه . »

ويمضي الصبي بالمكتل ويعود ، ولكن الرجز قد انقطع ، وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعوداً وهبوطاً ، وإنما هو مُطرق إلى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ، ثم يرفع بصره إلى السماء فيطيل رفعه ، ثم يدبر عينيه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئاً أو أن يلتمس أحداً ، ثم يدعو ابنه في صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضا والإشفاق : هلمّ يا حارث انظر ! أترى ماء ؟ .

- كلا يا أبت ! وإنما أرى ذهباً وسلاحاً .

- ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح ، وإنما وُعدت بالماء لستى الحجيج . إن وراء هذا الأمر لسراً ! ولكن هلمّ يا بُنى ، فما أرى إلا أن الظماً والجوع قد أجهداك :

وأقبل الرجل وابنه على السلة فأصابا مما فيها ذاهلين واجميين ، ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعاماً أو حسناً له ذوقاً ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذي

يتوهج في الحفرة ، وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقيل . حتى إذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب إلى الحفرة فيستخرج ما فيها ، فإذا غزالان من ذهب نقي ثقيل ، وإذا سيوف ودروع فيكبّر ، ويرفع صوته بالتكبير ويسرع إليه أفراد قليلون كانوا قد بدعوا يفتدون إلى المسجد ، كدأب قريش حين كانت تخفّ وطأة القَيْظ ، فإذا رأوا هذا الكثر دهشوا ثم تصايحوا ، ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد ، وإذا شباب قريش وشيوخها يُقبلون سراعاً مزدحمين ، يُسرع بعضهم حبّ الاستطلاع ، ويسرع بعضهم الآخر الطمع في الغنيمة ، ويسرع بفريق منهم باعث ديني غامض ، فيه خوف وفيه رجاء وفيه إكبار للآلهة ، وتوقع للمعجزة الخارقة . حتى إذا توافوا جميعاً ، واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزاً ، وعرفوا حقيقة هذا الكثر ، وقوّموا ذهبه الخالص ، وصناعته البارة ، وما فيه من سيوف ودروع ، أداروا أمرهم بينهم : لمن يكون الكثر؟ قال هشام بن المغيرة : إنما هو لقريش ! فقد وجد في المسجد ، وكل ما وجد داخل الحرم في أرض عامة فهو لقريش . وقال حرب بن أمية : إنما هو لبني عبد مناف خاصة ؛ فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا ، وما ينبغي لقريش أن تغلبنا على خير ساقته إلينا الآلهة . وتنازع القوم وطال النزاع ، واختصم القوم واشتدت الخصومة ، وعبد المطلب صامت مطرق ، لا ينطق بكلمة ولا يأتي بحركة . هنالك صاحبه حرب : مالك لا تقول وأنت الذي وجد الكثر ، وأنت أحقنا بأن ترى رأيك فيه ؟ ! قال عبد المطلب في هدوء وأناة : ما ينبغي أن يكون الكثر لأحد حتى

نستشير الآلهة ؛ فما حفرت ولا ظفرت إلا بأمر خفي ، وما أرى إلا أن للآلهة في ذلك إرادة وقدرأ لا يبلغهما حتى نسأل الكهان . هنالك وجعت قريش وغضب بنو عبد مناف ، وأنكروا جميعاً في أنفسهم أن يُشرك عبدالمطلب معهم الآلهة في هذا الكثر الدفين . ولكنهم لم يقولوا شيئاً ، وما كان لهم أن يقولوا شيئاً . ومن الذي يستطيع أن يردّ قضاء الآلهة ؟ حمل الكثر إذاً إلى الكعبة . وأقبل القوم إلى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح . وما هو ذا يضرب بقداحه ، ثم يضرب ، ثم يضرب بين قريش والكعبة ، فتخرج القداح للكعبة ثلاثاً ، فيصيح عبد المطلب : لقد ظهر قضاء الله ، فليكن ما أراد ! تفرقوا يا معشر قريش ؛ تفرقوا يا بني عبد مناف ! فليس لأحد منكم في هذا الكثر نصيب ! أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة . وأما هذه السيوف فستعلق عليها . وأما هذه الدروع فستُدخَر في خزائنها . ثم التفت إلى ابنه وقال : هلمّ يا حارث ، اتبعني لنمضي فيما كنا فيه . وتفرقت قريش وفي صدورهما غلّ وحنق . ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر انتحوا ناحية ، وأقاموا يردّون الطرف بين الكثر والكعبة وعبد المطلب ، ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضاً . وأصبح الناس ذات يوم وإذا بالكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح .

وراح عبد المطلب مع المساء إلى أهله محزوناً مكدوداً ، راضياً مع ذلك ، لم يفارق قلبه الأمل . فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع إليه ولم تبسم له ، ولكنها لم تُعرض عنه ولم تتجهّم له . فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت . ولما ألح في السؤال ، قالت : وبمّ تريد أن أبتهج ؟ ولم تريد أن أبتمم ؟ لقد

علمت منذ زفتني أبي إليك أني قد تزوجت رجلاً لا كالرجال . لقد أحبيتك
ولكني أنكرتك . لقد أملت فيك ويشت منك ، ثم عاد إلى الأمل أول
أمس ، ثم ها أنت ذا تردّ إلى اليأس مظلماً حالكاً قبيح الوجه ، بشع
المنظر كأنه الغول . ماذا؟! يلمُّ بك الطائف أربع ليالٍ ، يُهيب بك ويلع
عليك ، رمزاً حيناً ومصرحاً حيناً ومصرراً دائماً ، حتى إذا أذعنت لأمره
وانتهيت إلى ما سيق إليك من خير وادّخر لك في الأرض من غني
زهدت فيه وانصرفت عنه ، وأشفقت أن تُسلمه إلى قريش أو إلى
بنى عبد مناف ، فيقال : ألقى بيده ونزل عن غنيمته ؛ فصرفت ذلك عنك
وعنهم إلى هذه البنية^(١) تحلّيتها بالذهب وتُعزّزها بالسلاح ! وماذا تصنع
الأحجار القائمة بذهبك وسلاحك !! لله أنتم يا معشر قريش ! إنكم
لتكبرون من هذا البناء المنصوب ما لا تكبر نحن في البادية . ولولا حاجاتنا
ومنافعنا لما هبطنا بطاحكم حاجين ولا مُعتمرين ، ولكنكم قوم ضعاف
تُكبرون ما لا يكبر ، ويفرّكم أن أفئدة الناس تهوى إليكم ، تحسبونهم
يُقبلون إليكم بالدّين وينصرفون عنكم بالطاعة ، وإنما يُقبلون عليكم بما
عندهم من عروض ، وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق . هلا
طاولت قريشاً وانتظرت بهذا الكثر حتى تروح إلى ! لقد كان فيه غنى لك
ولهذا الصبي الذي تعنيه وتضنيه منذ ألمّ بك ذلك الطائف . هلا تريثت
أو اصطنعت الأناة ! إذا لاحتويت الكثر ولا أصبحت أغني قريش وأكثرهم
مالاً ، ولما استطاع بنو عبد شمس أن يكثروك بما يملأ خزائنها من الدراهم

(١) البنية : الكعبة .

والدنانير . إذا لأقبلت إليك بنوع عامر بقوتها وبأسها فأعزتك ومنعتك من قريش
ولكنك أشفقت وملاً قلبك الفسوق ، وعبثت بنفسك بقية من كبرياء ،
فأفقرت نفسك ، وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بني حرب ثروة
ومالا . قال عبد المطلب محزوناً هوّنى عليك يا سمراء ، وأقلّبتى اللوم ، فما
أرى أنك تفقهين مما ترين شيئاً . لا أحب لوجهك هذا النضر أن تجلوه غيرة
الحرص على المال . وما أحبُّ لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث
عن المال . وما أَرْضَى وإن نسَلتكَ أشرف بنى عامر أن تغضّى من أمر
قريش . إن فيكم أهلَ البادية لطباعاً غلاظاً ونفوساً يملؤها الطمع . أنتم
لا تحسبون الدين ولا تقدرّون الغيب ، ولا تؤمنون إلا بما ترون ، ولا تخافون
إلا القوة الظاهرة . لقد كنت أحسب أن مقامك الطويل بمكة قد غير نفسك
بعضَ الشيء ، فإذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد
إلى هذه البطحاء . هوّنى عليك ولا تشغلى نفسك بما لست منه فى قليل
ولا كثير . لقد أمرنى الطائف أن أحترق ، ووعدنى أن أجد الماء لأستقى
الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بنى عامر ؛
فليس هذا الذهب لى ولا لقريش وإنما هو مخبوء لأمرٍ يبراد . وإنى لمن قوم
لا يحبون الغضب ولا يستأثرون بما ليس لهم ، ولا يمنعون الحقوق . فإن تكن
غلظة الأعراب وجفوة البادية وجحودها قد شأقتك فرمى رحالك غداً وألمسى
بأهلك ! فهم أحق بك وأدنى إليك . قال ذلك ونهض غاضباً ، وتركها
واجمة بهذا الحديث العنيف تقاوم غيظاً لم يلبث أن استحال إلى دموع
غلاظ تحدرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانته النظام .

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله ، وحتى اضطربت له مجالس قريش في فناء البيت ، فخف الناس إليه وهم يقولون : ما نرى ابن هاشم هذا إلا مطروفاً يلقى من الجن شططاً ، ويريد أن نلقى منه شططا . أقبلوا إليه سراعاً يزدحمون وقد آلى أشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكثر وعثر على غنيمة ، ليغيبننّه عليها ، وليسعطننّه منها نصيب رجل من قريش . وانتهوا إليه وهو يكبر ويصيح : هذا طوى إسماعيل ! هذه بثرززم ! هذه سقاية الحاج ! لقد صدق الوعد وتحقق الأمل .

فنظروا فإذا عبد المطلب قد وجد الماء ، وإذا هو يستقي فيشرب ويسقي ابنه ، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقي الأرض والهواء والناس . هنالك ابتسموا له ورفقوا به ، وقالوا : لقد بررت بقومك يا شيبه ، وأنبطت لهم هذا الماء يستقون منه ، إذا ضمنت عليهم الينابيع ، فوصلتكم رحم ! لتعرفنّ لك قريش هذه اليد . قال : ما أنتم وذاك ! هذه يرى قد حفرتها ، وكشفت طيها بأمر هبط إلى من السماء . وهذا شرب ساقه الله إلى سأسقيكم منه إن أردت ، ولكني أسقى الحجيج منه قبل أن أسقيكم ، فبذلك أمرت وأنا على ذلك قائم . قالوا : يا بن هاشم ! إنك لتسرف على نفسك ، وتشطّ على قومك ، وتختلق على السماء ! إن هذه الأرض ليست لك ، وإنما هي لله ثم لقريش ، وإن كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش ، وإنا لم نشهد أمر السماء حين تنزل إليك . ومتى تنزل أمر السماء على الناس إلا من طريق الكهان ! فأين الكاهن الذي أمرك أن تحتفر ؟ ! قال :

يا قوم ! خلوا بيني وبين الماء ، فوالله لن تبلغوا مني شيئاً . إنكم تكثرونني بعددكم وعديدكم ، ولكن الذي أمرني باستنباط هذا الماء حريٌّ أن يردَّ عني كيدكم ويحميني من ظلمكم . إنكم تستضعفونني حين ترون أني أبو واحد ، ولكن الذي سخرنى لهذا الأمر خليق أن يمنحني من الولد من أكاثركم به . وإني أقسم لئن منحني من الولد عشرة ذكوراً أراهم بين يدي لأضحين له بواحد ! وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب فثارت نفوسهم وتعصبوا له وقاموا من دونه يردُّون عنه عدوان قريش . وكاد الشرُّ يقع بين القوم ، ولكن عبد المطلب قال : يا قوم فيمَ قطع الأرحام ، وتخفرُ الذِّمام ، وإراقةُ الدماء ! إني والله ما أوتر نفسي من دونكم بشيء . فإن أبيتم أن تؤمنوا لي فهلمَّ إلى حكمي فليقض بيننا . قال الملا من قريش : لقد أنصفكم ابنُ أخيكم من نفسه ، فليكف بعضكم عن بعض ، ولنحتكم إلى كاهنة بني سعد هذيم ، فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم .

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام ، فأجمع القوم أن يصحبها رسلهم إلى الكاهنة في معان . فلما فصلت العيرُ صحبها عبد المطلب في عشرين من بني عبد مناف ، وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ، ومضى القوم ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ، ونفد ما كان معهم من ماء ، واشتد بهم الظمُّ وأحرق أكبادهم الصدى ، وغدوا ذات يوم في فلاة مبسوطة يحارفيها الطرف دون أن يهتدي إلى أمد ، ليس فيها عين ولا بئر ، ولا شجرة ولا عشب ، وإنما هي أرض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتبهة فتلهبها تحت الأقدام . وقد يئس القوم من

كل رُوح ، وقفنظوا من كل وجهة ، فاجتمعوا يتشاورون . قال قائل منهم :
يا قوم ؛ إنما هو الموت فأنتم بين اثنتين : إما أن تموتوا ضيعةً وتصبح
أجسامكم نهياً لسباع الأرض والجو ، لا توارىكم يدٌ في التراب ، ولا
تأوى نفوسكم إلى جدّث تطمئن فيه ؛ وإما أن يقوم بعضكم على بعض ،
ويؤارى بعضكم بعضاً ، فيكون لكل منكم حفرته ، وتعرف نفوسكم إذا
هامت في الفضاء الواسع ، وألّمت بأهلها في بطاح مكة وظواهرها ، كيف
تهتدى إلى أجسادها فتليم بها وتسكن إليها . والرأى أن يحفر كل منكم
حفرته ، وأن تقيموا ، فأيكم ذهب الصدى بنفسه وأراه أصحابه وبكوا
عليه ، فلا يذهب منكم ضيعةٌ إلا رجل واحد تمتدّ به الحياة إلى أقصى
أجل .

قال ذلك قائلهم ونهض ونهض فأخذ يحفر حفرته ؛ وتناقل القوم بعض
الشيء ، يفكرون في أولادهم وآخرتهم ، ويذكرون مكة ومن تركوا فيها
من أهل وولد ومال ، ويذكرون الشام وينظرون إلى ما كانوا يحملون
إليها من تجارة ، ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح .
وتقدّم رُسل قريش إلى الكاهنة يتلاومون في البئر وفي خصومتهم
لصاحب الحقي . ثم ينهضون والموت يُثقل نفوسهم ، فيعمد كل منهم
إلى سنان يخطّ به حفرته في الأرض .

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يوي ، ولكنه
نهض فجأة وقال بصوته العذب العريض : « يا معشر قريش ، ما أعجزكم !
ها أنتم أولاء تُلقون بأيديكم وتنتظرون الموت ، وتقطعون ما بينكم وبين

أهلكم وولدكم من أسباب الحياة ، وإن فيكم لبقية من قوة ، وإن في إيلكم لقدرة على الحركة وفضلا من النشاط ! لا والله ما أنا بمُسلم نفسي للموت حتى يُكرهني عليها . هلمّ فاضربوا في هذه الأرض ! فلعل الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجاً . »

ووقعت ألقاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث ، وإذا الآمال تحيا ، وإذا النشاط يتجدد ، وإذا القوم ينهضون إلى رواحلهم ، وإذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسعوا هم إليه . وينهض عبد المطلب إلى راحلته ، حتى إذا جلس عليها وزجرها نهضت وهمت لتندفع . ولكن ماذا ! ماذا يسمع القوم ؟ ماذا يرون ؟ هذا عبد المطلب يصبح بأعلى صوته مُكبِراً وهم يلتفتون ، فإذا عين غزيرة قد انفجرت تحت نُحف الراحلة ، وإذا هي تفور ، وإذا الماء ينبسط من حولها فينقع غلة الأرض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظمأء !

هلمّ يامعشر قريش إلى الماء الرّواء ! قد فجره الله لكم من الصخر الصلد هلمّ فاشربوا واسقوا إيلكم واملئوا مزادكم . هلمّ فانعموا بهذا الماء الصافي النقي البارد في هذه الفلاة القائمة المحترقة . والقوم يضحجون بالرضا والغبطة ، وإن للإبل من حولهم لأطيباً ملؤه الرضا والغبطة أيضاً . ومن ذا الذي زعم أن نفوس الناس وحدها هي التي تجد اللذة والألم ، وتشعر بالسرور والحزن ! روى الناس ، ورويت الإبل ، ورويت الأرض . وقالت رُسُلُ قريش لعبد المطلب : «عدّ بنا ياشيبةُ إلى مكة فقد قضى علينا ، وإن الذي أسقاك في هذه الصحراء وأنقذنا بك من البلاك ، هو الذي

أسقاك في مكة وساق إليك ما تُروى به الحجيج .
وأقبل البشير على سمراء ينبئها بأن زوجها قد عاد إليها سالماً موفوراً
مُظفراً ! فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون : « حبذا شيبةُ
مسافراً ! وحبذا شيبةُ مُقياً ! ولكن شيبةَ لن يخلص لي منذ اليوم ؛ إنه
ليريد كثرة الولد ! وأى نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه ! ؟ » .
ثم أشرقت شمس الغد على عبد المطلب وهو يسعى إلى عمرو بن عائد
المخزومي ليخطب إليه فاطمة ، وهي أمُّ جماعة من ولده بينهم عبد الله .

الفداء

أصبحت سمراء محزونةً كاسفة البال ، تبدو على وجهها المتجمد وجبينها المقطب كآبة مظلمة ، لم تحاول في هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها كما تعودت أن تفعل منذ أعوام وأعوام . فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احتفرت زمزم ، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد ، ورغبته في كثرة العدد ، ومنذ خطب فاطمة المخزومية فأحبها وكلف بها ، وانصرف إليها عن كل شيء وعن كل إنسان ، ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات ، واشتدّ لملك حبّ عبد المطلب لها وكلفه بها وانصرافه إليها ، وتجافيه عن زوجه الأولى ، تلك التي أضاعت له سبيل الشباب ، وأعانتته على احتمال أثقال الحياة الأولى .

نعم ! عرفت سمراء ألم الحزن في هذه الأعوام الطوال من حياتها ، ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال ، ذكية القلب ، تعرف كيف تخفي على زوجها ما يكره ، وكيف تلتقاه بما يجب . وكانت توفق بفضل هذه اللباقة وهذا الذكاء لأن تهتميل إليها زوجها وربما اضطرته إلى أن ينقطع إليها وقتاً ما ، وينسى زوجه الأخرى إلى حين . ولكن يوماً أقبل يحمل إلى سمراء شيئاً ليس فوقه شر ، وألماً ليس بعده ألم ؛ أصبح هذا اليوم مظلماً ، فما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها .

ذلك أنه مضى بموت ابها الوحيد . فأدافها مرارة التشكل واليتم والترسل
جيماً . فقد كان الحارث لها اداً تحدد عنده قرّة العين . وأباً تحسن منه
المطف وحنو الآباء : وكان هو يحسن ألمها ويعرف أسرارها ، ويجد
في الطب لهذا الألم ، فكان يبالي في رعاية أمه وحماتها . وكان شديد
الحرص على أن يلقاها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وعلى أن يطيل
المكث معها والتحدث إليها ، يشركها في جدّ أمره ولعبه ، يستشيرها
ويظهر قبول مشورتها والاستماع لنصحها . فكان يقوم منها في أكثر
الأحيان مقام أبيه ، وكان يعزّيها بحبه ويرثه عما كانت تجد من الوحشة
حين يصدّ عنها زوجها فيطيل الصدود . فلما مات الحارث مات معه
أمل سمراء ، ولم تلق الحياة إلا بوجه مخزون كئيب يصور قلباً مكلوباً
مظلماً . وقد جزعت سمراء لهذا الخطب واشتدّ جزعها وطال . ولكن أيّ
شيء يبقى على الأيام ! ولقد ذهبت الأيام الطوال بعدة هذا الجزع شدته
كما ذهبت بنصرة شباب سمراء ، وكما ذهبت بحياة ابنها الحارث ، وكما
ذهبت بحب زوجها عبد المطلب وأصبحت وقد تقدمت بها السن وامتنحتها
حوادث الدهر ، امرأة مذعنة لحكم القضاء ، لا تنكر شيئاً ، ولا يسرها
شيء ، محزونة ولكن في دعة ، ملناعة ولكن في هدوء !

وقد أحست إنكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها ، وما
يجلون من اتقياضها عنهم ، فجدّت ما استطاعت في إخفاء ما تجد وكتمان
ما تحس ؛ واحتفظت لنفسها بهذا الكثر الحزين ، كتر الذكرى وما تثيره
من العواطف ، وما تهبجه من اليأس . وتركت للناس من نفسها شخصاً

عاديًا يتسم حين يتسمون ، ويرضى حين يرضون ، ويشاركهم في أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور . على أنها كانت تجد شيئاً من الرضا وراحة النفس حين تجد من زوجها عطفاً عليها وأنساً إليها .

وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها ، كثير الزيارة لها ، يُصفيها مودة خالصة قوية ، ولكنها خالية أو كالحالية من هذا الحب الذي يحيي قلوب النساء . أصبحت سمراء في هذا اليوم محزونةً ظاهرة الحزن ، كئيبة بادية الكآبة ، أقبل عليها إمامها الثلاث يحميها تحية الصباح ، فردت عليهن تحيتهن ردًّا فاتراً؛ ثم جلست وجلسن ، وأخذت مغزها وأخذن مغازهن ، وعملت أيديهن في الغزل ، وسكنت ألسنتهن عن الكلام . وكانت سمراء تدع مغزها من حين إلى حين وتظل ساكنةً واجمة ، وربما انحدرت من إحدى عينيها دموع حارة فأسرعت لإيها تزيلها بيدها دون أن تقول شيئاً . والإمام صامتات ينظرن في حزن عميق إلى مولاتهن الحزينة ، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأها بالكلام .

فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن ، وثقل عليهن ما كن يجدن من ألم ، وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع ، ورغبة في الكلام ، وميل إلى تعزية مولاتهن ، اجترأت « ناصعة » وكانت أشجعهن قلباً ، وأطولهن لساناً ، لأنها كانت تعرف مكانتها عند سمراء ، فقالت : لقد أصبحت يا سيدتي على حال ما رأيناك عليها منذ زمن بعيد . فقد كنا نراك محزونة كئيبة ، ولكنك كنت تجاهدين الحزن وتدافعين الكآبة وتتكلفين الرضا ، وكنا نجد من ذلك ما يشجعنا على تسليتك وتلهيتك بالحديث

حيناً ، وبالغناء حيناً آخر ؛ تفصُّ عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها ، وتغنيك كل واحدة منا بما تعلمت من الغناء في رطانتها الأعجمية ؛ وكذلك كنت تسمعن أفاصيص سورية ، وأخرى حبشية وأخرى يونانية ، وكنت تسمعن أعاني في لغات أجنبية قليلاً ما تعجبك ، ولكنها كانت ترسم على ثغرك الابتسام في أكثر الأحيان . أما اليوم فلم تر منك حزناً قائماً ، ولم نسمع صوتك العذب ، ولم يرُعنا إلا هذه الدموع التي تسفحها في صمت أليم ! تكلمي يا مولاتي ! أيبني ! ماذا تجدين ! ماذا أحزنتك اليوم ؟ تكلمي وأحسني ظنك بنا ؛ فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن نبعث في قلبك السرور . نحن إماء ، ولكنتنا نساء نجد الحزن كما نجدينه ، ونحس اللوعة كما تحسها ! ولعلَّ حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك ! ولعلَّ حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا في السرور ! ولعلنا إن شاركناك في الحزن والألم جارينا طبائعا ، وأرسلنا نفوسنا على سجايها . فليس في حياتنا وإن كنت لنا مكرمة ما يسر أو يرضى . وأي شيء يسر أو يرضى في حياة الأمة الغريبة التي لا تملك نفسها ، ولا تحس إلا ذل الرق ، ولا تستطيع أن ترضى حقاً ، أو أن تسخط حقاً ، إلا إذا خلعت إلى نفسها . وأنى لها أن تخلو إلى نفسها ؛ تكلمي يا سيدتي ! ماذا يسوءك ؟ وماذا يغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين ؟

قالت « ناصعة » ذلك وانتظرت أن تجيبها سمراء ، ولكنها لم تظفر بجواب ، وإنما رأت دموعاً تنحدر ثم تنهمر ، ثم تستحيل إلى زهرات

حارة ونحيب غير منقطع .

وهنا محّا الحزن ما بين السيدة وإمامها من فروق ، فأسرعن إليها
يهدئها ويرفّقن بها : هذه تقبلها ، وهذه تمسح دمعها ، وهذه تتمرّ يدها
على رأسها ، وهنّ جميعاً يبكين لها ويبكين لأنفسهن . وقد هدأت سمراء
بعض الشيء ، وسكنت نفسها الثائرة إلى هؤلاء الإماء الرفيقات ،
فابتسمت لهنّ في حزن ، وشكرت لهنّ ما أظهرن لها من مودة وعطف ؛
وطلبت إليهنّ العودة إلى ما كنّ فيه من عمل ، وأخذت هي مغزها
وجعلت تديره في يدها . ولكن « ناصعة » لم تلبث أن عادت إلى الكلام ،
فقالت وهي تتكلف الابتسام وتتصنع الضحك : ليس يُغنى عنك الصمت
يا مولاتي ؛ فإننا نعلم ما تُسرّين كما نعلم ما تُعلنين . ولولا خوفنا منك وإكبارنا
إياك لقصصنا عليك القصة التي تحزنك وتجرى دموعك الحارة على خدك
التي ؛ ولكن أنى لنا أن نبلغ منك هذه المكاتة ، وإنما أنت سيدة
ونحن إماء !

قالت سمراء : كفى عن هذا الحديث يا ناصعة ! فقد أنسيت اليوم
أنّ بيني وبينكن فرق ما بين السيدة وإمامها ، ولست أرى منكن الآن
إلا نساء تعسات مثلي ؛ وإنما نحن أخوات في الشقاء والبؤس ؛ وما ينفعني
أنى حرّة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم ، محتملة للذلّ ، مُدعنة لصروف
القضاء ، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً ، ولا أستطيع أن أبرح هذه الدار
وإلى أين أبرحها ! لقد ذهبت غارة بني أسد بأبي وأخى ، وأصبحت
أمى وأخواتي إماء مثلكن ، لا أعرف من أمرهن شيئاً ، ولم ينهض فتيان

بنى عامر وكماتهم للثأر ! ليت شعري ماذا يصنع أبو براء بأسنته ! !
ماله لا يُلاعِبها ! لقد ذهب الموت بابني . وأصبحت أسيرة في يد
عبد المطلب ، أسيرة لا كالأسرى ؛ يحفونى ولا أستطيع له بغضاً ولا قلى
كما يفعل الأسرى ، وإنما أحبه ولا أجد عن داره منصرفاً . ها هو ذا قد
عاد من رحلته إلى اليمن منذ ثلاث ، فلما بلغ مكة أسرع إلى هالة بنت
وهيب ، فقضى عندها أولى لياليه وأول أيامه ؛ لأنها أحدث زوجاته به
عهداً . ثم أصبح فانتقل إلى نتيلة فأقام عندها يوماً وليلة . ثم أصبح
فانتقل إلى فاطمة فأقام عندها يوماً وليلة . وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين
فيلم بهذه الدار إلمامة قصيرة ، ثم يسرع إلى هالة ، فما أشد شوقه إليها !
وقد حدثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون الرجال سمةً ، وأبرع
ما يكونون جمالا . وحدثت أن هالة أنكرته حين رآته ؛ فقد ودعنا أبيض
الرأس وعاد فاحم الشعر كأنه لم يتجاوز الثلاثين^(١) . وقد أنكرته من
الغد قریش كلها لما رأت من سواد لمته . ولكنه أزال عجب قریش حين
أظهر لها هذا الخضاب الذى حمله من اليمن ، والذى يرد الشيب
شباباً ، والذى أسرع قریش إليه فاشترت منه ، واختضب به شيبها
فإذا أهل مكة كلهم شباب . كل ذلك ولم أر عبد المطلب ، ولم أحس
منه ذكراً لى وحيناً إلى . وماذا يصنع بى ؟ ليس لى شباب هالة ،
ولا جمال نتيلة ، ولا ولد فاطمة ! وإنما أنا عجوز فانية ، يتيمة وحيدة ،
ليس لها أب ولا أم ولا ولد . أنا هذا الحمل الثقيل الذى يضيق به صاحبه ،

(١) انظر طبقات ابن سعد : ص ٥٢ ج ١ ق ١

ولكنه يأبى أن يُلقيه ويتخففَ منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور .

قالت ذلك وأغرقت في بكاء طويل شاركها فيه إماؤها الثلاث .
ولكن « ناصعة » لم تلبث أن قالت : أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك يا سيدتى ! إنك إذا لتجهلين كل شيء ، ولا تعلمين إلا أقلّ أمره خطراً .
وإنّ عندي من أمر سيدنا ما لو قصصته عليك لأرضاك ، ولخفف لوعة الحزن هذه التي تحرق فؤادك الكئيب . لن ترى زوجك اليوم يامولاتى فهو عنك في شغل . لقد كان راضياً مسروراً حين كان يرى نساءه يُنكرن سواد ليمته ويُعجبن بشبابه الحديد ، وحين كانت قريش تستبق إليه تشتري منه هذا الخضاب بما أحب من مال . ولكنه محزون منذ أمس ، مغرق في حزن لا قرارة له ، فهو خليق بالرثاء . إنك تحبينه يا سيدتى وستنسرين إعراضه عنك وسترثين له ، وإنى أخشى أن تخفى إليه حين تعرفين نبأه . قالت سمراء في شيء من الجزع بدأ هادئاً ، ولكنه لم يلبث أن اشتد قليلاً قليلاً حتى بلغ أقصاه : ماذا تقولين ؟ وبم تتحدثين ؟ هو محزون ! هو خليق بالرثاء ! لماذا ؟ أبينى متى علمت بذلك ؟ كيف أخفيته على ؟ ما الذى يحزنه ؟ ما الذى يسوءه ؟ ما الذى يجعله أهلاً للرثاء ؟ ما الذى يضطرنى إلى أن أخيفَ إليه لأعزّيه وأواسيه ؟ قولى ، أسرعى ، لا تخفى على شيئاً .
قالت ناصعة : مهلاً يا سيدتى ! ارقى بنفسك ولا تذهبي بها في الخيال كلّ مذهب ! لا بأس عليه في نفسه ولا في ماله ، ولكنه يُمتحن منذ أمس في بنيه . هو تى عليك ! إنّ في هذه المحنة لعزاء لك عن فقد حارثك

العزير . أتذكرين يوم احتضر زمزم فنذر لثن أوتى من الولد عشرة ذكوراً قالت سمراء : يراهم ليضحين بواحد . يا بؤس هذا اليوم ! فقد عرفت هذا النذر فكان مصدر شقائي كله ، عرفت أنه سيستكثر من النساء ، ورأيت مدية التضحية ممدودة إلى عنق قد يكون عنق ابني العزير . منذ ذلك اليوم كرهت النساء جميعاً ؛ لأني رأيت في كل واحدة منهن ضرة لى . ومنذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقباً بهذا البيت ما أقام فيه ابني ، مفارقاً لهذا البيت ما فارقه ابني . ومنذ ذلك اليوم لم أر ابني في يقظة ولا في نوم إلا رأيت الموت ظلاً . أتمنى حديثك يا ناصعة .

قالت الفتاة : لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا ، وذكر أن أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء يراهم بمولد طفله حمزة ، فأقسم ليوفين نذره ، وليضحين بأحد أبنائه ، وليجعلهم تسعة منذ اليوم ، حتى تتمهم له هالة أو نتيلة أو غيرها عشرة أو تزيد بهم على العشرة ، ولم يكذب يعقد هذه اليمين حتى جزعت فاطمة وشاركها بناتها في الجزع . أشفقت على الزبير وأبي طالب وعبد الله وغيرهم من بنينا . وبلغ الخبر نتيلة فخافت على العباس . وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة . وثارت لكل امرأة قبيلتها ، وألح الناس على الشيخ : تأبى كل قبيلة أن تكون التضحية منها . ومضى الشيخ في يمينه ، فجمع إليه بنيه وأبناهم بنذره ، فكلهم أقره ، وكلهم أطاعه ، وكلهم ألح عليه ليوفين بالنذر ، وليقد من التضحية . وليس لقريش منذ أمس حديث إلا هذا النبأ ، هم يتناقلونه ويكبرونه وينكرونه ، وقليل منهم من

يُقرّ الشيخ على هذا العزم الفطيع .
ثم قالت الفتاة: ثم أقبل الشيخ بينه إلى الكعبة مع الصبح ، فأجال فيهم قداحه ، فخرج القدح على أحبّ بنيه إليه وآثرهم عنده . قالت سمراء وهي مضطربة ، وقد سالت من عينها دمعتان محرقتان : خرج القدح على عبدالله ؟ قالت الفتاة : نعم ! فأخذ الشيخ بيد ابنه يقوده إلى المذبح وفي يده المدية . ولكن بناته جميعاً وأمّهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بنى مخزوم ، ويستصرخن قريشاً كلها ، ويمنعن الفتى بحياتهن . وأقبلت إحداهن إلى الشيخ ضارعةً نائرةً معاً فقالت : إذا كان قلبك قد استحال إلى صخر ، فلا ترقّ لابنك الشاب ، ولا لأمه الشبيخة ، ولا لأخواته البائسات ، وإذا كانت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت ، حتى جعلت للآباء على أبنائهم حقّ الحياة والموت كأنهم الرقيق أو الحيوان ، فدعنا نحتكم في هذا الفتى إلى رب هذا البيت ؛ فهو أوسع منك رحمةً وأجدر منك أن يضمنَ بهذا الشاب على الضياع ، وأن يربأ بهذا الدم الزكيّ أن يُراق . لنحتكم إلى رب هذا البيت في أمر هذا الفتى . لنُقرع بينه وبين هذه الإبل الكثيرة التي تُسيمها في الحرم ، ولنبلغن من ذلك ما يُرضى رب هذا البيت .
وكانت قلوب قريش قد تفترت حزناً ، وتصدعت أسى لقول هذه الفتاة وهي تبكي ، وقد التزمت أخاها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهي تصيح : لأموتن قبل أن تموت ! فما زالت قريش بالشيخ تلاينه حيناً وتخششه حيناً ، حتى اضطرت أن يقبل تحكيم الآلهة .

قالت سمراء وقد بلغ بها الهلع أقصاه : ثم ماذا ؟ قالت الفتاة :
ثم لا أدري ! تركتهم يتأهبون لإجالة القداح بين الفتى والإبل ،
وأقبلت أقصاً عليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق .

قالت سمراء : يا بؤساً لهذه الحياة ! لا يسعد فيها الناس بخير - مهما
يكثر - كل السعادة ، ولا يشقى فيها الناس بشر - مهما يعظم - كل
الشقاء . أسعيدة أنا بموت الحارث أم شقية ؟ لو قد عاش لذقت الآن
ما تذوقه فاطمة من هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك . ولكنى كنت أوثر
مع ذلك أن يعيش ؛ فقد كان يمكن أن تخطئه القداح ، وقد كان يمكن
إن لم تخطئه في المرة الأولى أن تخرج على الإبل من دونه ، وقد كنت
أستمع به أعواماً . ولكن هلم لا مقام لنا الآن ، لنسرع إلى حيث هم
لنشاركهم فيما يجدون . واحسرتاه ! إني لصادقة الحزن ! إني لصادقة الخوف !
إني لشديدة الإشفاق ! إني لشديدة الرجاء ! ولكن فاطمة ستظن بي سوءاً ،
وستقدر أني أقبلت غير بريئة النفس من الشماتة . قالت ذلك ونهضت يدها
حزنها الخالص ويردها خوفها من سوء الظن . ولكنها أسرعت مع ذلك ،
وأسرع معها إياها . ولم تكاد تتقدم في الطريق نحو المسجد حتى
سمعت أصواتاً ورأت اضطراباً ، ثم تبينت في الأصوات فرحاً ، ورأت
على الوجوه بشراً ، وعرفت أن القدح قد خرج بعد لأي على مائة من
الإبل ، وأن عبد المطلب يؤذن في الناس أنه سينحر هذه الإبل بين
الصفاء والمروة ، وأنها حرام عليه وعلى بني هاشم ، مباحة لغيرهم من
الناس والحيوان والطير .

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها ، وهن سائرات يحطن بالفتى ، ويحطن بينه وبين غيره من الناس ، حتى إذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تبكيان ، إحداهما هالة بنت وهيب أم حمزة وزوج عبد المطلب ، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب .

هنالك أقبلت سمراء هادئةً باسمه إلى الفتاة ، فكفكفت من دموعها ، ضممتها إليها وقبلت جبينها الطلق . ثم التفتت إلى عبد الله وهي تقول : « هلمَّ يا فتى فقبل أهلك ، فمهما تغلُّ لها في المهر فلن تبلغ هذه الدموع التي ذرقتها حزناً عليك . » ثم نظرت إلى فاطمة وهي تقول : « ألا ترين أنها أحقُّ فتيات قريش أن تكون له زوجة ! » .

الإغراء

أقبل أبناء عبد المطلب فهيتوا لأبيهم مجلسه في المسجد غير بعيد من بئر التي كشفت له . وأقبل الشيخ بعد قليل مُشرقَ الوجه باسمِ الثغر ، فأسرع إليه أبناؤه يلقونه بالتحية ويقرعون عليه السلام . وأقبل عليهم يجيئهم ويدعو لهم ، حتى إذا أخذ مكانه أشار إليهم فجلسوا من حوله ، قال قائل منهم وعلى ثغره ابتسامة فيها حبة وفيها دعابة ، وفيها غيرة لا تكاد تبين : لم يأت بعد ، وما علمناه منذ حين إلا نؤوم الضحى . قال الشيخ وابتسم كالمغضب : تحسبك ! فكلكم قد أدركه الضحى ولما يرفع رأسه عن الوساد . ثم أخذوا في حديث القافلة التي كانت تهباً للرحلة إلى الشام ، وأخذ أبناء الشيخ يتحدثون إلى أبيهم بما أعدّ أغنياء قريش من عروض التجارة لتحمل إلى بُصرى وما يليها من بلاد الروم . وهم في الحديث وإذا الفتى يُقبل وسياً قسيماً مستقيماً القدر معتدلاً القامة ، قريباً انحطاً شاخصاً بصره إلى السماء ، حتى إذا دنا من أبيه أقبل عليه فحياه ، وتلقاه الشيخ رقيقاً به عطوفاً عليه ، ثم أذن له بالجلوس وأدنى مكانه منه ، وأعرض عنه حيناً كأنه يسمع لحديث أبناؤه عن القافلة كيف تهباً ، ومن تكون ، ومتى تفصل . ثم التفت إلى ابنه الشاب

وقال له وهو يبتسم : ما أرى يا بُنىّ إلا أنك قد أحببت النعمة وآثرت
لين العيش ! وكلنا قد أحببنا النعمة كما تحبها ، وكلنا آثر اللين كما
تؤثره ، وكلنا قد لزم أهله حتى كاد ينسى كل شيء ، ولكن الأيام
تُنبه الغافل ، وتوقظ النائم ، وتذكر الناسي . وإني لأحب أن أنبهك قبل أن
تُنهبك الأيام ، وأن أوقظك قبل أن تُوقظك الأحداث ، وأن أذود عنك
النسيان قبل أن تذوده عنك الخطوب . وخير لك يا بني أن تترك النعمة
الآن لتعود إليها بعد حين من أن تظل فيها مُفترقاً وعليها حريصاً ولها
لازماً ، حتى تضيق بك وتنفر منك ، وتنصرف عنك إلى غير رجعة .
وفي الرحلة يا بني مع عمك الأديين رياضة لك يسيرة على احتمال الصعاب
واقترام العقاب ، وتسلية لك هينة عن هذه اللذة المتصلة والنعيم المقيم .
وما أشك في أنك ستترك أهلك كارهاً لذلك ضيقاً به ، ولكنك ستستعذب
الفراق وتستلذّ النوى ، وتجد من ذكر أهلك على نزوح الدار وبعده
المزار ، مثل ما تجد من حب أهلك والدار قريبة والمزار يسير . فهبي
نفسك للرحيل مع العير ، واحرص على ألا تعود أقل ثراء من أمثالك
الذين سيرحلون إلى الشام من شباب قريش . وقد أجمعت وأجمع إخوتك
أن نكل إليك ما عندنا من هذه العروض التي تجمعت لنا منذ أشهر
لتحملها لنا إلى بلاد الروم ، فتاجر لنا فيها ، وتقاسمنا ما نُغل علينا
من ربح . والرأي أن تسعى في أصهارك بني زهرة بمثل ذلك ، فتحمل
عهم عُروضهم وتقضي لهم حاجاتهم . وما أظن أنك صفر اليد ، فقد
تستطيع أن تتخذ لك حظاً من تجارة تقصرها على نفسك ، حتى إذا

رجعت إلينا كنت موفورَ الحظ من المال بما يجتمع لك من ربح هذه التجارة كلها . كلنا يا بني قد رحل إلى الشام حيناً وإلى اليمن حيناً وإلى العراق حيناً آخر ، ومنا من أمعن في الرحلة حتى بلغ مصر . ومنا من أغذ^(١) السير حتى عبر البحر إلى بلاد الحبشة . ومنا من أبعد السفر حتى انتهى إلى أعماق فارس . ولكنني أرى لك أن تمعن في غير إسراف ، وأن تبعد دون أن تنقطع عن جماعة من قومك . والأيام خليقة أن تغريك بالأسفار البعيدة والرحلة المتصلة . فقم يا بني فأصلح من شأنك ، وهيء أهلك لهذا الفراق ، فما أظن أن آمنة سترضاه أو تستريح إليه .

قال ذلك في لهجة ملؤها الحنان المقنع ، والجد الذي لا يحتمل الجدل ولا يُبيح رجع الجواب . وكان الفتى يسمع له راضياً ، تظهر على وجهه آثار الطاعة والثقة . حتى إذا فرغ من حديثه أطرق الفتى غير طویل ، ثم رفع رأسه وهمّ أن يتكلم فلم يجد ما يقول ، فنهض مسرعاً حتى خرج من المسجد ومضى أمامه لا يلوى على شيء . وكانت شمس الضحى قد ارتفعت حتى قاربت أن تستوى في كبد السماء ، وكانت أشعتها الحارة المحرقة قد أخذت تلحّ على الأرض والناس ، حتى قهرتها وقهرتهم أو كادت . والفتى ماض في طريقه كأنه السهم لا يلتفت يميناً ولا يسرةً ، ولا يكاد ينظر إلى أبعد من مواقع قدميه . وإنه لفي ذلك وإذا صوتٌ عذب يأتيه من قريب بهذا البيت :

(١) أغذ السير وفي السير : أسرع .

يا مُسرِعاً والناسُ من حوله يسعون لم يأن لغاد رَوَاح
فيهم أن يقف ، ولا يكاد يفعل حتى يأخذَه صوتٌ آخر ليس أقل
عذوبةً ولا حسنَ وقع في النفس من ذلك الصوت الأول :
يا مطرقاً والأرضُ من حوله يزينها حسنُ الوجوه الصباح
هنالك يقف الفتى ويلتفت صوبَ الصوت ، ولكنه لا يكاد يفعل
حتى يمسه صوت آخر فيه نعومة الحرير ، وعذوبة الماء النخيل :
عرج علينا فأقم ساعةً فعندنا إن شئت رَوَاحُ وراح
هنالك وقف الفتى والتفت وهو يقول : ما رأيت كاليومُ دعاء ولا
إغراء ! وقد اتصل طرفهُ بوجوه ثلاثة حسان ، تُشرق بها كوى ثلاث
في دار فاطمة بنت مُرّ الخثعمية . قال الفتى : ما خطبكن؟ قالت إحدى
الفتيات : ما خطبك أنت؟ فيم إرقالك على هذا النحو ولما يئن لشباب
قريش أن يروحوا إلى أهلهم؟ وفيم تركت أباك وإخوانك وأترابك في
المسجد؟ هلا بقيت كما بقوا وانتظرت كما ينتظرون ! قال الفتى في صوت
فيه دعابة الطامع ويأسُ المضطر إلى الإسراع : ما أنتِ وذاك؟ إن أدعهم
فلأمر ما . قالت فتاة أخرى ؛ إن تدعهم فلتخلُ إلينا فتحدثنا وتسمع
منا ساعة من نهار . قالت ثالثة : هلم يا فتى أقبل ، فما هذه ساعة حديث
يُلقى من الكوى ! إن الشمس محرقة وإن القيظ لشديد ، وإني لأوثرُ
ما كنت فيه من الإرقال آنفاً على ما أنت فيه من الوقوف الآن . قالت
إحداهن وكأنها تتغنى :
عرج علينا فأقم ساعةً فعندنا إن شئت رَوَاحُ وراح

وهمّ الفتى أن يأبى ، ولكنهن ألحجن عليه ، ومضين يدعونه ويُغرينه حتى استجاب لهنّ .

وما هي إلا أن دخل الدار وأغلق من دونه بابها ، وأقبل الفتيات عليه مبتهجات له رفيقات به : هذه تمسح رأسه ، وهذه تمسّ وجهه ، وهذه تأخذ بطرف رداثه ، وهو يحاول أن يتقيهن وأن يمتنع عليهن ، فلا يجد إلى شيء من هذا سبيلاً . وكانت فاطمة الخثعمية أطول هؤلاء الفتيات قامّةً ، وأوسمهنّ وجهاً ، وأعذبهن حديثاً ، وكانت على جمالها الرائع وحسنها البارع ذكية القلب ، نافذة البصيرة ، ضخمة الثروة ، تعيش في مكة مترفةً ناعمةً ، من حولها عدد غير قليل من الموالى والأحلاف والرقيق على اختلاف أجناسه وتباين حظوظه من المهارة في الفنون المختلفة التي كان يحسنها الرقيق بمكة في تلك الأيام .

وكانت فاطمة الخثعمية برزّة^(١) متبديةً في مكة بعض الشيء ، لا تكره أن تظهر للرجال وتأخذ معهم في ألوان الحديث . وكان شباب قريش يحبون منها ذلك ويكلفون به ، ويختلفون إليها إذ كان المساء ، فيقولون لها ويسمعون منها حتى يتقدم الليل ، وربما أديرت عليهم في الشتاء أقداح من خمر بيسان ، وفي الصيف أقداح من زبيب الطائف . ولم يكن عبد الله من هؤلاء الفتيان الذين يألّفونها ويختلفون إلى مجلسها . وأين هو من ذلك وإنه لمن قوم حظهم من الله ونصيبهم من الاستمتاع

(١) البرزة من النساء : التي تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون معها ، أو الموثوق برأيها وعفافها . والبرزة أيضاً : بارزة المحاسن .

بالحياة الفارغة الناعمة ضئيل ! وكان عبد الله حديث مكة في هذه الأيام منذ همّ أبوه أن يتقرب به إلى الآلهة وفاء بنذره القديم ، فأنقذه الفداء من هذا الموت المنكر ، كان حديث مكة وحديث نساءها خاصة ، يذكرون شبابه الغضّ الذي كاد يُذويه الموت ، ويذكرون جماله الفاتن الذي كاد يحتويه القبر ، ويذكرون هذا الخضر الجادّ الصارم الذي لم يكن يُعرف في فتیان قريش ، ويذكرون هذه الفتاة السعيدة التي قدّر لها أن تكون له زوجاً . وكانت فاطمة الخثعمية أكثرهنّ حديثاً عنه ، وأعظمنّ إعجاباً به ، وأشدّهنّ شوقاً إلى لقائه . رأته يوم الفداء جلدأ صبوراً مبتسماً للموت ، لا يظهر على وجهه أثر من آثار الجزع حين كان أبوه يُقرع من دونه بالإبل ؛ فكانت القداح تأتي أن تخرج إلا عليه . ورأته بعد أن تمّ الفداء ورُفِعَ عنه نذير الموت ، فعاد بين أمه وإخوته مبتسماً للحياة كما كان يتسم للموت في هدوء واطمئنان ، لا يزدنيه فرح ولا يستخفه طرب ، ولا يخرجه عن طوره أمل في الحياة السعيدة والنعيم المقيم .

من ذلك اليوم وقع الفتى من نفس فاطمة موقعَ قطرة الندى من الزهرة الغضة عند إشراق الصبح ، فأحبه وتمنته ، وكلفت به وحرصت عليه . وقضت أياماً لا تتحدث إلا عنه ، وليالي لا تفكر إلا فيه . وقد تحدّث إليها الناس من مساء ذلك اليوم بأن آمنة بنت وهب قد خطبت له وسترفّ إليه عما قريب ، فرأى الناس على وجهها جزعاً بادياً وحزناً عميقاً ؛ وكانت كثيراً ما تتحدث إلى أترابها بما تجد من حب وما تحتل من ألم . ولست أنا الذي شبه موقع الفتى من نفسها موقعَ قطرة الندى

من الزهرة ، إنما هي صاحبة هذا التشبيه . فقد كانت تقول لصاحبها عاتكة بنت سهم : أتعرفين كيف تنعم الزهرة حين يمسه الندى إذا أسفر الصبح ؟ ! فكذلك نعمت حين مسني حب هذا الفتى يوم الفداء . وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تشتاق الزهرة إلى قطرة الندى إذا ارتفع الضحى واشتد عليها حر الشمس كلما تقدم النهار ؟ ! فكذلك أشتاق أنا إلى هذا الفتى كلما بعد العهد بيني وبينه ، وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تهيم الزهرة بقطرة الندى إذا أظلمها المساء وأقبل الليل ، وأحست برد السحر وعرفت أن سقوط الندى قريب ؟ ! فكذلك أنا أهيم بهذا الفتى إذا أشرق الصبح وقرب غدو قريش إلى مجالسها في المسجد ، أو إذا اعتدل النهار وآن لقريش أن يروحوا إلى أهلهم . وكانت عاتكة بنت سهم ترثي لها وتشفق عليها ، وربما بلغ منها الرثاء والإشفاق أن تسخر منها بعض الشيء ، فكانت تقول ؛ ويحك يا فاطمة ! إنك لمن قوم بداءة جفافة فيهم خشونة وغلظة ، وما أعرف أن تجار قريش يخافون على أنفسهم وأموالهم في رحلة الشتاء أحداً كما يخافون هذا الحى من خثعم . ولولا خوفهم من هذا الحى ، وإكبارهم لبأسه وبطشه ، لما أيسر أبوك ، ولما كان له هذا المال الضخم ، وهذا العدد الكثير من الرقيق والأحلاف ، ولما اتخذ لك هذه الدار الأنيقة الواسعة في مكة تقيمين فيها كما يقيم أغني بنات قريش فكيف نبتت هذه الزهرة الرقيقة الأنيقة في تلك القبيلة التي لا تشتاق إلا إلى الدماء ! وكانت فاطمة إذا سمعت هذا الحديث ابتسمت عن نفس حزينة وقالت : ما أشد جهلكم يا أهل المدر بما يظل الوبر من نفوس حية

وقلوب رقيقة وأكباد يعبث بها الحب ويعصف بها الغرام .
فلما طال على الفتاة أمر هذا الحب وثقل عليها ، رقت لها عاتكة
بنت سهم ، و رقت لها سلمى بنت خزيم ، وقالت لها : ألقى عليك
الخطب وهوتى عليك الأمر ، فليس هذا الفتى إلا غلاماً من قريش
له رقة قلوبهم وفيه حبهم للحياة وكلفهم بلين العيش . وقد أصهر اليوم إلى
بنى زهرة ، وما أيسر أن يصهر غداً إلى خثعم . وما نحسب أنك تكرهين
أن تكونى زوجه الثانية . وما نحسب أنك تخافين أن تغلبك آمنة على
قلبه ؛ فقد يكون لآمنة جمالها ومكانها من قريش ، ولكن لك جمالك ،
ومالك ، ومكانتك من خثعم . فالرأى أن نجمع بينك وبين الفتى ، وأن
يحبس منك حباً له وميلاً إليه ، فلعل ذلك أن يغريه بالخطبة . وأى شيء
أحب إلى أبيه وإخوته من أن يصهروا إلى عظيم خثعم فيأمنوا شياطينها
وشياطين مُراد ، وهذه الأحياء التى تأخذ عليهم طريقهم إلى بلاد
اليمن ! ! وكذلك دبر الفتيات أمرهن وجعلن يرصدن للفتى إذا غدا
ويرصدن له إذا راح ، حتى ظفرن به فى هذا اليوم .

فلما أغلق من دونه ومن دونه الباب لم يلبثن إلا قليلاً حتى نظر الفتى
فإذا فاطمة وحدها قائمة أمامه ، ترسل إليه من عينيها الحادثين ناراً محرقة
عذبة ، فيها حب لا حد له ، ورغبة لا حد لها ، وحنان لا حد له أيضاً
قال : يا هذه غضى جفونك عنى ، فإنى أجد للحظك مساً لا دعاً . قالت
وأنت ، فامدد إلى عينيك ؛ فإنى أجد فيهما شفاء لما يعذبني من سقم ،
وربما لما يحرق فؤادى من صدى ، قال : ما لهذا أقبلت ، فأين صاحبك؟

قالت : ما أنت وصاحبتي ! إنما كانتا صديقتين أعانتا على أمر ،
ثم مضت كل واحدة منهما إلى وجهها . أقم معي ساعة أو بعض ساعة .
فقد طالما تمنيتُ هذا اللقاء ، واشتقت إلى هذه الخلوة ، وسمتُ نفسي إلى
أن يتصل بينك وبينى الحديث . قال : يا هذه ، ما أحبّ هذا إلى وآثره
عندي ! إن في وجهك لإشراقاً حلواً ، وإن في طرفك لسحراً فاتناً ،
وإن في صوتك لعدوبةً تخلبُ العقول وتستهوئ الألباب ؛ ولكنني عن
هذا كله عَجَلٌ . قالت : فما يُعجلك عنه ، وإلى أين كنت تريد ؟
قال : يُعجلني عنه شغلٌ شاغلٌ وهمٌ طارئٌ . ولقد كنت أريد إلى أبي
قُبَيْسٍ حيث يقيم أهلي . قالت : أقم يا زين قريش ! إن أبا قُبَيْسٍ لن
يريم^(١) ، وإن أهلك لن يبرحوه ، وإن خير ما في الأمكنة والدور أنها
ثابتة باقية لا تتحول ولا تزول إلا في بطاء ، وإن شر ما في الزمان أنه
لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار ولا يحب السكون والاطمئنان ، إنما هو انتقال
دائم وحركة متصلة لا تستطيع الجمع بين أطرافه بل لا تستطيع الجمع بين
أجزائه . أقم ! فستبلغ أبا قُبَيْسٍ في أي وقت شئت ، وستلقى أهلك في أي
لحظة أحببت ، ولكن هذه الساعة إن تُفلت منك فلن تعود إليك ، ولعلك
لا تحرص عليها ولا تحفل باستدراكها ، فاعلم أني عليها حريصة ولها محبة .
واعلم أني مشفقة أن تضيع ، فقد تعلقت نفسي بها منذ يوم الفداء . لقد
رأيتك مقبلاً إلى المسجد ، ورأيتك منصرفاً عنه ، ورأيت على وجهك
ابتسامةً واحدةً للموت وللحياة جميعاً . لم يكن وجهك مظلماً حين كنت

(١) لن يريم : لن يبرح ولن ينتقل .

تنتظر الموت ، ولم يزدد وجهك إشراقاً حين رُدّت إليك الحياة . ولقد ارتسمت في نفسي ابتسامتك هذه فلم تفارقها ، ولم أرك منذ ذلك اليوم ولن أراك إلا مبتسماً . أقم يا فتى ! إن وجهك كوضىء وإن جبينك لمضىء ، وإن عينيك لتسرعان إلى القلب ، وإن صوتك ليسبع على حناناً حلواً يُدنيني منك ويدفعني إليك . أقم ! وليكن بيني وبينك طرفٌ من حديث . فمن يدري ! لعل هذا الحديث أن ينتهى بك وبى إلى شىء .

قال : وما عسى أن يكون هذا الشىء ؟ إن شخصك ليشبثنى في هذا المكان ، وإنى لأجد في قلبي شيئاً يدفعنى عنه ، وإن نفسى لمضطربة بين هذين الداعيين الملحين : يُهيب بى أحدهما أن أقم ، ويهيب الآخر أن أنصرف قالت : أقم يا فتى ، وخلاك ذمٌ ، فما ينبغي وقد دخلت دارنا أن تخرج منها ولما تُصب عندنا شيئاً من القيرى . قال : لست ضيفاً ولا طارقاً ، وليست الساعة ساعة قري ، دعينى أنصرف الآن كارهاً ، وما أظن إلا أنى عائد إليك إذا كان المساء . ثم همّ أن ينصرف ولكنها أقبلت عليه ورنّت إليه بطرف ساحر فاتر أثبتته في مكانه ، فمسته بيدها مساً رقيقاً وقالت : وكذلك يذهب عبثاً ما أنفقت من جهد ، ويمضى سدى ما بذلت من حيلة ، وتنصرف ولما يتصل بينك وبينى الحديث ، ولما تتصل بين قلبي وقلبك الأسباب ! ! أقم فلا بدّ من أن أسألك ، ولا بدّ من أن تجيب . انظر إلى هذه الوسائد ، لقد هبّت لك منذ اليوم فاجلس . وانظر إلى هذه الجارية ! لقد أقبلت تحمل شيئاً من شراب . فجلس الفتى وجلست منه غير بعيد . وأقبلت جارية سوداء تحمل إبريقاً وأقداحاً فوضعت ما في

يدها وملاأت قدحين وقدمت إليه أحدهما وهي تقول : دونك شيئاً من زيب الطائف يا زين قريش ، ثم قدمت إلى مولاتها قدحاً آخر وانصرفت قالت فاطمة : أنبت منذ حين أنك قد خطبت آمنة بنت وهب وأنا قد زفت إليك . أسعيد أنت منذ أعرست ؟ أناعم البال أنت منذ استأنفت حياتك الجديدة ؟ قال : وما ينعني أن أكون سعيداً ناعم البال ، وإني لأجد عند آمنة أكثر مما كنت أريد ؟ ! قالت : ولكنك لا تجد عندها المال والثراء ولين العيش . قال : فإن ذلك شيء يكسبه الرجال وينفقون حياتهم في السعي إليه ، وإني لآخذ في أسباب ذلك ، فقد كنت حين رأيتني رائجاً قبل أن يأتي لي أن أروح ، ذاهباً إلى حيث أهبي للرحلة . قالت وقد ظهر عليها الخوف : أمرت حل أنت ؟ وإلى أين ؟ قال : إلى حيث ترتحل قريش . قالت : فإن مثلك لم يُخلق لهذا العناء . أقم يا فتى : فإن المال كثير ، والثراء موفور ، وإن لك من ذلك ما أحببت ، وأن لك من ذلك لفوق ما تحب . إنك لتعرف لمر الخثعمي إبلاً ترعى خارج مكة لا يكاد يحصيها العد . وإنك لتعلم أن لمر الخثعمي عند تجار قريش وصيارفهم من الذهب والفضة والعروض شيئاً كثيراً . وإنك لتعلم أن يد فاطمة بنت مر في هذا كله مطلقة ، فليس لي أخ وليست لي أخت ، فثروة أبي خالصة لي لا يشاركني فيها أحد ، وهي لمن سأختره بعلاً . أقرضني أن تكون هذا البعل ؟ قال : هذا شيء تتحدث به إلى النفس منذ رأيتك وقبل أن تذكر لي مالك الضخم وثراءك الموفور . وإن فيما أرى من جمالك وعقلك وكمال خلقك وحسن منزلك من خثعم ، لما يجيبك إلى ويغريني

بما تعرضين عليّ ، فهل لك في أن تمنحيني سعةً من وقت وشيئاً من مهلة ، لا لأفكر ولا لأروى فقد فكرت ورويت ، ولكن لأتحدث في ذلك إلى أبي ، ولأنظر كيف يقع ذلك من آمنة ، فإن عهدتها بالعرس حديث ، وعزيز عليّ أن أسوءها ولا يمض عليّ زواجنا إلا أمدٌ قليل .

قالت : لك ما شئت من سعة ، ولك ما شئت من مهلة . وعزيز عليّ أن أروع آمنة أو أن أسوءها ، فما جنت عليّ شرّاً ، ولا قدّمت إليّ سوءاً . وليكني أحببتك وآثرتك وكرهت لك ما يذهب بنصرة كثير من فتيان قريش من هذا الرحيل المتصل الذي يضيع عليهم الصيف والشتاء .

ولتعلّمنّ آمنة أني لا أريد لكما إلا خيراً ، ولا أؤثركما إلا بأحسن ما تحبان ، ولن أكون لآمنة علة (١) ، ولأكونن أقرب إليها وأعطف عليها من هالة بنت وهيب . فكّر إذا ما وسعتك التفكير ، ورو إذا ما وسعتك التروية ، وتحدّث إلى أهلك وإلى أبيك ، وانتظر بالخطبة والزفاف ما شئت أن تنتظر . ولكن أقمّ عندي هذا اليوم ؛ فإنني أجد في جوارك لذةً وفي حديثك متاعاً ، وإنني أحسّ أنك تجد مثل ما أجد وتحبّ مثل ما أحبّ .

ثم دنت منه وأقبلت عليه بوجهها المشرق الجميل ، وهي تقول في صوت هاديّ عذب أدنى إلى الهمس منه إلى الجهر : هلمّ ، فقد نخلت لنا الدار ونأى عنا الرقيب ، وقد وهبت لك نفسي فهبّ لي نفسك ، ولنقضه يوماً حلواً سعيداً . هنالك ارتد الفتى عنها وقد أخذه خوف رفيق وإشفاق هاديّ وهو يقول :

(١) العلة : الضرة .

أما الحرامُ فاللماتُ دُونَهُ والحليلُ لا حَلَّ فاستبينه
فكيف بالأمر الذي تنوينه

قالت : ما أشدَّ ما ترتاع لما لا يروع ! إني لأعرف فيك نُسكُ
أبيك . قال : لا رَوْع ولا نُسكُ ، ولكن دعيني أنصرف ، ولأعودنُ
إليك مع المساء بما ترضين وبما أنا عليه حريص . قالت : أصادقُ
هذا الوعد ، أم تحلَّة تخرج بها مما نحن فيه ؟ قال : بل وَعْدُ
صادق أنا على صدقه أحرص منك .

نهض ونهضت ، ومضى متاقلاً ، وتبعته وهي تقول : لقد صبرتُ
أياماً وأياماً ، فما يمنعني أن أصبر بعض يوم ! ! اذهب سالماً وَعْدُ
موفراً ! فلن أبرح مجلسي هذا حتى تعود !

وما كاد يتجاوز باب الدار حتى مضى في سرعة تشبه العدو ، لا
يحسَّ وَهَجَ الشمس الذي كان يلفح الوجوه ، ولا يكاد يرى من حوله
شيئاً ، قد امتلأت نفسه بما رأى ، وامتلأت بما سمع ، وجاشت في قلبه
الآمال العراض . لقد كان يقيس ما كان يعده أبوه من ثراء بعد طول
الرحلة وثقل الجهد وكثرة الاحتمال وفراق الأهل ، إلى ما ربت له فاطمة
في غير نأى ولا مشقة ، ولا اغتراب ولا فُرقة ، فكان يأخذه شيء يشبه
الدَّوار حين يرى هذا الفتى وقد أنضاه سفر غير قاصد ، ثم عاد مجهوداً
مكدوداً ولم يُفد إلا دراهم ودنانير ؛ وهذا الفتى الذي يسعى في مكة
رَخيّ البال موفور النعمة ، لم يلقَ جهداً ولم يتعرض لأذى ، وإنما
قال كلمة ليس غير ، فإذا هو أكثرُ قریش مالا ، وأعظمها ثراء ،

وأعزها جانباً ، إليه حماية قريش حين تأخذ طريقها إلى اليمن .
وأنساه هذا التفكير نفسه حتى مرّ بدور بني هاشم فلم يلو على أحد
ولم يقف عند شيء ، لولا أن صوتاً ناداه إلى أين يا عبد الله ؟ وما هذا
المضى إلى غير غاية ؟ ولكنه سمع لهذا الصوت فالتفت ، فرأى سمراء
تسعى قريبة الخطأ ، كثيبة الوجه ، كاسفة البال ، فوقف لها حتى دنت
منه وهي تقول : لشد ما تُسرع في العدو ، ولشد ما تذكرني بأخيك !
قال : ما أرى أنك تُريدين هالة أو فاطمة بنت عمرو ؟ قالت : بل إلى فاطمة
أريد ، فقد مسها منذ حين ما مسني منذ دهر فانصرف عنها أبوك بعض
الشيء إلى عرسه الجديدة . ولولا أن لفاطمة فيك وفي إخوتك عزاء عما تجد
من هجر عبد المطلب لكان الخطب عليها أثقل ولها أفجع . فأنا أختلف
إليها في مثل هذا الوقت من كل يوم لأسليها وأسرى عنها ، فقد أخذ
عبد المطلب لا يروح إلى هالة . وأنت فما أعجلك عن أبيك وعن إخوتك ؟
أمشوق أنت إلى آمنة ولما يعتدل النهار ؟ قال : إنك لتعلمين ضعف
سلطان الشوق علينا آل عبد المطلب ، وإن أهدنا ليتحرق شوقاً ويتفطر
جوى فلا يبلغ منه ذلك أن يتحول عن مجلسه أو ينصرف عن وجه قصد
إليه . ولكن عبد المطلب قد لقيني منذ اليوم بحديث أعجلني عنه وعن
إخوتي ، ودفعني إلى أن أسرع إلى الرواح . إنه يريد أن أفصل مع القافلة
إلى الشام ، فلا بدّ من أن أتياً لذلك وأهبي له آمنة ، وإني لأخشى
أن يكون موقع ذلك منها شديداً . قالت : لا بأس عليك ، إن تكن فتى
من قريش فآمنة فتاة من قريش ، وما أظنها إلا هيأت نفسها لحياتنا جميعاً ،

وأخذتُ نفسها بالصبر على فراق البعل أكثر العام . اذهب مُصاحباً ،
فلن ترى من آمنة إلا ما يحبُّ أبوك وما ستحب أنت بعد حين وإن كرهته
الآن . وكانا قد بلغنا بيت فاطمة ، فدخلتُ هي ، ومضى الفتى أمامه لم
يعرج على أمه ليحييها أو ليقدم إليها بعض العزاء . فلما انتهى إلى آمنة
في بيتها قامت إليه طليقة الوجه مُشرقةً بالحين ، وتلقته مبهجةً بلاقائه ،
ولم تسأله عما أعجله عن قومه . وهل كانت تشكُّ في ذلك أو ترتاب !
إنما هو الحبُّ الذي كان يخرج من البيت وقد نخلت دور بني هاشم من
الكهول والشباب ، ويرده إلى البيت ولما ينهضُ كهول بني هاشم
وشبابهم من أنديتهم ومجالسهم . ولكن آمنة رأت على وجه زوجها شيئاً
غير ما كانت قد تعودت أن تراه : رأت حيرة لا تكاد تظهر ، وهماً
لا يكاد يبين . فهمت أن تسأله ، ولكنه سبقها إلى الجواب فقال :
عزيزُّ علي يا ابنة وهب أن ألقاك بغير ما تعودت أن ألقاك به من البشاشة
والبشر ، ولكن حياة قريش لا تعرف البشاشة الدائمة ولا البشر المتصل .
قالت : فأنت مرتحل إذاً مع القافلة ؟ كذلك يريد أبوك ، وكذلك
يريد إخوتك ، وكذلك يريد مكانك من قريش . ثم كفكفت عبرة
كانت تريد أن تنهمر ، وردت إلى صوتها ما كان قد فارقه من الثبات
والهدوء ، وقالت وهي تبتسم في كثير من التجلد والصبر : وهل عزت
قريش وأثرت إلا بالرحيل ! إنما عزَّ قريش وثرأؤها ثمرةً لجهد الرجال
وصبر النساء : أولئك يشقون بالرحلة المتصلة ، وهؤلاء يشقون بالصبر
الطويل . وماذا أعددت لهذه الرحلة ؟ قال : سنتحدث في ذلك بعد حين ،

ولكنى أريد أن تستقبلي هذا الفراق بصبر لا يشوبه التصبر ، وَجَلَدَ لا يشوبه التجلّد ، وقلب لا يُفسد عليه الحزنُ أمره . انتظري عودتي ، فلعلي أعود موفوراً مُوسراً ، ولعلّ ذلك أن يهيئ لنا حياة أيسرَ وعيشاً أدنى إلى اللين مما نحن فيه ، فلو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردت نفسي إليه من الاحتمال حين أرى جيدك عاطلاً لا تزينه هذه العقود التي تزين أجياد أترابك من نساء قريش ، ولو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردت نفسي إليه من الاحتمال حين أرى أنك لا تستمتعين من طيبات الحياة بمثل ما يستمتع به غيرك من نساء بني هاشم ! قالت : وما ذاك ، وأين يكون الحلّى وأين يكون النعيم من هذه الساعات الحلوة التي نقضيها إذا كانت القائلة أو إذا جنّ الليل ! .. وأخذ الحديث يصفو ويعذب ويرقّ ويلين بين الزوجين ، حتى أنسى عبد الله أمرَ الرحلة ، وأنسى حديثَ فاطمة وما وعدته وما صورت له من آماني وآمال ، ولم يذكر عبد الله إلا هذا الوجه الجميل ، وهذه النفس السّميحة ، وهذا الخلق الرّضى ، وهذا الحديث العذب يقع من قلبه مواقع الماء من ذى الغلة الصّادى . هنالك عاد إلى وجه الفتى إشراقه وبهجته ، وعاد إلى قلب الفتى غرامه وحبّه . وهنالك انتصر الشباب على الحزن والسّرور معاً . ثم أقبل الأصيل فأسبغ على مكة وما حولها رداءً خفيفاً من الحزن . وخرج الفتى من عند أمّته راضياً ناعم البال ، ولكن صوتاً بعيداً يبلغ قلبه فيمسه مساً خفيفاً . خرج الفتى ليسعى في تهيئة رحلته ، ولكن هذا الصوت البعيد أخذ يدنو من قلبه قليلاً قليلاً :

عرج علينا فأقم ساعة فعندنا إن شئت روح وراح
ومع أن الفتى قد ولى وجهه شطرَ بنى زهرة ومضى فى طريقه إليهم ،
فقد شغله هذا الصوت عن بنى زهرة وعن عروضهم وتجاريتهم ، وشغله
عن القافلة ورحلتها من غد ، وشغله عن نصيح أبيه وتشجيع إخوته ،
وشغله عن كل شىء . ولم لا ! لقد كان يدنو منه شيئاً فشيئاً ،
وكان كلما دنا منه ارتفع واتسع وأخذ عليه كل سبيل ،
حتى لكأنه كان يسمعه من كل ناحية ، وينظر فإذا هو فى طريقه
لا إلى دور بنى زهرة ، بل إلى دار فاطمة بنت مُرّ . وينظر الفتى فإذا
هو أمام الدار ، وإذا هو يدخل من الباب ، وإذا هو يرى البخارية
السوداء تلقاه باسمه وتحييه قائلة : أسرع يا زين قريش ، فقد أبصأت
وطال انتظار مولاتى لك وينظر الفتى فإذا هو فى ذلك المجلس الذى ترك
فاطمة فيه آخر الضحى ، وإذا فاطمة قد قامت له وأقبلت عليه ،
ولكنه لم يفطن لشىء ما كان ليفوته لو أن أمره كله قد كان إليه
حقاً . لم يفطن لهذا الفتور السريع الذى ظهر على فاطمة حين وقع
بصرها عليه . على أنه لم يلبث غير قليل حتى أحس هذا الفتور
وأنكره ؛ فقد تلقت الفتاة فرحةً بلاقائه أول الأمر ، ولكنها لم تكد تُثبت
بصرها فيه حتى هدأ هذا الفرح ، ودعته فى رفق إلى أن يجلس . وما
كاد يستقر فى مكانه حتى أقبل عليها جذلاناً مسروراً وهو يقول :
رأيت أنى لم أكذبك ولم أخلفك ، وإنما أقبلت مع المساء ! لئن كانت
الدار قد نلت لنا فى الضحى لى الآن أدنى إلى الخلو . ولئن كان

الرقيب قد نأى عنا في الضحى هو الآن أمعن في النأى . ولئن كان
النعيم قد عنّ لنا في الضحى هو الآن أدنى منالا . قالت وقد أطالت
النظر إليه والتحديث : ليتك لم تعد ، وليتك إذ وعدت أخلفت
موعيدك ! . . فحدثني ماذا صنعت منذ فارقتني ؛ فإنى لا أرى في وجهك
ما كنت أراه في الضحى من الإشراق ، ولا أرى في جبينك ما كنت
أراه في الضحى من الضوء ، ولا أسمع في صوتك ما كنت أسمع في الضحى
من هذه النغمات الحلوة التي كان يملؤها الحنان ! إنما أنت الآن فتى من
فتيان قریش يبتغى لذةً ومالا . إن في أحداث الزمان لعجيباً ! ما أسرع
ما يتغير الرجال ! قال : وأين ترين هذا التغير ؟ وماذا تُنكرين منى ؟
لقد كنت بك مشغولاً في الضحى ، وكنت أدافع هذا الشغف ، ولقد
كنت مُقبلاً عليك في الضحى ، وكنت أخنى هذا الإقبال . فالآن وقد
أرسلتُ نفسي على سجيّتها ، وتركت قلبي يعرب عما يجد ، ويصور
ما يحس تلقيني هذا اللقاء ؟ ! هلم ! لقد خلت لنا الدار ، ونأى عنا الرقيب
وأمكننا لنا الفرصة .

قالت : لقد كنت تفكر في الضحى أو تريد التفكير ، وكنت
تروى في الضحى أو تريد التروية ، فالآن دعنى أفكر ، وهب لى
سعة من وقت ؛ فإنى لا أدرى ما الذى يصرفنى عنك ويخيفنى منك .
ولو أنصفت نفسك وأنصفتنى لانصرفت عنى الآن ومضيت فيما كنت
فيه من تهنة رحلتك إلى الشام !

قالت ذلك ونهضت متثاقلة ، فمضت حتى اختفت . ولبث الفتى

حائراً لا يدري ماذا يأتي من الأمر ، وكان حجاباً قد أزيل عنه ، وأمرأ
قد كشف له ، فوثبَ ومضى مسرعاً حتى جاوز الباب وأخذ طريقه
إلى بني زهرة . وقضت فاطمة ليلاً ثقيلاً ، حتى إذا كان الصبح
أقبلت عاتكة تسعى تريد أن تعلم علمها ، فرأت فتاة محزونة كثيبة ؛
فلما سألتها عن خطبها قالت :

إني رأيتُ مخيلةً عرّضتُ فتلاً لآتٍ بحنّاتم (١) القطر
فلمأتها (٢) نوراً يضيءُ له ما حوله كإضاءة الفجر
ورأيتهُ شرفاً أبوء به ما كلّ قادح زنده يُورى
لله ما زهريةٌ سلّبتُ ثوبيك ما استلبت وما تلرى !

قالت عاتكة : لقد ظننتُ أن حبكن في البادية كحبننا في الحاضرة ،
وما كنت أحسب أنه يتجاوز الشباب ، ويرقى إلى السحاب !
قالت فاطمة : لا تهزئي ، فقد ذهبت آمنة بخير ما كنت أحب !

(٢) لمأتها : أبصرتها ولحقها .

(١) الحنّاتم : السحاب السود .

البين

لم تظهر آمنة ارتباعاً للوداع ، ولا التباعاً للفراق ؛ ولم تصعد من صدر آمنة زفرة ، ولا انحدرت من عين آمنة عبرة ، وإنما كان وجهها هادئاً منبسطة الأسارير ، وكان صوتها مطمئناً لم تفارقه عنديته الحازمة حين أقبل زوجها عليها يودّعها آخر السحر ، وقد أخذ الفجر يتنفس في دعة ، ويمس بأصابعه الرقيقة ما حول مكة من الرّبا . وكان عبد الله يدافع حزناً عميقاً كان يريد أن يظهر على وجهه وينطلق على لسانه ، وكان يتكلف من التجلد والتصبر ما لا بد منه ليكون فتي من فتيان قريش ، ليس للجزع على نفسه سلطان ، ولا للضعف إلى قلبه سبيل . ومع ذلك فقد اتصلت عيناه الحادّتان بوجه امرأته الجميل اتصالاً طويلاً ، كأنما كانتا تريدان أن تطبعا صورته الحلوة الهادئة في نفس الفتى لتكون له رفيقاً مؤنساً في سفره الشاق الطويل . ولم تجرؤ آمنة على أن تطيل النظر في وجه زوجها كما كان هو يطيل النظر في وجهها ، إنما كانت عينها ترتفعان إلى وجه الفتى ، ثم لا تلبثان أن تنخفضا حياء واحتشاماً وصبراً . حتى إذا خرج الفتى ليلحق بإخوته الذين كانوا ينتظرونه غير بعيد ليصحبوه إلى حيث يودّع أباه وأمه ، ثم إلى حيث عسكرت القافلة تنتظر الإيدان بالرحيل ، نظرت آمنة فإذا عينها لا تبديان ، وإذا قلبها لا يخفق ، وإذا شخصها كله هادئ مطمئن ،

لا تظهر عليه آيات الجزع ولا أمارات الذهول . ومع ذلك فقد كانت نفسها تبكىُ بكاءً مرّاً ، وكان قلبها يشكو شكاةَ الطائر المهيض ، ولكن أصدااء هذا البكاء وهذه الشكاة لم تكن تتردد إلاّ في أعماق الضمير . كانت آمنة ثابتة للخطب مطمئنة له ، كأنما أذعنت للحوادث إذعاناً ، وكأنما أخذت تر وض نفسها على صبر لم تعرفه نساء قريش ، وتُهيء نفسها لحزن طويل لم تألفه أتراؤها اللاتي لم يكدنّ يذقن لذّة الحياة .

وما أشرقت الشمس وما ارتفع الضحى حتى كانت القافلة قد بدأت طريقها الطويلة إلى غايتها البعيدة ، وحتى كان كثير من شباب مكة وأحداثها يُشرفون من كل مرتفع ، ويمدّون أبصارهم إلى حيث مضت العير ؛ ليروا منها ما يستطيعون أن يروه قبل أن تتقطع بينهم وبينها الأسباب . وكان بيت آمنة في هذا الوقت قد امتلأ بنساء بنى هاشم وبنى زُهرة ، أقبلن عليها يعزّينها ويسليها ويعاوننها على احتمال هذا الحزن الجديد . ولكنها لقيتهن كما تعودت أن تلقاهن من قبل : باسمّة في حزن ، نشيطة في هدوء ، ولم تُعهن على أن يُطلن الحديث في الوداع والرحيل ، وفي القافلة وما يتصل بها من الأمر ، فأخذن فيما كنّ يأخذن فيه من أحاديثهن المألوفة في كل يوم .

وكان عبد المطلب قد ذهب إلى مجلسه من المسجد كدأبه في كل يوم ، فتلقاه أبنائه بالتحية وتلقاهم هو بالدعاء ، وجلس وجلسوا من حوله يتحدثون عن القافلة كما كانوا يتحدثون عنها من قبل . وكان الشيخ يسمع لهم ويردّ عليهم ، ولكنه كان يجد في نفسه حزناً عميقاً لا ذعماً لم يكن تعود أن يجده

حين كان يرحل أبناؤه غير عبد الله مع القوافل إلى اليمن أو إلى الشام ،
ولا حين كان يرحل هو تاركاً أبناؤه وأهله .
وكان الشيخ يحسُّ كأن له شخصين مختلفين : أحدهما حاضر بمكة
يأخذ مع أبناؤه وغيرهم من قريش بأطراف الحديث ، والآخر غائب عن
مكة قد فصل مع العير ، وأخذ قصد الشام يصاحب هذا الفتى الذى ارتحل
ولم يكن من الحق أن يرتحل لو أن عبد المطلب طاع نفسه واستمع لصوت
الضمير . وكان هذا الشخص الغائب يرسل إلى الشيخ صوراً قوية متلاحقة
تمثل الطريق التى تسلكها العير ، والأحياء التى تمر بها ، واستقبال هذه
الأحياء للعير ، واحتفاءها بها ومتابعتها لها . وتمثل له ابنه آخذاً في الحديث
مع رفاقه كاتماً ما يجد من حزن لفراق أهله وإخوته وبلده ، وكثيراً ما كان
هذا الشخص الغائب يسبق العير في طريقها إلى الشام ، ويعود إلى
عبد المطلب بصور هذه الطريق ، فيشير في نفسه ذكرى ، ويشير في نفسه
أملاً ، ويشير في نفسه إشفاقاً ؛ لأنه كان يستحضر ما كان يلقي في سفره
إلى الشام من خير وشر ، ومن راحة وجهه . وكان يرى أن ابنه سيلقى
مثل ما لقي ، وسيحس مثل ما أحس ، فيتهج حيناً ويبتئس حيناً آخر .
وكان على هذا كله لا يستطيع أن يدافع خاطرأ يُلمّ به من حين إلى
حين ، فيصور له يوم الفداء ، ويصور له هذا الصراع العنيف الذى كان
بينه وبين الموت في ذلك اليوم ، والذى كان موضوعه هذا الفتى الذى تُرقل
به مطيته الآن نحو بلاد الروم . وكان كلما فكر في ذلك أحسّ خوفاً مرّاً
تظهر آثاره على وجهه المشرق الوقور ، كأنما كان يسأل نفسه : أفى الحق

أن قد انتهى هذا الصراع بيني وبين الموت؟ أفي الحق أفي قد استخلصتُ هذا الفتى ووهبته للحياة المتصلة والبقاء الطويل؟ إن الدهر لكثير العدر مشغوف بالخداع، وإن من حولنا لقوى خفية إن يكن منها الخير المسعف فإن منها الشرير الخاتل. وإن هذه القوى الشريرة لتجد لذّة سيئة في تضليلنا والعبث بنا ودفعنا إلى الشيء كأنه الخير كل الخير، حتى إذا اندفعنا إليه وتورطنا فيه، انصرفت عنا ساخرة منا، وتكشفت لنا الأحداث عن الشر والنكر والبلاء... ومن يدري! لعل قوة خفية من هذه القوى الخاتلة قد خدعتني ومكرت بي، وخيلت إلي أن في حمل هذا الفتى على الرحلة مع شباب قومه وكهولهم نفعاً له وإصلاحاً، على حين لم تكن تريد به إلا الشر، ولم تكن تريد به إلا النكر... ولعلها أن تكون قد أرصدت له في الطريق رسداً وكادت له في السفر كيداً. وكان الشيخ إذا ألمّ به الخاطر وانتهى به التفكير إلى هذه الصورة امتلاً قلبه بهم شاغل غنيف، يكاد يقطع عليه حديثه مع من كان حوله من قومه، ويكاد ينهضه قائماً ويسعى به إلى حيث يركب أسرع نجاته ليلحق بابنه ويردّه إلى مكة، فكان الوقار وحده يكفه عن ذلك، ويردّه إلى أن يأخذ نفسه بالصبر والاحتمال، ويحتفظ بما في قلبه من الهم سرّاً مكتوماً لا يظهر عليه أحد غيره، ولا يناجى به إلا ضميره.

وكنلك اتصلت حياة الشيخ منذ ارتحل ابنه مضاعفة: يحيا مع أهل مكة ويضطرب فيما يضطربون فيه، ويمضي مع القافلة ويشاركها فيما تجد من مشقة الرحيل وراحة المقام، وربما شاركها في أحاديثها وآمالها، وربما

شاركها في خوفها وثقتها . ثم ربما فكر في آمنة فأطال التفكير . وماله لا يفكر فيها وقد كانت في حجر عمها وهيب ، فلما زُفت إلى عبد الله أصبحت في كنفه هو ، ولا سيما بعد أن سافر زوجها وبقيت هي وحيدة محزونة ليس لها مُسلٌّ عن الوحدة ولا مُعين على الحزن ! لذلك كان الشيخ شديد العطف على هذه الفتاة ، يزورها فيكثر زيارتها ويطيل المقام عندها ، ويلحّ على هالة في أن تفعل فعله فتزور آمنة وتستزيرها ، ولا تُخلى بينها وبين الوحدة ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

وفي الحق أنّ الأسابيع الأولى التي تبعت رحلة عبد الله قد مرت على آمنة مرّاً سريعاً يسيراً . فما أكثر ما كان يزورها نساء بنى هاشم ويستزرنها ! وما أكثر ما كانت تجد عزاءً وراحة فيما كان يناها من برّ الشيخ وأزواجه ، ومن ودّ سمراء خاصة ؛ على أن حياتها كانت كحياة عبد المطلب مقسمة بين مكة وبين الطريق التي كانت تسلكها القافلة . فكانت تحيا حياة النساء من حولها في قليل من العمل وشيء من الحديث وكثير من الصمت ، وكانت تتبع عبد الله في طريق تنخيلها ولا تُحقّقها . وأنى يكون لها تحقيق الطريق وهي لم ترتحل ولم تجب أقطار الأرض ! إنما كانت تسمع أحاديث الناس عما يجدونه في طريقهم إلى الشام وإلى اليمن ، فتصوره لنفسها كما استطاعت ، وترى زوجها في أطوار (١) المسافرين فتبهج لذلك قليلاً وتشقى به كثيراً .

وأصبحت آمنة ذات يوم تجد في نفسها شعوراً غريباً لا تدري أألمٌ

(١) أطوار المسافرين : أحوالهم المختلفة ، الواحد طور وهو الحال .

هو أم لذة؟ أحزن؟ هو أم سرور؟ رأت فيما يرى النائم كأن آتياً قد جاءها فوقف منها غير بعيد ، وحاولت أن تتبين شخصه فلم تستطع ، وحاولت أن تحقق صوته فلم تستطع . وما كانت تدري أكان رجلاً أم امرأة ، وما كانت تدري أكان شيخاً أم شاباً ، وإنما كانت تعلم أنه كان شبحاً مؤنساً عذب الصوت . دنا منها حتى إذا كاد يمسه تحدث إليها في رفق كأنه يناجيهما ويسر إليها سرا ، فقال : أتعلمين أنك ستصبحين أمماً ؟ قالت : ماذا تقول ؟ لم أفهم عنك . قال : أتعلمين أنك حامل ؟ قالت لا ! قال : فاعلمي إذاً أنك ستكونين أمماً لخير من حملت الأرض من الناس . ثم نظرت فلم تر شيئاً . ثم استيقظت ونظرت من حولها فإذا الصبح قد أخذ يشرق ويضيء كل شيء . هنالك فكرت آمنة فيما رأت وفيما سمعت ، وأنكرت آمنة ما رأت وما سمعت . وسألت نفسها ، فإذا هي لا تعلم أنها قد أنكرت من أمرها شيئاً ، إنما هو اضطراب يسير كان يُلم بها من حين إلى حين قبل العرس ، فلا غرابة في أن يلم بها بعده . وما كانت تقدر أن الحمل يسير إلى هذا الحد ، لا تشعر المرأة به ولا تجد له عرضاً من الأعراض غير مألوف . على أنها لم تصدق ما سمعت ، ولم تستطع مع ذلك أن تكذبه ، فظلت منه في شك مُريب ، واستشعرت له خوفاً مقلقاً وأملاً لذيذاً . وظلت في حيرتها هذه الحلوة المرة حتى ارتفع الضحى . وأقبلت إليها نساء بنى هاشم وفيهن سمراء وفاطمة بنت عمرو وهالة بنت وهيب . فقصت عليهن في استحياء ما رأت وما سمعت ؛ وسألنها عن بعض الشيء ، ثم رجحن لها صدق الرؤيا . ووصفت لها سمراء

تمائم تقدمت إليها في أن تحملها لتردّ عنها الشر ، وتذود عنها مزعجات الأحلام .

من ذلك اليوم ازدادت نفس آمنة رضاءً واطمئناناً ، واحتملت بعد زوجها عنها في شجاعة لا مرارة فيها ولا حرمان . وأخذت تفكر في زوجها مبتسمةً له ، وتنتظر عودته القريبة في شيء من الغبطة والسرور عظيم ، وأخذت تقدّر ابتهاجه حين يعود فيعلم من أمرها ما لو علمه الآن لهُون عليه السفر ومشقة النوى . وعلقت آمنة ما وُصفَ لها من تمائم ، ولكنها لاحظت أنها ما كانت تفيق من نوم إلا وجدت تمائمها وقد انقطعت أسبابها وسقطت عنها . فلما تكرر ذلك أعرضت عن التمام ولم تحفل بها . وأخذت تنتظر أعراض الحمل ، وتبهي نفسها لمثل ما احتملت هالة من ألم حين كانت تنتظر حمزة . ولكنها انتظرت وأطالت الانتظار ، فلم تجد شيئاً ولم تشكُ ألماً ولم تضق بالحياة ، ولم ترغب عما كان يُتاح لها من لذاتها اليسيرة .

ومع ذلك فقد مضت الأيام والأسابيع ، ولم تشكُ آمنة في أن الأحلام لم تكذبها . وإذا فمتمتازة هي من النساء ! يألمن ويشكون ويضقن بكل شيء ، ويزهدن في كل شيء . وهي لا تألم ولا تشكو ، وهي لا تضيق ولا تزهد ولا تجد ثقلاً . وهي تتحدث بذلك إلى هالة وإلى سمراء وإلى فاطمة فينكرنه . ويعجبين له ويستبشرن به . على أنها لم تكن تتحدث إليهن بكل شيء . وأكبر الظن أنها كانت تُشفق أشد الإشفاق -- إن وصفت لهن كل ما تجد أو بعض ما تجد -- أن يسخرن منها

ويتهمن عقلها ويظنن بها الظنون . فقد كانت آمنة في حياة سعيدة لم تعرف مثلها : ما أحست من رضا النفس واطمئنان القلب وراحة الضمير مثل ما كانت تحسّ في تلك الأيام ، وما ذاقّت من عُذوبة النوم ولا استمتعت من جمال الأحلام مثل ما كانت تذوق وتستمتع به في تلك الليالي . إن كانت لتأوى (١) إلى فراشها فيأخذها نوم هادئ رقيق ، ثم تتمثل لعينها مناظر فيها جمال وروعة وتُلقى في أذنيها أصوات حلوة كأنها غناء الملائكة ، وتقضى الليل كله في لذة غريبة نادرة ، حتى إذا انجلى جبين الصبح أفاقت موفورة القوة شديدة النشاط ، لا تجد كسلاً ولا فتوراً . وما هي إلا أن تستعذب آمنة أحلام الليل ، فتودّ لو قضت وقتها كله نائمة مغرقة في هذه الأحلام . ثم تودّ لو لم يزرها أحد ولم يتحدث إليها أحد لتستحضر في اليقظة ما كانت تبهج به أثناء النوم . ولكنها قرشية تعرف كيف تملك نفسها ، وتضبط أهواءها ، وتلقى الناس بمثل ما كانت تلقاهم به من البشر الهادئ البريء من الإسراف في الابتهاج أو الابتهاج .

وأخذت قريش تنتظر ققول العير وتستعدّ له ، وأخذت الأسر تُهَيء لاستقبال العائدين . وكانت آمنة كغيرها من نساء قريش تنتظر رجوع زوجها ، وتتهياً له سعيدة مرتين : سعيدةً بمقدمه ، وسعيدةً بهذا النبأ الذي ستلقاه به إذا خلا إليها . ولم يكن عبد المطلب أقلّ قريش انتظاراً للقافلة ، وتحدثاً عنها ، وتحرقاً إلى لقاء بعض من كان فيها . وأقبل البشير فأذن

(١) أي أنها كانت تأوى ؛ و « إن » للتوكيد وقد سكنت .

في مكة أن مقدّم العير قريب . ونحف شباب قريش يلقون العير قبل أن تبلغ الحرم . واستعدّ كهول قريش للقاء العير متى دخلت مكة . وازيّنت نساء قريش للقاء الأزواج والإخوة والأبناء . وخرج إخوة عبد الله فيمن خرج ، وانتظر عبد المطلب فيمن انتظر ، وازيّنت آمنة فيمن ازّين ، وأعدت فاطمة بنت عمرو طعاماً غير مألوف . ولكن إخوة عبد الله كانوا أسرع من عاد من استقبال العير ، ولم يعودوا مُبتهجين ولا مغتبطين ولم يكذبهم عبد المطلب حتى وقع في نفسه حزن ثقيل . ولم يكذبهم عبد المطلب حتى عرف أن ابنه قد مرض في الطريق ، فتخلف في يثرب ليمرض عند أخواله من بني النجار . واضطرب الشيخ وبنوه بين حزنهم للمريض وحزنهم لأنفسهم . وخاف الشيخ على آمنة ، وخاف أبناؤه على أمهم فاطمة . وقضى الشيخ وبنوه ساعة كانت فيها حيرة سوداء مظلمة ثقيلة الحمل . ثم تاب إلى الشيخ حلمه ، وعاد إليه بصره بالأمور وحزومه في تصريفها ، فلم يفكر في نفسه ، ولم يفكر في آمنة ولا فاطمة وإنما فكر في المريض ، فندب أكبر بنيه ليرحل من فورهِ إلى يثرب ، ويشهد من قرب تمريض أخيه . وأبى الشيخ أن يهّم بشيء أو يفكر في شيء حتى يفصل ابنه من مكة . وما هي إلا ساعة من نهار حتى كان أكبر أبناء عبد المطلب في طريقه إلى يثرب لا يلوى على شيء . هنالك رجع الشيخ إلى نفسه ، فذكر يوم الفداء ، وذكر ضحوة ذلك اليوم الذي أغرى ابنه فيها بالسفر وحضه عليه ، وذكر يوم الرحيل ، وذكر خوفه وإشفاقه ، وذكر القوى الخفية الماكرة التي كان يخافها ويُسفق

منها. وحاول الشيخ أن يردّ إلى نفسه طمأنينتها ودعّتها فلم يوفق . فينهض
مثاقلاً كالمأخوذ حتى دخل على سمراء . فلما رآته سمراء لم تشك في أن
حادثاً قد حدث ، على أنها تلقته مبتهجة بلقائه في شيء من العتب
والمرارة . ولكنه لم يلبث أن أنبأها بما علم وما فعل ، وبأنه مشفق على
الفتى ، وبأنه لا يدري كيف يلتقي بهذا النبأ أمّ الفتى وزوجه .

قالت سمراء وهي تبكى وقد ذكرت ابنها : فابدأ بنفسك فالفها بهذا
النبأ كما ينبغي أن يلقاها به الشيخ الوقور ، فما أحب لك هذا الجزع ، وما
أعرف أنه يليق بك أو يجمّل منك . وما أرى أن على الفتى بأساً ، وما
أظنّ إلا أن الفتى قد اتخذ هذه العلة اليسيرة سبباً إلى زيارة أخواله في
يُرب والمقام عندهم قليلاً . ومضت سمراء تعزّي الشيخ وتهون عليه الخطب ،
والله يعلم ما كان الخطب عليه هيناً ولا يسيراً . ومضت سمراء تعزّي أم
الفتى وزوجه وتهون عليهما الخطب . وقد سبقت إليهما به الأنباء .

وكانت طوالاً ثقلاً تلك الأيام وتلك الليالي التي قضتها آل
عبد المطلب ينتظرون أنباء المريض ، وكان مُراً ذلك الحزن الذي كان
يتجرعه الشيخ إذا أمسى ، ويتجرعه إذا أصبح ، ويتجرعه كلما تقدم
النهار . وكانت غزارة حارة تلك الدموع التي كانت تسفحها فاطمة في
غير هدوء ولا انقطاع . وكانت لاذعة محرقة تلك اللوعة التي كانت
تجدها آمنة كلما خلت إلى نفسها وفكرت في زوجها . ولكن ! أكانت
تخلو إلى نفسها حقاً ؟ ! أكان يُتاح لها أن تفكر في زوجها حقاً ؟ !
يا له من جنين هذا الذي تحمله بين أحشائها ! إنه ليصرفها عن الحزن ،

وإنه ليوقع في قلبها عزاء حلواً ، وإنه ليملاً نفسها صبراً جميلاً ! ومع ذلك فهذا الجنين أحق الناس بالرتاء إن حدث لمريض يثرب حدث . أليس قد يولد يتيماً ؟ بلى ! لم يبق في ذلك شك . ولا بدّ من أن تؤخذ النفوس باحتماله والصبر عليه ؛ فقد عاد رسول عبد المطلب ينيء قومه بأنه قد بلغ يثرب فلم ير فيها أنحاه المريض ، وإنما رأى قبره في ناحية من دور بني النجار !

وجلس شبابٌ من قريش ذات ليلة عند فاطمة بنت مرّ الخثعمية يسمرون ، فأنتهى حديثهم إلى مرض عبد الله وموته في يثرب . فلما سمعت فاطمة هذا الحديث أغشيت جبينها المشرق سحابةً رقيقة من حزن ، وتحيرت في عينها دمعة لم تلبث فاطمة أن كفكفتها وهي تقول في صوت كأنه يأتي من بعيد : نذرٌ وفداء ، ورحلة ومرض ، وموت في يثرب ؛ إن للقدر في هذا الفتي من قريش لسراً !
ثم مضى القوم فيما كانوا فيه من هو الحديث .

القضاء

خرج تُبَّعٌ من اليمن غازياً في جيش لم تعرف الأرض مثله عدداً وعدة ، وبأساً وحدة ، وغنى وثروة ! فلم يدعْ تُبَّعٌ في طريقه شيئاً أتى عليه إلا احتواه ، ولا بلداً مرَّ به إلا أذَّله . وقد دان له النجد والغور ، وأذعن له الحجاز والشام ، وعنت لسلطانة مصر وإفريقية ، وأمعن في المغرب حتى مرَّ بعمبود هيرقل ، ووطىء ساحل البحر المحيط ، ذلك الذي كانت تُقيم عليه ظلمات دائمة لا تفرقها نجوم الليل ولا شمس النهار . فلما رأى تُبَّعٌ أن قد ملكَ مغرب الأرض عادَ أدراجه قاصداً الشرق ، فأمعن فيه غزواً وفتحاً ، وثلَّ العروش وهزم الجيوش ، وأسَرَ الملوك واسترقَّ السادة العظماء ، وملا يديه من السبي والمال . وما زال ماضياً أمامه يخرج من نصر إلى نصر ، وينتقل من فوز إلى فوز ، وجيشه المظفر يتبعه فرحاً ومرحاً ، تُغريه الحرب بالحرب ، ويُطمعه الظفر في الظفر ، ويؤاتيه الحظ ، حتى انتهى إلى أقصى الشرق ، ووطىء ساحل البحر المحيط ، ذلك الذي تخرج منه نجوم الليل إذا كان المساء ، وشمس النهار إذا كان الصباح . هنالك انقلبَ تُبَّعٌ راجعاً إلى اليمن ، وفي نفسه حزنٌ ألا يُتاحَ له من الظفر أكثر مما أتبع له ، وألا تُتَّهياً له الوسائل ليغزو هذا البحر الذي

انتهى إليه من ساحل إلى ساحل ، ويرى هذه الطريق التي تقطعها الشمس
وتقطعها النجوم حين تأوى إلى حد ساحليه لتنام ، فتنام ولكن في غير
سكون ، وتهجع ولكن في غير استقرار ؛ إنما تعبرُ بها زوارق من ذهب
وفضة ، وأخرى من لؤلؤ وياقوت . وما تزال هذه الزوارق تعبر في دعة
وهدوء حتى تبلغ الساحل الآخر ، فتصعد في السماء لتبعث الضوء والحياة
إلى الناس والأشياء . ونفس الإنسان واسعة الأمل بعيدة أمد الرجاء ،
ولاسيما حين يواتيها الحظ ، ويُقدَّر لها الفوز ببعض ما تريد ، وكانت
نفس تُبَّع في أكبر الظن تؤمل فتبعد في الأمل ، كما عملت فأبعدت في
العمل ، وكانت تتمنى لو أتيح لها أن تطفأ أمواج هذا البحر بهذا الجيش
الذي وطئت به أكناف الأرض . ومن يدري ! لعلها أن تظفر بزورق
أو غير زورق من هذه الزوارق التي تعبر عليها النجوم . ومن يدري !
لعلها أن تقطع طريق النجوم في السماء بعد أن قطعت طريقها في البحر ،
وبعد أن قطعت طريق ضوئها على الأرض . على أن نفس تُبَّع لم تكن
تعرف اليأس وإن كانت تعرف الإرجاء ! فلم ييأس تُبَّع من غزو النجوم
في عُقر دارها ، وإنما أرجأ ذلك إلى أن يتخذ له العدة ، ويهيء له
الوسيلة ، ويمد له الأسباب .

عاد إذا تُبَّع سعيداً يرافقه الظفر والأمل . حتى إذا كان قريباً من
اليمن وقف عند هذه المدينة الصغيرة التي كانت تسمى « يَثْرِب » ، والتي
ملكها لأول عهده بالخروج ، والتي ترك فيها أحد أبناءه يُشرف منها على
بلاد العرب . أنكر شيئاً لم يكن يُقدِّره ولا يفكر فيه : لم يخرج ابنه للقائه

من بعيد ، ولم يخرج للقائه من قريب ، ولم يرَ من حوله استبشاراً بمقدمه ولا إكباراً لمنزله ، وإنما رأى حصوناً مغلقةً وآطاماً قامَ عليها الجند كأنهم يتأهبون للقتال . لم يحتجُ تُبعُ إلى بحث واستقصاء ليعلم أن القوم قد غدروا ومكروا ، وقتلوا ابنه غيلةً ، وأبوا أن يتسلطَ عليهم أحدٌ غيره ، أو أن يسودَ فيهم من ليس منهم . وهم الآن يستعدون للحرب ، ويتأهبون للدفاع عن أنفسهم مستميتين في ذلك ، مُزدرين ما سيلقون من جهد ، وما سيتزل بهم من بلاء .

ولم يكن من اليسير على تُبعُ أن يتبين العواطف التي كانت تثور في نفسه ، والخواطر التي كانت تزدهم في قلبه ، فقد كان محزوناً أشدَّ الحزن ، مُلتاعاً أشدَّ اللوعة لفقد ابنه العزيز الذي كان يراه زينةً لملكه وذخراً لدولته ، وقرّةً لعينه قبل كل شيء . وقد كان مُغضباً أشدَّ الغضب مُحفظاً أشدَّ الحفيظة أن يثور به هؤلاء النفر من الأوس والخزرج فيخرجوا عن طاعته ويجهروا بمعصيته ، ويقتلوا ابنه ، ويضربوا للأحياء من حولهم مثلَ الثرد والثورة . وكان على هذا كله مُعجباً بهذا النفر من الأوس والخزرج الذين لم يخافوه ولم ينحشوا بأسه ، ولم يمنعهم بطشه العظيم وسلطانه العريض أن يثوروا به ويخرجوا عليه ، ولم يدفعهم مقدّمه ومعه الظفر والأمل ، ومن ورائه هذا الجيش الضخم المنتصر ، إلى أن يُسرعوا فيقدموا له الطاعة والمعدرة ، ويلتمسوا عنده العفو والمغفرة ؛ وإنما ثبتوا له كراماً ، وتلقوه أباة للضيم ، حُماةً للحُرَم ، مستعدين لاحتمال المكروه . على أنه لم يُطل الوقوف عند هذا الإعجاب بالأوس والخزرج ،

والإكبار لحفاظهم وذودهم عن الدمار ، وإنما مضى يتبعه حزنه وغضبه ، فأقسم ليدمرن يثرب تدميراً ، وليسوين حصونها وآطامها بالأرض هدماً وتحريقاً ، وليجعلن ما كان يحيط بها من الحدائق والرياحين ، ومن الشجر والنخيل ، صحراء جرداء كأن لم تعرف من قبل خضرة ولا ظلاً . ولم يُرد أن يستأني بذلك أو يُبطن فيه ، فما هي إلا أن يأمر كتائبه بالزحف ، مُقدراً أن الأمر لن يحتاج إلى وقت ولا إلى جهد ، ولن يكلف جيشه الظافر مشقة ولا عناء . وأين يقع هؤلاء النفر من الأوس والخزرج من دوك عظيمة أفناها ، وبلاد عريضة احتواها ! وأين يقع قاداتهم وساداتهم من هؤلاء الملوك الذين يرسفون في السلاسل والأغلال ، وقد جاء بهم أسرى من أقصى الشرق ومن أقصى الغرب ، ليجعلم مملهى لأهل صنعاء حين يعود إلى صنعاء !

ولكن كتائبه لم تكد تتقدم حتى تأخرت ، ولم تكد تهجم حتى ارتدت ، وإذا هؤلاء النفر من الأوس والخزرج أشدّ مضاء وأحسن بلاء مما كان يظن ، ومن كل من لقي في فتحه البعيد من الجيوش والأجيال . لقد كان استهان بأمرهم واستصغره ، لأنهم لم ينصبوا له الحرب حين مرّ بهم غازياً ، وإنما تلقوه مُذعنين له مؤمنين لسلطانه . رأوا فيه رجلاً منهم فلم يمكروا به ولم يكيّدوا له ، حتى إذا رأوا من بغى ابنه وتجره ما أحفظهم ثاروا للعزة ، وغضبوا للكرامة ، وقتلوا الطاغية وتأهبوا لحرب أبيه .

رأى تُبع هذا فازداد بالقوم إعجاباً ولهم إكباراً ، ونصب لهم حرباً تُلائم هذا الإعجاب والإكبار . ولكنه لم يلبث أن اشتدّ إعجابه وعظم

إكباره حين أقبل الليل ، فإذا هو لم يبلغ من القوم شيئاً ، وإذا هم يعلنون إليه أن قد أقبل الليل ، وأن حرب الليل ويل كل الويل ، وأنهم يُضيفون عدوهم في الليل ، ويقاتلون عدوهم في النهار . هنالك لم يتالك تبع أن عطفته الرحيم على قومه ، وأخذته الكبرياء بما فيهم من عزة وكرم ، وصاح : « إن قومنا لكرام » . ثم أمر من أذن في الجيش بالموادعة حتى يُشرق الصبح .

واتصلت الحرب طويلةً مُضنيةً بينه وبين هذا الحى من أهل يثرب : يقتتلون أشدّ القتال ما أضاءت الشمس ، ويتوادعون أحسن الموادعة ما أظلم الليل ، حتى أخذ السأم يسعى إلى هذه النفس التي لا تعرف السأم وحتى همّ أن يستقبل الصباح بغارة مُطبقة لا تُتبقى ولا تذر ، فإما قهر القوم وإما قهره القوم .

وهو في هذا النحو من التفكير والتقدير ، وإذا حاجب من حجابه يدخل عليه فيلثم الأرض بين يديه ، وينبئه أن شيخين من هذا الحى المحالف للأوس والخزرج من يهود يستأذنان على الملك ، ويلحان في لقائه ، ويتقدمان بما يتقدّم به السفراء من حق الأمن والعافية والتكرمة ، فيأمر الملك بإدخالهما . فإذا كانا بين يديه لم يركعا ، ولم يسجدا ، ولم يلثما أرضاً ، ولم يعفراً خدّاً بالتراب ، وإنما هي تحية فيها الإكبار والإجلال ، وفيها عزة وأنفة ، وفيها شيء من التواضع والخشوع لم يألفهما الملك من أهل هذه البلاد . فإذا أذن لهما بالجلوس وسألها عما أقبل به ، قال أحدهما : أيها الملك ! لم نأتك سفيرين ، ولم نحمل إليك رسالةً من عدوك ، ولو قد

عرفوا أنا نسعى إليك لخالوا بيننا وبين ذلك ، وللقينا منهم شرًّا . قال : فأنتم إذًا لاجئان إلىّ ، كارهان للقوم ؟ وحدّثَ نفسه بأنه سيجد عندهما ما يُعينه على ما يريد بالقوم ومدينتهم . قالوا : كلا أيها الملك ! ما لجانا إليك ولا كرهنا من قومنا شيئاً ، وإنما أقبلنا ناصحين لك رفيقين بك ، نريد ، لو سمعت لنا ، أن ننهك عن هذه الحرب التي لن تُجدي عليك شيئاً ، ولن تُبلغك من هؤلاء الناس شيئاً . لقد أدركتَ وتركتَ بمن سقط في ميدان القتال من هؤلاء الناس ، فحسبك ما بلغت ، وانصرف راشداً ، فإنك إن نصبت الحرب لهذا الحىّ ما بقى من عمرك ، وهو طويل ممدود لك فيه ، لم تجدْ إلى قهرهم سبيلاً . ولقد أبليتَ فأحسنتَ البلاء ، ولقد غزوتَ فأمعنتَ في الغزو ، ولقد أزلتَ الممالك وأسرتَ الملوك ، ولقد نصبتَ لأقوى دول الأرض وأعظمها بأساً ، فلم تثبت لك ولم تمتنع عليك . ثم ها أنت ذا أمام هذه المدينة الصغيرة ، وهؤلاء النفر القليلين من قومك ، لا يُتاح لك الظفر ولا يتأتى لك الانتصار . ألم يكن لك في هذا عبرة تدعوك إلى التفكير وتحملك على أن تسأل نفسك كيف دانت لك الأرض كلها وامتنعت عليك منها هذه الرقعة الضيقة ؟ ! قال : لقد سألتُ نفسي وأطلت السؤال ، ولكنى لم أجده جواباً . ولقد فرحت بكما حين علمت أنكما لاتحملان إلىّ سفارةً ولا رسالة ، وقد رت أنكما ستدلاني على مكان يؤتى منه هؤلاء الناس . قالوا : لو شاء الله لأتى هؤلاء الناس من كل مكان ، فليست حصونهم ولا أطامهم بالمنيعة المؤشّبة ، وليست السبيل إليهم بالعسيرة ولا الملتوية ، ولكن الله لا يشاء لأمر قضاه . قال الملك : أفصحاً ؛

فإني لا أفهم عنكما منذ اليوم . فما الله ؟ وأين يكون ؟ وكيف له أن يشاء ولا يشاء ؟ هل لكما في أن تدلاني عليه لعلني أتخذ إليه من الأسباب ما يرضيه أو يسخطني عليه ؟ فتضحك - الحبران وقالوا : حقاً أيها الملك إنك لا تفهم عنا منذ اليوم ، فليس الله ملكاً كالملوك ، ولا قائداً كالقادة ولا عظيماً كالعظماء . وما ينبغي لك ولغيرك من الناس أن تسأله عما يشاء أو عما لا يشاء ، إنما ينبغي لك ولغيرك من الناس أن تعرف سلطانه وعظمته ، ثم تدعنه له وتؤمن به ، وترضى بما يريد لا مجادلاً ولا ممانعاً . قال : فمن هو ؟ أين هو ؟ قالوا : هو رب السموات والأرض ، وهو الذي يتسلط على كل شيء ولا يتسلط عليه شيء ، وهو الذي يخلق كل شيء ، وهو الذي منحك هذا الملك الواسع السلطان العريض ، وهو الذي إن شاء ردك كواحد من رعيتك ، وهو الذي إن شاء سلبك ما أنت فيه وسلبك الحياة أيضاً . أرأيت إلى ما حولك كيف كان ومن أحدثه ؟ قال : هذا شيء قلما فكرت فيه أو سألت عنه ، وإنه مع ذلك لخلق بالتفكير حرياً بالسؤال ، فمن يكون قد خلق الأشياء ، وقد رها نظامها ؟ قالوا : فاسمع أيها الملك ! فإننا سنقرأ عليك نبأ الخلق كيف كان ، وأمر الخلق لإمام يصير ثم قرأ عليه صحفاً من التوراة لم يكذب يسمعها ويفقه بعض ما فيها ، حتى لان قلبه وانبسطت نفسه ، وكشف عنه الغطاء ، فقال : يا هذان إن ما تقولان لحق ، فعلماني علمكما ومراني قبل ذلك بما أصنع مع قومكما . قالوا : أما قومنا فالرأي أن تدعهم ؛ فإن الله لم يقلدك أن تقهرهم ، ولا أن تملك أرضهم ، إنما ادّخرهم وادّخر أرضهم لشيء سيكون في آخر الزمان

نجده عندنا مكتوباً في هذه الأسفار التي نتلوها عليك . قال : وما ذلك ؟
قالا : نبيٌ يخرج من هذا الصوب— وأشارا نحو مكة — فيمكر به قومه
ويأبون عليه ، ويكيدون له ، ويُخرجونه من الأرض ، فيأوى إلى هذا
البلد ، فيجد النصر والتمتع ، ويجد العزة والقوة ، وينشر دينه من هذه
الآطام فيملاً به الأرض كلها ، ويخرج به الناس من الظلمات إلى النور .
وما كان الله ليُمكنك من أرض أعدّها داراً لنيه ، ومهبطاً لوحيه .
ومصدراً لنوره المبين . قال : أوتجدان هذا عندكما مكتوباً ؟ قالا : نعم ،
ونجد عندنا مكتوباً أنك ستسمع لنا ، وتقبل نصحنالك ، وتنصرف عن
هذا الحى ، وأنّ قوماً من هذيل سيلقونك إذا قرّبت من مخرج هذا
النبيّ ، فيغرونك به وبييت الله فيه ، وسيزعمون لك أنّ في هذا البيت
كنوزاً من الذهب والفضة ومن الدرّ والجوهر . فاحذر أن تسمع لهم أو
تأتى ما يدعونك إليه . ولكن اذهب إلى هذا البيت فأكرمه وعظمه ،
وطّف به سبعاً ، وامنح أهله من العطف والبرّ والرعاية ما تقدروا عليه .
قال : يا هذان إني مصدق لكما ، مؤمن بما تقولان ، سامع لما تأمران به .
ولكنى لا أستطيع أن أنصرف إذا لم تصحباني ، فمالى من صحبتكما بُدّ .
ولا بد من أن أعلم علمكما كله ، ولا بدّ من أن أتخذكما لى وزيرين
أستنصحكما ، وأستعين برأيكما وفقهكما على ما يعرض لى من الأمر .
قالا : لك ما تحب من ذلك أيها الملك ، فسرّ راشداً فنحن معك .
وأمر الملك من أذن في الجيش بأنه مُرتحل مع الفجر . وارتحل الجند
غير آسفين ولا محزونين . وأيهم لم تكن تضيق نفسه بهذا الحصار الطويل

العقيم ، والدار قريبة وهو إلى أهله مشوق ! فلما قارب الملك مكة أقبل جماعة من هذيل يستأذنون . فلما أذن لهم قالوا : أيها الملك ، إنما سعى بنا إليك نصحنالك ، وإيثارنا لرضاك . قال الملك في نفسه : فهذه نبوة الخبيرين قد صدقت . ثم أصغى إلى الهذليين ، فقالوا : وستمر بمكة وفيها بيت يُعظمه أهلها ، يعبدون ما ادخروا فيه من مال ، وما كثروا فيه من ذهب وفضة ومن درّ وجوهر ، يطوفون حوله وينحرون له ، وقد نصبوا عليه الأوثان . قال الملك : فاذا تأمرون ؟ قالوا : ما نحب أن يفلت منك هذا الكثر ، فلو قد هدمته واحتويت ما فيه وأخذت أهله عبيداً لك ولأهل صنعاء ! قال الملك في نفسه : الآن قد تمت نبوة الخبيرين . ثم قال للهذليين : لقد قبلت نصيحتكم وسمعت أمركم ، وإني ماض فيما تريدون ، وسأعرف لكم حقكم على ، ولكني أريد أن تتقدموا معي على أهل مكة فتكونوا أوّل من يعمل في هدم هذا البيت . فلم يكدهذليون يسمعون منه هذا القول حتى أخذوا ، وظهر على وجوههم الفزع والروع . فلما ألحّ الملك أظهروا من التلكؤ والتردد ما لم يدعّ للريب في أمرهم سبيلا ، فأمر الملك بتعذيبهم حتى يعترفوا بالحق . فلما ألحّ عليهم العذاب قالوا : أيها الملك ما أردنا بك إلا شراً ، إنا لنكبر هذا البيت ونعظمه ، ونرى له علينا حرمة ، ونعلم أنه لم يحاول أحدٌ أن يمسّه بسوء إلاّ أهلكه الله . وقد وترتنا في مخرّجك الأوّل ، فقتلت الرجال ، وسقت المال ، وسبيت الحرائر ، وأذلت هذيل ، ولم تكن قد عرفت الذل . فلما أعجزنا أن نثار لأنفسنا بأيدينا أردنا أن نكل ثارتنا إلى من هو أقوى

منك ومنا ، فأغريناك بهذا البيت واثقين بأن صاحبه لن يُخلى بينك وبينه ، ولن يُمهلك إن حاولت الاعتداء عليه . قال الملك : إنما جزاؤكم على هذا الكيد أن تُقطعَ أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولكنى قد قسوتُ عليكم في خُرْجتي الأولى ، وأسرفت فيكم قتلا وسيياً ، فسأهبكم الآن لأنفسكم ولأهلكم ، ولعلَّ الله أن يجعل عفوى عنكم كفارةً لما قدّمتُ فيكم من سوء ، فاذهبوا فأنتم أحرار !

قال الخبران للملك : لقد أحسنت أيها الملك حين وضعتَ العفو عند القدرة موضع اليأس والانتقام . وما نشك في أنك تجد لهذا العفو لذةً وراحة ، ولكن لذتك وراحتك لن تعدل ما نجد من غبطة وسرور ، وقد أخذ دينُ الله سبيله إلى نفسك ، وبسط سلطانه على قلبك ، فأنزل فيه اللين منزلَ القسوة ، والرحمةَ مكانَ العنف والشدة ، وكنا نحن وسيلته إلى ذلك . وإنا لندرجو أن يغفر الله لنا بهذا السعى بعض ما قدمنا من سيئة في حياتنا . قال الملك : أو مثلكما يُقدم السيئات أو يقترف الآثام ، وما رأيت خيراً منكما ولا أهدى إلى الحق ؟! قال الخبران : أمعن أيها الملك في قراءة كتب الله وتدبرها ، وأنعم أيها الملك النظرَ فيما حولك من خلق الله وفيمن حولك من الناس ، فسترى أن الإنسان صغير مهما يكبر ، ضئيل مهما يعظم ، ضعيف مهما يقوّ ، مُعرض للخطيئة مهما ينصح لنفسه ومهما يأخذها بالمعروف ويجنبها المنكر . قال الملك وقد كبر الخبران في نفسه : ليتنى عرفتكما في أوّل العمر ومبتدأ الحياة ! إذا لاجتنبتُ كثيراً من الشر ، ولتتكّبت كثيراً من الذنب . ولكن سأكون عند ما تُحبان ،

ولن تريا منى منذ اليوم إلا ما يُرضيكما.

وأقبل الملك على مكة فدخلها خاشعاً منيباً ، وطاف بالبيت وأعظم أمره ، ونحرَ للناس وأطعمهم ، وأذاع فيهم الخير والمعروف . فلما كان من الغد قال للحبرين : إني أريتُ أن أكسوَ هذا البيت . قالا : فافعل ما أمرت . فكساه خصفاً^(١) . ومضى يُعظم البيت ويكرم أهله بياضَ يومه . فلما أصبح قال للحبرين : إني أريتُ كأنّ هذه الكسوة لا تليق بهذا البيت . قالا : فاكسه خيراً منها . فكساه وشياً ، ومضى نهاره يُعظم البيت ويُجزل المعروف لأهله . فلما أصبح قال للحبرين : إني أريتُ كأنّ هذه الكسوة لا ترضى الله . قالا : فاجتهد في إرضائه ما وسعك الاجتهاد . فكساه حريراً وديباجاً ، وزينه بالذهب والفضة والجوهر ، وفرّق العطايا بين الناس . ثم أصبح فقال للحبرين : لم أرَ الليلة شيئاً . قالا : فقد رضىَ إذا رب البيت .

وارتحل الملك بعد ذلك إلى اليمن وقد سبقته إليها الأنبياء بأنه قد ظفر ظفراً لم يظفره ملك من قبله ، وسبقته إليها الأنبياء بأنه قد صبأ عن دينه وترك عبادة الآلهة التي كان يعظمها ويسعى لها . وكان أهل اليمن قد تأهبوا للقاءه في حفل حافل وزينة بارعة بالغة . فلما انتهت إليهم الأنبياء بأنه قد صبأ^(٢) تنكروا له ، وأبوا إلا أن ينصبوا له الحرب ، وأن يصدّوا عن بلادهم ويردّوا عن حمير شر هذا الدين الجليد الذي جاءهم به من يثرب .

(١) الخصف : سفائف نسف من سف النخل .

(٢) صبأ : خرج عن دينه .

فلما بلغ الملك أطرافَ اليمنَ لقيته طلائع الأقبال (١) والأذواء منكراً له
مُزورةً عنه. وقال قادتهم: لقد فارقتنا وأنت أبرُّ أهل اليمنَ باليمنَ، وأحب
حميرَ لآلهة حميرَ، وما أنتَ ذا تعودُ إلينا وقد آمنتَ لإله لا نعرفه وجحدتَ
آلهتنا، وقد استوزرتَ غريبين من عدونا تسمع لها وتطيع، وأعرضتَ
عن رأى الأشراف والقادة من الأقبال والأذواء؛ فلن نُخلى بينك وبين
هذه البلاد التي أنكرتَ أهلها وجحدت آلهتها. فارجع أدراجك فاتخذ
لك مُلكاً حولَ هذا البيت الذي لم يُرضك أن تكسوه الوشى، حتى
كسوته الحرير والديباج، أو اتخذ لك مُلكاً في يثرب حيث دم ابنك
ينتظر من يثار له، وحيث صدى (٢) ابنك يدعو من يسقيه. قال الملك:
يا قوم! لا تعجلوا ولا تُسرفوا على أنفسكم، ولكن اسمعوا لي واسمعوا لهذين
الحبرين، فلو قد علمتم ما نعلم ورأيتم ما نرى، لسلكتم سبيلنا، ولقبلتم
ديننا، ولآمنتُم بإلهنا الذي خلق السموات والأرض، وآمن له من فيها من
الإنس والجن، ومن الحيوان والطير، ومن الماء والهواء، ومن الزهر والشجر.
قالوا: ما نريد أن نسمع لك ولاهما، فانصرفوا عنا. قال الحبران للملك:
فما يمنعك أن تدعوهم إلى ما يتدعون إليه إذا شجر بينهم خلاف أو كانت
بينهم فرقة؟ قال الملك: أو تعلمان هذا أيضاً؟ قالوا: نعم! أليسوا
يختصمون إلى النار إذا اختلفوا؛ فخاصمهم إليها. قال الملك: يا قوم!

(١) الأقبال: ملوك حمير. والأذواء: ملوك اليمن.

(٢) كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير صدى

- ويدعى الهامة أيضاً - فيزقو عند قبره يقول: اسقوني حتى يدرك بثأره.

هذان الخبران يدعوانكم إلى الإنصاف ويأخذانكم بالعدل . إنكم لتختصمون فيما بينكم فتحتكمون إلى ناركم تلك المقدسة ، التي تخرج من أعماق الغار لها زفيرٌ وشهيقٌ ، وقد ارتفع لهبها في السماء ، فلا يكاد يراها الظالم حتى يصعق ، ولا يكاد يراها المظلوم حتى يُحس المنعة والقوة . هلم فلنحتكم إليها ، فأينا استطاع أن يثبت لها ويصبر على حرها فهو صاحب الأمر ، وأينا فزع منها وفرّ من أوارها فهو الظالم المعتدى . فأدار القوم أمرهم بينهم ساعة ، وقال بعضهم لبعض : لقد دعاكم الملك إلى الإنصاف ، وما ينبغي أن نأبى على ملكنا ما لا يأباه أحد منا على صاحبه ، وما لا تأباه ملوك اليمن على سوقها ، فتعالوا نُجبهه إلى ما يدعونا إليه ، وتعالوا نخاصمه إلى النار . ثم أجمعوا أمرهم ليختصمُن إلى النار إذا كان الغد ، وليُقبِلن كل فريق معه حجته وسلطانه .

وما أشرقت شمس الغد حتى كان أقبال حمير وأذواؤها قد أقبلوا في عددهم وعددهم ، وفي حفلهم وزينتهم يحملون أوثانهم وأصنامهم ، وأقبل الملك ومعه الخبران قد تقلدا مصاحف التوراة . وكانت نارهم المقدسة لا تُرى ولا تُحس من بعيد ، وإنها تُجيب إذا دُعيت ، وتخرج إذا نُوديت . فلما دَنَوْا من الغار الذي كانت تقيم فيه ، دَعَوْا وأطالوا الدعاء ، ونادوا وألحوا في النداء . وإنهم لفي دعائهم وندائهم ، وإذا دُخانٌ كثيف ضيق يخرج من الغار كأنه السهم ، فلا يبلغ الهواء حتى يمتدّ طولاً ويتسع عرضاً ، وحتى يملأ الجو كثيفاً ثقيلاً ، قد حجب الشمس ، وكاد يأخذ أنفاس الناس ؛ وما يزال الدخان يخرج من الغار . ثم يمتد في الجو وينتشر ،

وحمير تتقهقر كلما ألح عليها ، والملك والحبران قد ثبتوا في مكانهم لا يجدون
الماً ولا يلقون ضرراً ، حتى أخذ صوتٌ يُسمع كأنه فحيجُ الحيات ، ثم
أخذ هذا الصوت يعظم كلما دنا من فوهة الغار ؛ وإذا زفير وشهيق ، ثم
هب يندلع من الغار ولا يلبث أن يحيط بكل شيء ، ويلتهم كل شيء ؛
وحمير جادة في الهرب قد تركت أوثانها وأصنامها ، وتخفت من زينتها
وسلاحها ، والنار تتبعهم مُلحة في اتباعهم ساعةً من نهار ؛ ثم أخذت
النار تراجع شيئاً فشيئاً حتى دنت من فم الغار ، وإذا هي تقصر وتضيق
وتتضاءل حتى كأنها لسان الغار ، ثم لا تلبث أن تختفي كأن الغار قد
أطبق عليها شفثيه ، وإذا الشمس مشرقة والجو صفو ، والملك والحبران
قائمون في مكانهم لم يُصبهم أذى ، ولم يمسسهم ضرر ، ولم تتغير نظرة
وجوههم ، ولم يُفارق ثغورهم الابتسام . وتثوب حمير إلى ملكها مسرعةً
مُدعنة ، وقد افتقدت آلهتها وسلاحها وزينتها فلم تجد شيئاً ما ؛ لأن
النار التهمت كل شيء .

هنالك هادت حميرُ وآمنت للملك والحبرين . ومنذ ذلك اليوم استقرَّ
في بلاد اليمن كتاب من كتب السماء .

الردّة

عاش تُبَعِّعَ ما شاء له الله أن يعيش ، ومات مُتَّبِعَ حين قضى الله عليه الموت . وكان قد أنفق حياته منذ عاد إلى اليمن في صلاح ونسك ، وتفقه للتوراة ونشر للدين . فلما فارق هذه الدنيا نهض بملك حمير من بعده أكبر أبنائه حسّان ، وكان تقيّاً ، وكان ورعاً ، وكان ديباناً ، وكان قد ورث عن أبيه وعن أجداده حبّاً للغزو وكلفاً بالفتوح . وكان الناس يتنبئون قبل تهوّد أبيه بأنه سيكون أبعد ملوك اليمن أثراً في الغزو والفتح ، وأعظمهم بسطة في الملك والسلطان . فلما هاد تبع اقتنى حسان أثره ، فظهر عليه حب للنسك وانقطاع للعبادة ، ورغبة في الفقه بالدين ، خدع الناس عنه ، وغير رغبتهم فيه . حتى إذا نهض بأمر الملك لم يشك أصحابه في أن اليمن ستنفق أياماً هادئة وادعة ، تنعم فيها بالأمن والسلم واللين . ولكن الميل القديم الذي كان يجده حسان إلى الحرب والتسلط ، والميل الحديد الذي كان يجده إلى الفقه والدين ، لم يلبثا أن التقيا وامتزجا ، وأصبعا ميلا واحداً يوفق بين هاتين النزعتين المختلفتين أشد الاختلاف . وأصبح حسان ذات يوم ماضى العزم ، شديد البأس ، عظيم النشاط ؛ فلم يكذب يخرج للناس حتى دعا إليه الخبرين ، وكان لهما معظماً يستشيرهما في كل ما يأتي من الأمر . فلما أدخل عليه قام لهما وأدنى مكانهما ، ثم قال : قد علمتما أنني

أعظم من أمركما ما كان يُعظم أبي ، وأشاوركما في كل ما أنشط له من هم قريب أو بعيد . وقد جعلت منذ أيام أسمع داعياً قوياً ملحاً لا يفارقني يقظان ، ولا يفصل عني دائماً ، وهو يُهيب بي في كل لحظة أن جرد نفسك وجيشك لجهاد الكافرين ونشر الدعوة إلى الدين ، حتى يؤمن بكتاب الله أهل الشرق والغرب ، وحتى يُدعن لسلطان الله كل جيل في الأرض ، وحتى يُصبحُ حكم التوراةُ حكم الناس جميعاً .

وقد أنكرت دعوة هذا الداعي أول الأمر ، فلم يزد الإنكار إلا إلحاحاً في الدعاء . وأبيئتُ عليه بعد ذلك فلم يزد الإباء إلا إصراراً على ما كان يدعوني إليه . وإني لأتحدث إليكما الآن وصوته الملح الحازم يملأ سمعي وقلبي وعقلي ، ويكاد يلهيني عنكما ويصرفني عما أريد أن أقول لكما .

وقد عزمت بعد طول التفكير أن أستجيب لهذا الداعي ، وأن أخرج بالجيش غازياً في سبيل الله ما يليني من الأرض ؛ فإن قضى الله لي بالنصر مضيت أماً حتى يأذن الله لي بالوقوف . ثم سكت ينتظر جواب الخبرين وهو يقدر أن كلامه قد وقع منهما موقع الرضا . ولكن عظم دهشه حين سمعهما ينصحان له بالعود ويلحان عليه في ألا يسمع لهذا الصوت ولا يستجيب لهذا الدعاء ، وهما يقولان له : أيها الملك ؛ إياك والغرور الذي يصيب الملوك إذا عظم بأسهم ، واشتدت قوتهم ، ودانت لهم الأرض بمن فيها وما عليها ، فيغريهم بالحرب ، ويدفعهم إلى الفتح ، ويجب إليهم العدوان . قال : أعدوان أن أنشر دين الله وآخذ الناس بالإذعان له والإيمان به ، وأذود عنهم شر الأوثان وأطهرهم من رجس

الشیطان ؟ ! قد دعوتكما وما أنتظر منكما إلا حشاً لی علی أن أمضی فیما عزمت علیه ، فإذا أنما تصداننی وتخذلاننی ، وتؤثران لی حياة الحمول والحمود والتقصیر . قالوا : فإننا نخشى أن يكون هذا الصوت الذى يدعوک ويلح عليك صوت الغرور والكبرياء ، لا صوت الطاعة والتقوى ، وأن يكون هذا الحديث الذى يلقيه فى رُوعك تزييناً لما ورثت عن آبائك من حب الغلب وبسط السلطان ، يدفعك إلى الحرب باسم الدين ، ويصور لك الفتح فى صورة الدعوة إلى الله . ونحن نجد فى عندنا من العلم أن هذا الدين لا ينشر ولا يذاع على هذا النحو الذى تريد أن تنحوه . ونجد مكتوباً عندنا فى الكتب أن الدين الذى سييسط سلطانه على الأرض فيملؤها عدلاً بعد ما مُلئت جوراً ، ويملؤها عزاً بعد أن ملئت ذلاً ، ويردّ إلى الإنسان حرّيته وكرامته ، ويرقى بنفسه إلى أسمی ما تطمح إليه من الكمال ، ويُحقّق الأخوة بين الناس وُيلغى ما بينهم من الفروق ، لن يخرج من صنعاء ، وإنما سيهبط به الوحيُ فى آخر الزمان على رجل بمكة من قريش ، ثم يخرج من يثرب فيطبّق أقطار الأرض . فإذا شئت أيها الملك ، فاسمع لنا وأعرض عن داعيك ؛ فإنه لا يدعوک إلى خير . قال الملك : ما رأيت كاليوم صدّاً عن الحق ، ولا صرفاً عن الواجب ، ولا تشييطاً للهيم ! وهمّ أن يُعرض عن الخبرين ، ولكنهما قالاه : فكر أيها الملك فيما أنت مقدم عليه ؛ فقد أدخل أبوك دينَ الله فى هذه البلاد وأذاعه فيها ، ومضيت أنت على سنته دهرأ ، ولكنك لم تبلغ من ذلك ما ينبغي ؛ فما زالت فى حير قلوبٍ لم تُخلص لهذا الدين ، وما زالت فى أعماق اليمين أوثانٌ منصوبةٌ

تهفوا إليها قلوب قوم لم تبلغهم دعوة الله بعد ؛ فثبتت هذا الدين في بلادك قبل أن تخرج به إلى غيرها من البلاد ؛ فذلك آمن لك ، وأحرى ألا تؤخذ على غرة ، وألا ينتقض عليك قوم ليس لهم من الإيمان واليقين مثل ما لك ، أو يغدر بك قوم ما تزال في نفوسهم بقية من حنين إلى دين آبائهم الأولين . قال الملك معرضاً عنهما : قد سمعت قولكما وسأنظر فيه . ثم لم ينظر بعد ذلك إلا في التهيؤ للحرب والاستعداد للرحيل . وانقطع الخبران عن الملك ولم يدعهما الملك إليه . وأذن مؤذن الملك في الجيش بالرحيل . وفصل الملك عن صنعاء لم يلتق الخبرين ولم يودعهما . ومضى الملك أمامه في طريق سهلة وشعوب سلم لا يلتقى خوفاً ولا يتعرض لكيد حتى بلغ البحرين .

فلما أحس قادة الجيش من الأقبال والأذواء أن الأمد يبعد بينهم وبين اليمن من يوم إلى يوم ، وأنهم مشرفون على بلاد لم يألفوها ، وأنهم يدفعون إلى حرب لا يفقهون غايتها كما كانوا يفقهون غايات الحرب من قبل ، وأنهم سيضيق عليهم حين يظفرون فيما تحتوى أيديهم من سبي ومال ، ضاقوا بهذه الرحلة ، وثقلت عليهم هذه الحرب . وطال عليهم عمر الملك ، فسعى بعضهم إلى بعض وتحدث بعضهم إلى بعض ، وما هي إلا أن تجتمع كلمتهم على الكيد لحسان والبغي عليه ، فيلقون أخاه عمراً ، وكان خفيف الحلم سريعاً إلى اللهو متعجلاً الملك ، لم تخلص نفسه لهذا الدين الحديد ، ولم تطب عما كان لحمير من سنة موروثه وعادة مألوفة وتراث قديم . فلما أظهروه على ما في أنفسهم ، وعاهدوه على أن يملكوه إن قتل أخاه ،

ولا يقتضوه على ذلك أجراً إلا أن يردّهم إلى بلادهم ويرفع عنهم ثقل هذه الحرب ، نشط لذلك وجدّ فيه . ولم يجد من خاصته وأصفيائه من يرده عن ذلك أو يخوفه من شره إلا رجلاً واحداً من الأذواء يقال له ذو رُعين ؛ فإن هذا الرجل خوف عمراً عاقبة البغي وحذرته من العدوان على الإخوان ، وجدّ في صرفه عن سفك دم أخيه : يذكره بالرحم حيناً ، وبشرف الملوك حيناً آخر ، وبحرمة الدين مرة ثالثة ، ولكنه لا يجد منه إلا إعراضاً يكاد يبلغ الغضب ويثير الريبة وسوء الظن . فلما يئس منه دفع إليه كتاباً مختوماً وقال له : احفظ لي هذا الكتاب . ثم أتم عمرو كيده ، فأغمد النصل في صدر أخيه ، وارتقى على جثته إلى العرش ، وأسرع بالجيش قافلاً إلى صنعاء ، معلناً إبطال ما كان أبوه وأخوه قد أقاما من معالم الدين الحديد ، مزماً قتل الحبرين ، ولكنه لم يجدهما ؛ فقد هلكا بعد أن فصل الجيش من صنعاء .

ولم يستمتع عمرو بالملك ولا ذاق لذة السلطان ؛ فقد أخذ الحزن يلزمه منذ بلغ صنعاء ، لا يفارقه ما ابيضّ النهار ، ولا يفارقه ما اسودّ الليل . وأخذ هذا الحزن يشتد ويقسو ، وأخذ هذا الحزن يعظم ويطغى ، حتى زاد عن نفس الملك كل راحة ، وردّ عن عين الملك كل نوم ، وأحاط شخص الملك بصور مروعة مزعجة : فكان تارة يرى حيات عظاماً ذوات رعوس عدّة يخرج من أفواهها اللهب وهي تسرع إليه فاغرةً أفواهها ، كأنما تريد أن تزدرده ازدراداً . وكان يرى تارة أخرى أنهاراً من الدم قويةً عنيفة ، تنحدر ولها هديرٌ وزئير ، كأنما تريد أن تأخذ عليه كل مكان

وأن تلتهمه التهاماً . وكان يرى تارة أخرى أشباحاً تدنو منه لتبعد عنه ، ثم ترتد إليه فتطيف به وتلور حوله وقد كشرت عن أنياب حادة ، ومدّت أظافرَ دامية ، كأنما تريد أن تنهسه (١) نهساً وتمزقه تمزيقاً . وكان في أثناء هذا كله يسمع أنينَ أخيه ، ويرى الدمَ يتفجر من صدره كما يتفجر ينبوع الضئيل القوى من الصخرة الصلبة الملساء . وأخذ الملك يستشير الأطباء فلا يجد عندهم دواء ، ويستعين الكهان فلا يلتق عندهم عوناً : ويسأل العرافين فلا يظفر منهم بجواب مريح . وما زال فيما هو فيه من استشارة واستعانة وسؤال حتى أدخل عليه رجل حكيم من أقاصى اليمن . وقص عليه ما يأتي من الأمر ، وصوّرَ له الملك ما يلتقى من الشر ، وألحَّ عليه الملك في أن يجد له من هذا الضيق مخرجاً ومن هذا الأذى شفاء . وأطرقَ الرجل الحكيم غيرَ قليل ، ثم قال في صوت حازم وقد ظهرت على وجهه صرامة الجذ والبأس : أيها الملك ، لأنبئتك بالحق وإن كان من دونه الموت ، فما تعودت كذباً ولا مِيناً . إنه والله ما قتل رجل أخاه ، ولا غمس رجل يده في دم ذي رحم إلا أُسلط عليه الحزن والغم ، ووُكِّلَ به الفرق والأرق حتى يقضى . قال الملك : انصرف راشداً فلا بأس عليك ! إنما السبيل على هؤلاء الذين كادوا الكيد ، ومكروا مكرهم السيئ بي وبجسان ، ثم أمعن في خاصته ومشيريه قتلاً وتمثيلاً حتى انتهى إلى آخرهم ذي رُعين . فلما قُدِّمَ هذا القتيلُ للقتل قال للملك : إن لي عندك براءة . قال الملك : وما ذاك ؟ قال ذو رُعين : ذلك الكتاب المختوم الذي دفعته

(١) النهس بالسين : كالتنهنس بالشين .

إليك . وأخرج الملك الكتاب وقرأ فيه هذين البيتين :
ألا من يشتري سهرأ بنوم سعيده من بيت قرير عين
فإما حمير غدرت وخانت فعذرة الإله لدى رعين
قال الملك : لا بأس عليك ، فقد نصحت وبررت وبرئت ذمتك .
فليتني قبلت نصحك واستمعت لدعائك ! قال ذو رعين : وليت أخاك
قبل نصح الخبرين . وأصبح القصر ذات يوم فإذا عمرو ملق على الأرض
مُضرباً بدمائه ، قد أغمد في صدره ذلك النصل الذي أغمده في صدر
أخيه هناك تفرق أمر حمير وانتقض سلطانها ، وعادت إلى شر ما
عرفت في قديم الزمان من الفساد والاضطراب

الطاغية

وكان عمرو قد أصهر إلى قَيل من أقبال اليمن يقال له ذو الشناتر ،
فظَّ غليظ القلب ، جافى الطبع ، سيئ الخلق مدخول الضمير . على أن
خصاله هذه لم تكد تبدو منه للناس حين كان قَيلًا من الأقبال لا ينسط
سلطانه إلا على المخلاف الذي كان يعيش فيه ، فقد كان ماهراً عظيم
المهارة ، مُداوراً شديداً المداورة ، يلقي الرجل فيخدعه ويُخيل إليه أنه
أكرمُ الناس وأصدقُ الناس . وأرحمُ الناس ، وأوفاهم وأشدَّهم استقامةً
واعتدالَ مزاج . لذلك انخدع فيه أقرانه من الأقبال والأذواء ، وحسنَ
فيه رأى تُبع نجى قديمه وعظمه واختار ابنته تماضرَ زوجاً لابنه عمرو .
وكانت تماضرُ بارعةً الجمال ، ذكية القلب ، رضية النفس ، شديدة الحنان
أنكرت في زوجها الغدر ، ولكنها لم تجرؤ على أن تُباديه بهذا الإنكار ،
ولو قد فعلت لأصابها شرٌ عظيم . فلما خضبَ زوجها يده بدم أخيه نفرت
منه وازورت عنه ، ولكنها على ذلك أظهرت طاعةً وإذعاناً . حتى إذا
سُلطت على عمرو شياطينُ الانتقام فأخذ منه الفرعُ والجزعُ وألح عليه
البؤس واليأس ، ثابتاً إلى تماضر رقة قلبها ورضاً نفسها وميلها إلى الحنان ،
فلزمت زوجها ورفقت به ، وآست زوجها وعطفت عليه . حتى إذا حلَّ
به الموت كانت وحدها التي سكبت عليه الدمع وذاقت لموته الحزن والغم .

وكان لها صبي لم يبلغ الرابعة ، وكان لزوجها أخ لم يبلغ السابعة ، فجمعت أخت زوجها إلى ابنها ، وقامت على تربية الطفلين ، ففتحتهما من الحب والحنان ما كان يملأ قلبها الرّحّب الرقيق ، ووقفت عليهما من البرّ والرفق والعطف ما تمنحه الأمّ أبناءها ، وما تقدّمه الزوج إلى زوجها . ولو قد خيّرت في ذلك الوقت لما تمت إلا أن تُترك في ناحية من فواحي القصر أو تنجّاز إلى مخلاف من مخاليف اليمن بعيد عن صنعاء ، ومعها هذان الصبيان ، تسعد بهما ويسعدان بعطفها وبرّها . ولم تكن تفكر لنفسها ولا لأحد الصبيين في ملك ولا وراثة ، إنما كان ههما أن تُنفق نشاطها كله في العناية بهذين الطفلين ، وأن تجد جزاءها على ذلك في هذه النظرات الحلوة التي كانت ترتفع إليها من أعين هذين الصبيين فتملأ قلبها غبطةً وحبوراً ، وفي هذه الأصوات العذبة التي كانت تقع في أذنها موقع الموسيقى وتصيب من قلبها مواقع الرضا والابتهاج . ولكنّ أباهما فكر في الملك لها ولائها في ظاهر الأمر ، وفكر فيه لنفسه في أقصى ضميره ودخيلة قلبه . وما هي إلا أن أعلن أن حماية الأسرة المالكة قد صارت إليه ، وأنه ناهض بها على أحسن ما ينهض الأوصياء بأمر الذين يقومون عليهم من القاصرين . وأظهر ذو الشناتر أول أمره سيرةً حسنةً ونهجاً صالحاً في الملك . ولكن تفرّق حمير ، وانفصال أطراف اليمن عن صنعاء ، واستبداد الأقبال والأذواء بما كان في أيديهم من المخاليف والقصور ، وطموح العظماء بين هؤلاء الأقبال والأذواء إلى سعة الملك وبسط السلطان ، كل ذلك أغراه بالشدة ودفعه إلى البأس .

فما أسرع ما قبل الإغراء واندفع إلى الطغيان ، وإذا هو يصطفي لنفسه من الجند والقادة قوماً يؤثرهم بالموذبة ، ويختصهم بالمعروف ، ويسبغ عليهم النعمة ويُجزل لهم العطاء ، ثم يستعينهم على غيرهم من الجند والقادة . وما يزال يُغري ويُغوي ، ويمكر ويكيد ، حتى تخلص له صنعاء وما حولها من الأرض ؛ ثم إذا هو يضرب بمن أطاعه من عصاه ، ويبعث الهيبة والخوف كما يبعث الرغبة والرجاء ، حتى يعظم أمره ، ويُظهر أشراف حير له الطاعة إشفاقاً منه أو أملاً فيه . وأنفق ذو الشناتر أعواماً على هذا النحو رقيقاً شديد الرفق بمن رجا منه الخير وانتظر منه النفع ، عنيفاً شديد العنف على من يئس من نصحه ولم يتوسم فيه خيراً ولا نفعاً . حتى إذا دانت له اليمن كلها ، وآمن له العطاء والأشراف ، ولم يبق له بينهم منازع أو مدافع أظهر ما كان قد أخفى من أمره ، وأعلن ما كان قد كتم من سره ، فاغتصب الملك لنفسه خالصاً من دون ابنته وسببته ، ومن دون أهل البيت من أبناء تُبع وذويه . وألقى بتماضر والصبيين في قصر بعيد هو بالسجن أشبه منه بالقصر ، وأقام عليهم الحراس والرقباء يعدون عليهم ما يقولون وما يعملون ، ويضيقون عليهم فيما كان ينبغي أن يتسع لهم من سبل الحياة . وفرغ ذو الشناتر بعد ذلك للأشراف والعطاء ، فأعمل فيهم مكره وكيده ، ثم سلط عليهم بطشه بأسه ، وأخذ يطغي عليهم ويسىء السيرة فيهم ؛ فإن أذعنوا لطغيانه واستكانوا لسوء سيرته أمعن في الطغيان وأسرف في سوء السيرة ، وإن أظهروا نبواً أو هموا بإياء الضيم ، بطش بهم بطشاً عنيفاً لا يتي ولا يذر . وما هو إلا عام وبعض عام حتى كان ذو الشناتر

قد أراح نفسه من سادة حمير وذوى المكانة والسن فيها . ثم نظر فلم ير
لنفسه قريناً ولا ضريباً ، فازداد لنفسه إكباراً وبها إعجاباً ، وازداد لحمير
إذلاًّ وعليها تسلطاً وتجبراً . وأقبل على اللذات بمقدار ما كان يُعرض
عنها ، وتهالك عليها بمقدار ما كان يُظهر النفور منها . وما أسرع ما تجاوز
في ذلك كل حد ، وخرج على كل سنة ؛ وأسرف في الأعراض يعتدى
عليها ، وفي الحرمات ينتهكها ، وفي الأموال يستصفيها ويؤثر نفسه بخيارها
حتى خافت حمير أشد الخوف ، وضافت به أشد الضيق ، وتمنت له أشد
النكر ، وأظهرت له أشد الحب .

فلما طال ذلك على حمير لم تزد له إلا خوفاً ، ولم تُضمّر منه إلا إشفاقاً
وذُعراً . ولكن الشباب من أبناء السادة والقادة عجزوا عن ضبط العواطف
والأهواء ، وكرهوا عيشة الذل والخضوع ، فجمعوا وغمغموا أول الأمر
ثم انطلقت ألسنتهم بعد ذلك بالنكير واللوم ، ثم سعى بعضهم إلى بعض
وأخذوا يمكرون ويدبرون . ولكن الطاغية كان أشد منهم مكرراً ، وأنفذ
منهم أمراً ، وأحسن منهم تدبيراً ؛ فما هى إلا أن يستهوى فريقاً منهم بالمال ،
ويغوى فريقاً آخرين بالوعد وإظهار المودة ، حتى إذا ظفر من بعضهم
بالطاعة والهوى استعانهم على من لم يظفر به ، حتى استقام له أمره ، وإذا
هو ينتقم لنفسه من هؤلاء الشباب بما يستطيع أن ينتقم به من ضروب
الكيد وألوان الإذلال .

وكان كلما تقدّمت به السن واستوثق له الأمرُ وأسرع الفساد في خلقه
وطبعه . ومزاجه ، فذاق من اللذات ما يباح ، وذاق منها ما يُحظر ،

وجرب من اللذات ما يُعرّف وجرب منها ما يُنكر ، وأصبح قصره بيئةً للشرّ والإثم لم تعرف مثلها صنعاء فيما مضى من الدهر . وأفاق ذو الشناتر من سُكره ذات يوم ، فخطر له على غير انتظار ولا تفكير ذكر ابنته تماضر وابنها عمير وأخى زوجها زُرعة ، وكان قد فارقهم منذ أعوام طوال حتى نسي أمرهم أو كاد ينساه . فلما خطر له ذكرهم في هذا اليوم أنكرهم ، ثم هابهم ، ثم اشتد خوفه منهم فاشتد مكره بهم وكيده لهم . ولم يحتج إلى تدبير طويل ، حتى استقر رأيه على أن يخلصَ منهم ويُزيلهم من طريقه . فأقدم ، ويا شرّ ما أقدم ! وعزم ، ويا سوء ما عزم ! ثم أنفذ ويا نكر ما أنفذ ! أمر أن تُقتل ابنته وسبطه خنقاً حيث هما في القصر ، وأن يُحمل إليه ابنُ تُبع الشاب . وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى أنفذ أمرُ الملك فرأت تماضرُ ابناً يُصرع بين يديها ، ورأى زُرعة ابنَ أخيه وأمه الثانية يُقتلان بمرأى منه ، وانتظر أن يسعى إليه للموت ، ولكن الموتَ أعرض عنه ، ولم يسع إليه إلا القيدُ والغُل !

فلما انتهى الفتى إلى القصر وأدخل على الملك ، فهشّ له الملك وبشّ وتلقاه بالعطف والبر ، وأمرَ فحطمت عنه الأغلال والقيود ، وأمر فأصلح من زيه ورُفّه عليه ، ثم دعاه فما زال يلاطفه ويؤنسه ويؤكد له أنه لا يريد به إلا خيراً ، ولا يُعدّ له إلا نعيماً . وملكاً عظيماً وأنه لم يفعل ما فعل ولم يجن ما جنى إلا ليخلصَ ملكُ تُبع لابنِ تُبع هذا الذي لم يقترف إثماً ولم يقطع رَحماً ولم يغمس يده في دم بريء ، وأنه لم يستطع ولن يستطيع أن يغفر لعمره و قتل أخيه ، ولا لتماضر ابنته رضاها بهذا الإثم وصمتها عليه .

ولم يستطع - وما كان ينبغي له - أن ينقل الملك عن عمرو الآثم إلى عمير الذي وُلد في الإثم ونشئ عليه . لقد قتل عمرو حساناً ، ثم قتل نفسه ، وقتل هو ابنه عميراً ، وخلصتُ بذلك حمير واليمن من هذا الإثم المنكر الذي كان يوشك أن يجرَّ عليها شرًّا لا ينقضي . . . !

والآن وقد طهرت اليمن من هذا الرجس ، وخلصت صنعاء من هذا الشر ، فقد آن للملكُ تبَّع أن يؤول إلى ابنه البريء . وإنما هي أعوام أهيتك فيها للهوضن بأمر الملك ، وأعلمك فيها ما لم تعلم في أعماق ذلك القصر ، وأقربك فيها إلى الجند والعطاء ، وأقرب فيها الجند والعطاء إليك ، حتى إذا تم لك من هذا كله ما ينبغي ، أصبحت - بعد - قبلاً من أقبالك ، وقدّمتُ إليك عرشَ أبيك وتاجه وصوبلحانه . وما زال يقول ذلك للفتى وكثيراً مثله ، وما زال يزيّن له من الوعود والأمانى ، والفتى يُظهر أماناً بعد خوف ، وثقةً بعد شك ، ورضاً بعد إنكار ، حتى استيقن الشيخ الآثم أن قد استأثر بالفتى البريء .

هنالك أخذ يُغريه ويغويه ويحبب إليه اللذة ويزين له الفجور ، والفتى يُظهر إقداماً حيناً وإحجاماً حيناً آخر ، ويطمعه مرةً ويؤيسه مرّات ، ولا يُضمّر له في نفسه إلاّ أقبح المكر والكيد ! وأصبح ذوالشناتر ذات يوم وقد همّ بأمر عظيم . وأصبح الفتى ذلك اليوم وقد تهبأ لأمر عظيم . وما ارتفع الضحى حتى أقبل رسول الملك يدعو الفتى إلى منادمته . فأظهر الفتى طاعةً سريعةً واستجابةً ليس فيها تردّد ولا التواء . ومضى الفتى إلى تلك الشرفة التي كان يجلس فيها الملك للهوه ويخلو فيها إلى نديمه . وما كان

يخلو قطاً إلى غير نديم . وصعد الفتي إلى تلك الشرفة وإن الموت لكامن بين قدميه ونعليه . حتى إذا بلغ مجلس الملك حيا فأحسن التحية ، ولقيه الملك فأحسن اللقاء . وكان بين الشيخ الآثم والفتي البريء حديث لم يطل ، ومعاقرة لم تتصل .

ثم همّ الشيخ بأمر ، وأقدم الفتي على الأمر ، وانصرف الفتي بعد ساعة فلما رآه الجندُ خارجاً من عند الملك نظروا إليه مشفقين ساخرين ، وتندّروا به وإن قلوبهم لتنفطرُ حزناً وحسرةً أن ينتهي ابنُ تبع إلى هذا الذلِّ والهوان ! ولكنهم نظروا فإذا الفتي لا يخفض رأساً ولا يغمض طرفاً ولا يُسرع في طريقه . هنالك تقدم إليه أحد الجند مزدرباً مكبراً في وقت واحد ، وسأله : كيف تركت الملك ؟ قال الفتي في صوت حازم لا عوج فيه : دونك الملك فسله كيف تركته . فضى الفتي في طريقه هادئاً مطمئناً . وأنكر الجند هذا الحزم وهذا الهدوء ، فصعد بعضهم إلى الشرفة ، وما كاد يبلغها حتى صاح صيحة اضطربت لها أرجاء القصر : ألا إن ابن تبع قد قتل الطاغية واسترد ملك أبيه !

فلما كان من غد كان زرعة قد جلس على عرش تبع ، وتسمى يوسف ، وتلقب ذانواس ، واتخذ اليهودية له ديناً ، وأخذ يردّ جمير إليها .

البشير

أقبلن مع ضوء النهار يسعين سعي النسيم يسبقهن عرف المسك ونشر
القرنفل ، ويحملن من ندى الأزهار وشهى الثمار ، ومن رطب الأغصان
وجنى الريحان ، ما يُصوّر الطبيعة وقد أيقظها بردُ السحر ومسّ الندى
وغناء الطير ، فجرتُ فيها رعدة الحياة ، ثم استقبلت ضوء الصبح باسمته له
مقدمةً عليه ، ثم منعمسة فيه تُريد أن تعبر ما بين ساحليه من مطلع
الشمس إلى مغيبها . وكن قاصرات الطرف فترات اللحظ ساحرات العيون
وكن واضحات الجباه قاتمات الشعور ، وكن مشرقات الوجوه باسمات
الثغور ، وكن أسيلات الحدود جميلات القدود نحيلات الحصور . وكن
عذاب الأصوات ملاح الألفاظ فانات الألحان . وكن يتغنين في يونانيتها
الحلوة أغنية الصباح ، تلك التي تعودن أن يحملن بها تحية النهار إلى سيدهن
الشاب الفتي المترف كيمون بن أركيتاس .

وكن يقلن له في أغنيتهن الرقيقة الظريفة : « أفقُ أيها الفتي المترف !
تنبه أيها الفتي السعيد ! قم أيها الفتي المجدود ، أفق كيمون ! فقد وفتُ
لك آلهة الليل بعهدا فرعتك وحفظتك ، ويسرت لك نوماً هادئاً وأحلاماً
حساناً ، ثم انصرفت عنك وقد أسلمتك إلى آلهة النهار لتنى لك بعهدا كما

تعودت أن تنى لك به منذ ذُقت الحياة ! أفق فلن ترى من هذا اليوم إلا ابتساماً أجمل وأعذب من ذلك الابتسام الذى رأيتَه أمس والذى رأيتَه أولَ من أمس والذى تعودته منذ عرفت الحياة ! أفق فستلقى مودةً وحباً ، وستلقى توفيقاً ونجحاً ، وسيزورك الأصدقاء مسرعين إليك ، مقبلين عليك وقد اتخذوا على رؤوسهم أكاليل من الزهر ، وسيخذ رأسك إكليلاً كأكاليلهم ، وستفرحون وتمرحون ، وستجدون وتمزحون : أفق أيها الفتي السعيد ! تنبه أيها الفتي المترف ! قم أيها الفتي المجدود ! .»

ولكنهن بلغن الغرفة التى كان يأوى إليها كيمون إذا جنَّه الليل وانصرف عنه الرفاق ، فلم يرين سيدهن كما تعودن أن يرينه كل صباح مغرقاً فى النوم أو متعلقاً بأسباب اليقظة يريد أن ينجو بها من بحر الرقاد ، إنما رأينه قائماً يذهب فى غرفته ويحىء متعباً مكدوداً ، مظلم الوجه كأنه قد أنفق ليله مسهداً لم يذق النعاس . فلما رأينه هممن أن يسألنه . ولما رآهن أنكرن ، ولكنه منحهن ابتساماً فيها عطفٌ عليهن نحزين ، ورفقٌ بهن لا يخلو من ألم ، وانصرافٌ عنهن يشوبه شيء من التبرم وإحساس الشقاء . ثم أشار إليهن فلم يسعهن إلا أن يعدن من حيث أتين ، صامتات كئيبات قد سقط فى أيديهن كأنما أتين من الأمر شيئاً عظيماً .

وكان الفتي فى حقيقة الأمر ينكر نفسه أشد الإنكار ، ويضيق بما حوله كل الضيق بعد تلك الليلة الطويلة الثقيلة التى أنفقها وحيداً محزوناً

يفكر في تلك الدماء التي كانت تجري قريباً من داره كأنها السيل ، وفي تلك الأشلاء التي كانت منتثرة من حول داره آخر النهار ، وفي تلك الأصوات التي كانت ترتفع بالصلاة والدعاء قوية رائحة مبهجة بالموت ، حتى يسعى الموت إلى أصحابها فيخرون صرعى ، وتستحيل تلك الأصوات القوية الرائحة المبهجة إلى حشرة فظيعة مروعة . ويرى تلك الوجوه التي كانت تستقبل الموت وعليها ابتسامة حلوة فيها جلد وثقة ، وفيها يقين وأمن وفيها أمل وإيمان ، فما تزال هذه الوجوه تدنو من الموت باسمه له ، وما يزال الموت يدنو منها عابساً لها ، حتى يكون اللقاء المنكر الشنيع ، فإذا عبوس الموت قد استحال إلى ابتسام حين مس هذه الوجوه الباسمة . وكانت المدينة قد شهدت يوماً من أعظم أيامها شراً وأشد أيامها نكراً : يوماً من أيام الاضطهاد ، جمع فيه النصارى من كل وجه وأخذوا من كل مكان ، فيهم الرجال والنساء ، وفيهم الشباب والشيب ، وكلهم من ضعفاء الناس وذوى المنازل الحاملة فيهم : أخذوا من الدور حيث كانوا آمنين ، وأخذوا من الحقول حيث كانوا يعملون ، وأخذوا من البيع التي أقاموها في الأنفاق حيث كانوا يجتمعون للصلاة والدعاء . فلما حشد منهم المئات امتحنوا في دينهم امتحاناً يسيراً قصيراً ، فلم يكن منهم من أجاب إلى وثنية الإمبراطورية الرومانية ، ولم يكن منهم من أظهر العبادة لقيصر أو الخضوع لدين روما . هناك أمر بهم الحاكم فقتلوا تقتيلاً ، ونكل بهم أشد التنكيل ، وعبث بهم السيوف والخناجر ، ولعبت فيهم سهام والحراب ، وأشرف المدينة المقيمون على دين الدولة ، وعامة المدينة المتعصبون لدين الدولة ينظرون

إلى ذلك فرحين به ، مستمتعين بجماله البشع الفظيع . وكان كيمون بين الأشراف في الصف الأول من النظارة سمع ورأى ، فأنكرت نفسه ما سمع وما رأى ، ولكن صوته لم يستطع إلا أن يصيح صيحات الرضا ، ولكن يديه لم يستطيعا إلا أن تُصنفا تصفيق الإعجاب . حتى إذا انتهت المجزرة وتفرق الناس سُكاري لكثرة ما رأوا وشموا من منظر الدم وريحه ، عاد الفتى إلى قصره ذاهلاً واجماً كثيباً حزيناً . ثم خلا إلى نفسه فقضى في غرفته بقية النهار وسواد الليل ، ورأى في هذه العزلة الطويلة أهوالاً وأوجالاً لم يكن تعود أن يراها . وأنسى له ذلك ولم يشهد قط ما شهد أمس من الاضطهاد ! وأنسى له ذلك ولم يشترك قط في حرب ولم يرقط نزالاً ولا قتالاً على أنه لم يستطع البقاء في غرفته بعد أن انصرف عنه الإمام ، فخرج من داره لا يدري إلى أين يقصد ، ولا يعرف إلى أين يريد . ومضى أمامه لا يلوى على شيء ولا ينظر إلى شيء ، ولم ينتبه إلا وهو يستأذن على صديقه نكياس .

فلما أذن له دخل على صاحبه ، فلم ير في وجهه إشراقاً ولا ابتساماً ، ولم يحس منه ابتهاجاً ولا نشاطاً ، وإنما رأى وجهاً عابساً مظلماً ، وشخصاً كثيباً فاتراً ! فابتدر صديقه قائلاً : إن أمرك لعجيب ! أفراني قد حملتُ إليك حزني وبؤسى ، ونقلت إليك كآبتي وشقائي ؟ ! قال نكياس : أمحزون أنت ؟ أما أنا فلم أذق النوم . قال كيمون : ولم أذقه أنا أيضاً . . . وكيف يذوق النوم من رأى مثل ما رأينا ، أو سمع مثل ما سمعنا ، أو شهد مثل ما شاهدنا من كيد الناس للناس ، ومكر الناس بالناس

وقسوة الناس على الناس ! قال نكياس : هون عليك ! لقد نام أهل المدينة ملء جفونهم آمنين مطمئنين . وما يمنعهم أن يناموا وأن يأمنوا وأن يطمئنوا وقد كانوا يخافون هؤلاء النصارى على أمن الدولة ودينها ، وعلى نظام الدولة وسلطانها ، فقد أراحهم سيوفُ الجند ورماحُ الشرطة وسهامُ الرماة من هؤلاء النصارى ، فأخلت منهم الدار وعفت منهم الآثار ، وقدّمتهم ضحايا دامية إلى « جوبيتير » إله روما العظيم ! قال كيمون : إن عجبى من هؤلاء النصارى لا ينقضى ! كلهم كان ضعيفاً ذليلاً ، وكلهم كان فقيراً معدماً ، وكلهم كان بائساً محروماً ، وكلهم كان قد تعود الطاعة وألف الخضوع ، فكيف قويت قلوبهم بعد ضعف ، وكيف عزت نفوسهم بعد ذلة ، وكيف اجترءوا على أن يعصوا سادتهم وقادتهم ويخالفوا عن أمر الحاكم والإمبراطور ؟ ! ما هذا السحر الذى غيرهم هذا التغيير ، ويبدلهم هذا التبديل . ومنحهم هذه الشجاعة والعزة ، وهذا الصبر والبأس . وكل هذه الحاصل التى لم تكن تُعرف إلا للأشراف ؟ ! قال نكياس : وما يُدهشك من هذا ؟ إنما هو الإيمان خليق أن يحول الأشياء إلى أضدادها ، والنفوس إلى نقيضها . أو تظن أن أمر هؤلاء الناس هو وحده الذى يثير هذا الدهش ويدعو إلى العجب ! أليس كل شيء الآن يتغير ويتبدل ؟ ! أأنت تحس من حولك إنكاراً لكل شيء ، وضيقاً بكل شيء وسخطاً على كل شيء ، واستعداد لثورة عنيفة توشك أن تشب فتقلب الأشياء كلها رأساً على عقب ؟ ! إنك تعجب من الناس ، فماذا تقول إن أنباتك بأنى أعجب من الآلهة ؟ !

قال كيمون : وأنت أيضاً تعجب من الآلة : أفرأيتَ إذا ما رأيتُ ،
وسمعتَ إذا ما سمعت ؟ ! لقد كنت أحسبه حلماً من هذه الأحلام التي
تروّع الناس في النوم إذا روّعتهم الحوادث وهم أيقاظ ، وكنت أجادل
نفسى في هذا الحلم الخفيف ، فما أذكر أنى ذُقت النوم منذ أمس .
قال نكياس : فاقصصْ على ما رأيتَ أحدثك بحديثي وإنه لعجيب .

قال كيمون : طال على الليل ، وثقل على الهمة ، وضائقُ بنى الغرفة بما فيها
من الجدران القائمة ، والسقف المطبق ، والباب المغلق ، فخرجت كأنما
كنت أتمس في الحركة فرجاً من خراج ، وفي الفضاء الواسع فسحة من
ضيق ، وأشرفتُ أرفع طرفى إلى السماء كأنما كنت أسأل نجومها عن سرِّ
ما لا أفهم من أمر الحياة والأحياء ، وأمدتُ عيني إلى البحر كأنما كنت
أدعوه ملخاً عليه إلى أن يطنى بعض الشيء على المدينة ، فيغسل ما علق
بأرضها من دماء القتلى ، ويحمل ما انتثر على أرضها من أشلائهم . وإنى لنى
ذلك حائر الطرف مُفرق النفس ، كاسف البال مجزون الضمير ، وإذا شيء
يعرض لى لا أتبينه أوّل الأمر لأنه كان بعيداً عنى ، ولكنه يروعنى وتقف عيني
عليه ، ويدنومنى شيئاً فشيئاً حتى أتبين—وما أعجب ما أتبين جماعة من الفرسان
كأجمل وأروع وأجهر ما رأيت ، قد علواصهوات جياد عربية ، ما رأيتُ قط
مثلها ولا سمعت قط عن مثلها إلا فيما أقرأ من شعر الشعراء ومن قصائد
« بندار » حين كان يتغنى تلك الخيل التي كانت تسبق ألعاب أولبيا .
جوادٌ مجنحة كانت تعبرُ إلى البحر بمن عليها من الفرسان ! لا أدري أكانت
تركض على الماء أم كانت تطير في الهواء . حتى إذا بلغ الجماعة شاطئ

البحر وكادت حوافر جيادهم تطأ الأرض وقفوا. وقد تبينت أشخاصهم فإذا هم أربعة ، فيهم رجلان وامرأتان . وما أقرب الشبه بين هؤلاء الأشخاص وبين هذه التماثيل التي نراها في المعابد لأبلون وأرتيمس ، ولأتنا وأريس !

أكنت يقظان حين رأيت ! أكنت يقظان حين سمعت ! ولكن أشخاصهم ما زالت ماثلة أمام عيني ، ولكن حديثهم ما زال مستقرًا في صدري كأنما نُقش على قلبي نقشًا . سمعت أشبههم بأبلون يقول : ما أبشع هذه المدينة التي نحبا ونصبو إليها ! وما أقبح هذه الريح التي تصعد إلينا منها ! قالت أشبه هؤلاء الأشخاص بأتنا : لقد كنا نحب أن نلتم بهذه المدينة فنطيل فيها المقام ، وكنا نستعذب حديث أهلها ونستحب أخلاقهم ، ونستلذ ما كانوا يقدمون إلينا من الضحايا والقرايين . قالت شبيهة أرتيمس : وكم كنت أحب أن أتجول في غاباتها وأستمع فيها بلذة الصيد ! قال شبيهة أريس : أما أنا فكانت تعجبنى حصونها المحصنة ، وقلاعها المؤشبة ، وهذا الجيش الباسل المرابط فيها والمستعد في كل لحظة للدفاع والهجوم . قال شبيهة أبلون : فقد آن لنا أن ننصرف عنها على ألا نرجع إليها ، وأن نلقى عليها نظرة وداع لا لقاء بعده . قالت شبيهة أرتيمس : لم أستطع بعد أن أفقه ما ألم بأهل هذه المدينة : أفتنة أتت على عقولهم فحالت بينها وبين الفهم والتفكير ، أم قسوة غلبت على قلوبهم فحرمتها الحس والشعور ؟ إنهم يظنون أنه الدين وما يدفعهم إليه من حبنا والتعصب لنا ، وحماية معابدنا وأوثاننا وسلطاننا أن يطغى عليها هذا الدين الحديد الذي

أقبل من الشرق ، ولكنهم يكذبون ، فما أكثر من وفد علينا من آلهة الشرق قديماً ! وما أكثر من وفد علينا منهم في هذه الأيام ! وما أحسن ماتلقيناهم ! وما أحسن ما نتلقاهم الآن ! لم نضق بهم ولم يضق بهم الناس ! فما ضيقهم بهذا الدين الحديد وبهذا الإله الشرقي الحديد ؟ !

قال شبيه أبلتون : إنهم يخذعون أنفسهم ويريدون أن يخذعونا ولكنهم يعلمون ، لو فكروا ، أنهم لا يثورون لنا ، ولا يغارون علينا ، ولا يغضبون للدين ؛ إنما يورون لقيصر ، ويغارون على روما ، ويغضبون للسياسة . ولولا أن قيصر قد آله نفسه وأخذ الناس بعبادته ، ولولا أن روما قد ألهت نفسها وفرضت ما لم تفرض مدن اليونان حين كان إليها الأمر من هذا الدين الغريب الذي تقام له المعابد بها ، ويؤمر الناس فيها أن يقدموا إليه الطاعة ، ولولا أن هؤلاء الرومان قد اتخذوا الدين وسيلة من وسائل السيادة وأداة من أدوات الحكم وبسط السلطان ، يكذبون به على أنفسهم ويكذبون به على الناس -- لولا هذا كله لما أريقت الدماء ولا انتشرت الأشلاء ، ولا أزهقت النفوس ، ولا قتل الناس بعضهم بعضاً على هذا النحو .

قال شبيه آريس : إنكم لتعلمون حبى للدماء ، ونشوقى بالقتال والحرب ، ولكنى شديد البغض لما أرى ، شديد النفور مما أجد . وكم ضقت بما رأيت . أمس من هذا التقتيل والتنكيل والتخيل ! ومع ذلك فكم شهدت من حرب وكم اشتركت فيها ! وكم أغريت بها ؛ وكم دفعت إليها ! وكم أبلت فأحسنت البلاء ! قالت شبيهة أتنا : وأى غرابة في ذلك ؛ أنا

أيضاً أحببت الحربَ وما زلت أحبها ، ولكن الحربُ شيءٌ وهذا النُكرُ شيءٌ آخر . وأين الحربُ التي تصدُرُ عن الشجاعة والبأس من هذا الإجرام الذي لا يصدر إلا عن الجبن والبغى والعدوان ! وأى فرق بين تقتيل العزّل والأبرياء ، وبين ما فعله أيّاس حينُ جنّ جنونه ، فأعمل سيفه في قطعان البقر والغنم التي لا تملك عن نفسها دفاعاً؛ قال شبيه أبلون : وما بقاؤنا في هذه الأرض التي ليست لنا بدار بعد ما أزمع الآلهة أن يدعوا هذا الإقليم للدين قيصر ولهذا الدين الحديد ؟ ! لقد وقفنا فأطلنا الوقوف ، وودّعنا فأطلنا الوداع ، وأن لنا أن نلحق بمن سبقنا من الآلهة إلى تلك الأرض الموعودة التي لم تُفسد عقولَ أهلها حيلةُ برومثيوس ، ولا فلسفةُ سُقراط ، ولا سياسة قيصر ، هلم . ثم ترتفع بهم أفراسهم في الجوّ ، وما هي إلا لحظة حتى أرى سحاباً رقيقاً يمضي أمامي مُسرعاً ، ثم أنظر فلا أرى شيئاً . أكنتُ نائماً أرى ما يرى النائم ، أم كنت يقظان أرى ما يرى الأيقاظ ؟

قال نكياس : لم تكن نائماً ولا حالماً : فقد كنت أسمع حديثك الآن وما أشكّ في أنك قد كنت تقرأ ما كان قد نُقش على قلبي ورسخ في قرارة نفسي . الصورةُ هي الصورةُ ، واللفظُ هو اللفظُ ، ومقدّمُ الفرسان ورحيلهم ووقوفهم بين ذلك كما وصفته ، لم تزد فيه ولم تنقص منه ؛ ولكني لم يطل علىّ الليل ولم يثقل علىّ الهمّ ، ولم يضق بي المكان . لقد أنفقتُ بقية النهار وأكثر الليل في قصر الحاكم مع أغنياء المدينة وأشرفها نستمتع بلدات هذا الحفل الذي دعانا إليه ، ولم تنشط أنت له . وأشهدُ لقد

أسرفتُ في الطعام ، وأسرفتُ في الشرب خاصةً ؛ لأني كنت أريدُ أن تُفرّق الحمرُ بيني وبين نفسي ، وأن تسَلّ الحمر ما كان يملأ صدري من الهم والحزن. ولكنّ الليل عجزَ عن أن يُسلمك إلى النوم ، وعجزت الحمرُ عن أن تسلمني إلى السكر . فلما انقضى الحفل وانصرف الناس لم أستطع أن أعودَ إلى داري ، ففضيتُ أمشي على ساحل البحر أتشم الهواء وأنظر في السماء ، حتى رأيتُ مثل ما رأيتَ ، وسمعتُ مثل ما سمعتَ . وعدت وإني لأسأل نفسي منذ ذلك الوقت : أكان حقاً ما رأيت وسمعت ، أم كان لوناً من ألوان السكر وخيالا من هذه الخيالات التي تسلطها الحمر على النفوس؟ قال كيمون : وإذاً . . . ؟ قال نكياس : وإذاً . . . ! ثم سكت الصديقان وقتاً طويلاً . ثم استأنف نكياس حديثه وهو يقول : وإذاً فنحن بين اثنتين : إما أن نرحل كما رَحَل الآلهة ، وإما أن نُقيم كما أقام الناس . وفي السياحة لذة ، وفي الحمر واللهو عزاء . قال كيمون : أما أنا فرتحل . قال نكياس : أما أنا فقيم . قال كيمون : فكن إذاً خليفتي في مالي حتى يأتيك أمرى فيه . قال نكياس : أجادت أنت ؟ وما يمنع أن يكون ما رأينا وسمعنا عبثاً من عبث الآلهة ؛ فقد علمت أنهم يحبون العبث بنا والسخر منا ! وما يمنع أن يكون ما رأينا وسمعنا أثراً من آثار هذه الصلصة التي دهمتنا أمس حين رأينا ما سُفك من دماء وما أزهق من نفوس ! أقم فإنّ في اللهو واللذة وفي الحمر والغناء ، وفي جمال هؤلاء الإماء اللاتي يملأن قصورنا نعيماً وبهجة ، وفي هذه الثروة التي تبيح لنا من ألوان الشرف والمجد ما لا يُتاح إلا لقليل من الناس ، ما هو خليقٌ أن ينسينا ما شهدنا منذ أمس . أقم ! ولنضاعف

ما نحن فيه من عبث وهو ؛ فما أرى حياة الناس تستقيم إلا على العبث واللهو : شرب في النهار ، ونوم في الليل ، حتى إذا سئمت الحياة خرجنا منها مزدريين لها . قال كيمون : أنت وما تحب من هذا ، أما أنا فمرتحل عن هذه الأرض ولو إلى حين . . .

ثم افترق الصديقان بعد ذلك ، فلم يلتقيا ولم يعرف أحدهما من أمر صاحبه شيئاً . أما التاريخ فقد عرف من أمر كيمون شيئاً كثيراً .
على أن الذي حدثني بحديث كيمون لم ينس أن يصطنع الصدق والأمانة في الحديث ، ولم يرض أن يتكلف ما يتكلفه القصاص وكثير من المؤرخين من التزييد في الرواية ، والتحدث بما لا علم لهم به ؛ فقد أنبأني بأن جزءاً غير قليل من حياة كيمون لم يصل عنه إلى الرواة والمؤرخين إلا أطراف قصيرة من الحديث ، وأن التاريخ لم يعرف تفصيل حياته إلا في آخرها حين تقضى شبابه ، وأقبلت عليه الشيخوخة بما تحمل إلى الناس من هذه الهدايا البغيضة التي تتألف من الضعف والمرض وأعراض الفناء والاتحلال . ولو قد عرف التفصيل من أمر كيمون لوجد الناس في قراءته لذة لا يجدون مثلها كثيراً حين يقرءون حياة الشهداء والقديسين .
فقد انصرف كيمون عن صاحبه محزوناً موزعاً بين اليأس البين إن أقام ، والرجاء الغامض المبهم إن ارتحل . وكان قد كره المدينة والحياة فيها كرهاً شديداً . وكان قد سئم قصره وما فيه ساءاً له فخلقته حتى أنكر نفسه ، وحتى كره ما كان يسمع من صوته وألفاظه حين كان يتحدث إلى أهل القصر من الأحرار والأرقاء

ولم يكد يُتمّ يومه في القصر حتى عرف أن بقاءه في المدينة أمر لا سبيل إليه ، وأن الموت آثر عنده وأحب إليه من هذه الحياة الحمراء اللاغطة الممزقة التي لا يرى فيها إلا دماء وأشلاء ، ولا يسمع فيها إلا صلاة ودُعاء وحشرجةً ونداء ، فلما جنَّه الليل وهدأ من حوله كل شيء وكل إنسان ، خرج من القصر ينساب كأنه الحية ، وينسل كأنه اللص ، وأخذ يمضي في طرق المدينة متنقلاً من طريق إلى طريق حتى جاوز أسوارها وأرباضها (١) ، ودفع (٢) إلى الفضاء الواسع ، وإلى هذا الريف الذي تسكن فيه الطبيعة إذا تقدّم الليل سكوناً رهيباً ، ولا يكاد يُحسّ الإنسان فيه إلا هذه الأصوات الضئيلة التي تنبعث من حين إلى حين ، عن بعض الحشرات المنبثة في ثنايا العشب والزرع ، وعن بعض الطير المستقرّة على الأغصان ، حين يمرّ بها طائف الحلم فهمّ بالغناء والتغريد ، ثم يقطع عليها النوم غناءها وتغريدها ، وإلاّ هذه الأصوات الخفية التي لا تسمعها الأذن وإنما تسمعها النفس ؛ لأنها أدقّ من السمع ، وألطف من الحس ، وهي نجوى الهواء حين تتحدث أجزاءه وطبقاته بعضها إلى بعض إذا سكن الليل وأطبق الظلام ، كأنما يقصّ بعضها على بعض أحاديث الطبيعة في حياتها وحركتها قبل أن تنام ، وقبل أن يضطرها الليل إلى السكون . ومع أن هذا الهدوء الرهيب ، وهذا الصمت المهيب ، يروعان أهل المدن إذا دُفِعوا إليهما دفعاً على غير تعود لهما ، فإنهما لم يبعثا في نفس الفتى روعاً ، ولم

(١) الربض (بالتحريك) : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .
(٢) يقال : دفع فلان إلى المكان (بصيغة المعلوم والمجهول) : إذا انتهى إليه .

يُدخِلنا في قلبه رُعباً ؛ لأن نفسه كانت مشغولة حتى عن هذا الرعب وذلك
الروع بما كان يزدحم فيها من الخواطر والأحاديث . وكان الفتي يمضي
أمامه لا يعنيه أمهتد هو قَصْدَ السبيل أم جائرٌ هو عن هذا القصد ؛ لأنه
لم يكن في حقيقة الأمر يعرف إلى أين يريد . ولم يكن قد رسم لنفسه
طريقاً يسلكها أو غايةً ينتهي إليها ، إنما كان همه أن يفر من
هذه المدينة التي جرت فيها الدماء أنهاراً ، وانتشرت فيها الأشلاء انتشاراً ،
وجنى فيها بعض الناس على بعض هذه الجرائم والآثام . وكان حديث
الآلهة قد ملأ نفسه دهشاً وعجباً ، واضطر إلى أن يسأل نفسه من حين إلى
حين : إلى أين ذهب الآلهة . وأى طريق سلكوا ، وفي أى مكان من
الأرض أو من السماء أقاموا قصورهم الخالدة ؟ وكيف هان على زوس أن
يدع أولب وما كان فيه من حياة فيها الجدد الرائع والعبث اللذيذ ؟ وكيف
هان على أبلون أن يترك معبده الخالد في « دلف » ؟ وكيف استطاعت أتنا
أن تتعزى عن الأكروبول ؟ وأين يجد آريس مدناً تقتتل وتحترب كما
كانت مدن اليونان تقتتل وتحترب ؟ وكان يسأل نفسه عن سلطان
هؤلاء الآلهة الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا لعدوان الإنسان على الإنسان ،
فضلاً عن أن يمحوا هذا العدوان ويبطشوا بالمعتدين . وكان يسأل نفسه
عن هذا الدين الحديد الذي يؤثره أصحابه على الحياة ولذاتها وآلامها ، وعن
هذا الإله الحديد الذي أخذ يغزو العالم اليوناني الروماني ، فيحبس إلى أهله
الآلم والصبر والتضحية ، ويُرْهِد أهله في الثروة والغنى ، ويُرْزِن في قلوبهم
حب الفقر والإعدام ، ويُنشئهم تنشئاً جديداً لا صلة بينه وبين ما ألف

الناس منذ أنشدوا شعرَ هوميروس ، وتغنوا شعر سافو وبندار ، واستمتعوا
بشعر سوفوكل وأرسنوفان ، وتفكروا في فلسفة سقراط وأرسطاطاليس . . . ؛
وكان يسأل نفسه وهو يمضي في طريقه لا يلوى على شيء ، والليل من حوله
مطبقٌ قد غمر بظلمته المخيفة كل شيء : أماض هو في أثر الآلهة الذين
ارتحلوا ليلحق بهم ويقيم معهم ، لأنه لا يستطيع أن يعيش من دونهم ،
أم ساعٍ هو إلى دار هذا الإله الحديد لعله يلتقي من كهانه وقساوسته من
يُعلمه أسرار دينه ؛ فقد سُم حياة اليونان ، وتمنى لو ظفر بلون من الحياة
جديد ؟ ! وكان الفتى يمضي ، وكانت هذه الخواطر تزدهم على نفسه
وتضطرب فيها . . . وكان الليل يمضي هو أيضاً في طريقه دون أن يتبين
الفتى أكان سريعاً في سيره أم بطيئاً . وإنه كذلك يسير ويرسب ، ويفكر
 ويفكر ، قد نسي نفسه ونسى الليل ، وإذا هو يثوب إلى نفسه لحظة
فيقف ويرفع رأسه ، وإذا الضوء قد غمره وغمر الأرض من حوله ، وإذا
هو ينظر أمامه فلا يرى إلا سهلاً مشرقاً ، وينظر ورائه فلا يرى إلا سهلاً
مشرقاً ، وينظر من يمين وشمال فلا يرى إلا سهلاً مشرقاً ، وإذا هو لا
يلرى من أين جاء ولا إلى أين يريد . ينظر ورائه فلا يرى للعمران أثراً ،
وينظر من كل ناحية فلا يرى للعمران أثراً ، قد انقطعت الصلّات
والأسباب بينه وبين مدينته التي خرج منها أمس حين أظلم الليل ، فكأنه
لم يعرف هذه المدينة ولم يعيش فيها ولم يقاسم أهلها ما نعموا به من لذات
وما ابتأسوا به من آلام ، وكأنه لم يشهد فيها ما شهد ، ولم ينكر من أهلها
ما أنكر ، وكأنه شيء فد لا صلة بينه وبين شيء ، وكأنه شيء ضائع

بين هذه الأرض التي لا حد لها ، وهذه السماء التي لا حد لها ، وهذا الضوء الذي يضطرب بينهما إلى غير حد . هنالك أحسّ الفتي راحة لم يُحسّها قط كأنه قد ألقى عن نفسه أعباء الحياة كلها ، هذه الأعباء التي لا تختصر حياة الفرد وما لقي فيها من شر وخير فحسب ، وإنما تختصر معها أيضاً حياة هذه الأجيال التي سبقت وأورثته الحضارة أثقالها . أحسّ الفتي راحة قلما نستطيع نحن أن نتصورها ، وأحسّ هدوءاً ونشاطاً قلما نستطيع نحن أن نذوقهما . ووقف يستمتع بهذه الراحة ويستلذّ هذا النشاط وحاول أن يدعو إليه تلك الخواطر التي كانت تزدهم على نفسه في ظلمة الليل ، فلم يستجب له منها خاطر واحد ، كأنما طردها هذا الضوء المشرق مع ذلك الليل المظلم الكثيف .

.. ما أجملَ هذا الشعور الذي امتلأت به نفس كيمون حين أحسّ أنه قد خلق خلقاً جديداً ! لقد امتزجت نفسه الجديدة بهذا النور الجديد ، ولقد نسى الآلهة الذين كان يمضي في أثرهم ، ونسى الإله الذي كان يبعي ليعلم علمه . وماله ولهذا الإله الجديد ولأولئك الآلهة القدماء ، وقد استيقن أنه قد وجد في هذه الطبيعة المطلقة الحرة، التي لا تُحصر ولا تُحد آيةً أرشدته إلى إله ليس كما تعود أن يرى الآلهة ؛ لا سبيل إلى أن يُحصر ولا إلى أن يُحدّ ، ولا مَطْمَع في أن يرقى إليه العقل ، أو يتناوله الفكر بالدرس والبحث والتحليل . إنما هو قوة يُكبرها ولا يفهمها ، يُجلّها ولا يُحيط بها ، يشعر أنها تأخذه من كل مكان وتأخذ كل ما حوله ، وأنه إن يمضِ أمامه فهو مقبلٌ عليها ، وإن يرجع أدراجه فهو خاضعٌ لها ،

وأنتى يذهب يمينا أو شمالا فهو فى ظلها الظليل وفى كنفها الرّحب . سبحانك اللهم ! إن لم أجدك فقد وجدتُ آيتك ، وإن لم أرك فقد رأيتُ خلقك ! لك علىّ ألا أومنَ إلاّ لك ، ولا أخاف إلاّ إياك !

ثم يمضى الفتى أماّمه فى شىء من الدهول ليس إلى تصويره من سبيل ، حتى يشتدّ حرّ الشمس ويبلغ منه الإعياء ، وهو على ذلك جلدٌ صبور لا يحسّ كلالاً ولا فتوراً . وما يزال يمضى ويمضى ، حتى يُرفع له بناءٌ يراه فيأنس به ويتنكر له فى وقت واحد : تأنس به طبيعته الفانية التى قد أحست الجهد والكد ، وذوقت ألم الظمّ والجوع . وتتنكر له نفسه الخالدة التى تُشفق أن يخرجها من هذه الحياة الروحية الراقية الحلوة التى لم تألفها من قبل . ويهمّ الفتى أن يقف ، ولكن هذا البناء الذى يرفع له يدعوّه إليه فى إلحاح أن أقبلُ أيها الفتى ولا تخفْ ؛ فليس عليك من بأس فيمضى الفتى صوب هذا البناء ؛ حتى إذا دنا منه سمع أصواتاً عذبة ترتل ترتيلاً عذباً فيسرع إليها ، وما هى إلا أن يلحق بجاعة من الرهبان يصلون ويرتلون ، وإذا هو يصلى معهم ويرتل ، لم يُنكروه ولم ينكرهم ، كأنه واحدٌ منهم ، وكأن العشرة بينه وبينهم متصلة منذ عهد بعيد . ذلك أنه قد وقع إلى دير من هذه الأديار التى كانت تقام فى تلك الصحراء ، حين كان النصارى يفرون إلى الصحراء بدينهم من تلك المدن التى كانت تسيطر عليها آلهة اليونان والرومان ، وديانات روما والإمبراطور .

ثم سكت محدثى ساعة كأنه يفكر أو كأنه يستريح . فلما طال علىّ صمته قلتُ له فى لهجة المشوق إلى ما عنده من الأنباء : هلّمْ أنبئنى كم

لبثَ الفتي في الدير؟ وكيف كانت حياته فيه؟ قال محدثي: لو علمتُ ذلك ما بخلتُ به عليك، وقد سألت عنه أشياخنا كما سألتني، فكلهم أجابني بما أجبتك به، وكلهم قالوا هذه الجملة التي يقولها الرواة والمؤرخون إذا اضطروهم النسيان، وضياعُ الحوادث إلى الإجمال والإبهام: أقام كيمون في هذا الدير ما شاء الله أن يقيم. قلت لمحدثي: فإنك علمت من أشياخك في غير شك أطرافاً من حياة هذا الفتي بين هؤلاء الرهبان، وعلمت منهم في غير شك أيضاً؟ إلى أي الأحوال صار أمره بعد أن عاش أهل الدير وتعلم منهم دين المسيح. قال محدثي: لم أكد أعلم منهم شيئاً؛ لأنهم كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً، وكانوا إذا انتهوا من حديث كيمون إلى حيث انتهت، قالوا هذه الجملة التي تشبه ما تقوله العامة حين تنسى أو حين يُعييها التفصيل: وما أسرع ما تقدم السن بأبناء الأحاديث. فقد تقدمت السن بكيمون بعد أن قضى في الدير ما شاء الله من الدهر، مجتهداً في طاعة الله والفقهاء في الدين، والانصراف عن غير ذلك من شؤون الحياة. قال أشياخنا: والناس يتحدثون أن كيمون ضاق آخر الأمر بحياته في الدير لأنه رأى نفسه قد أصبح فتنةً لرفاقه وخلطائه من الرهبان، ورأى ديره قد أصبح فتنةً لأديار كثيرة كانت تقع على آماذ بعيدة منه في الصحراء، وأصبح فتنةً لأهل الريف الذين كانوا يقيمون على أطراف الصحراء، وفي داخل الأرض الخضراء؛ فقد تسامع هؤلاء جميعاً بما كان الله عز وجل قد اختص به كيمون من الكرامة وآثره به من الفضل، وبما أجرى على يده من العجائب والأمور الجارقة؛ فقد كان لا يدعو لمريض أو ذي ضرر

بالشفاء إلا شفاه الله من فوره . وكانت بركته قد عمت أهل الدير ومست
ما حوله من أرض الصحراء إلى أمد بعيد ، فإذا أهله لا يشكون جوعاً ولا
ظماً ، ولا يلقون جهداً ولا عناء ، وإذا دبرهم قائم في وسط جنة خضراء
قد أنبت الله فيها من ألوان الشجر والزهر، ومن فنون الحب ما فيه غنى عن
كل جهد ودفع لكل مشقة ، وإذا الناس يحجون إلى هذا الدير في كل
عام مرة أو مرات فيتبركون ويلتمسون الدعاء ، ويلحون في لقاء كيمون :
هذا يريد أن يمسه ، وهذا يريد أن يلثمه ، وهذا يريد أن يسمع صوته ،
وهذا يريد أن يملأ عينه من منظره الجميل ؛ حتى ضاق الشيخ بذلك
وأشفق منه على نفسه وعلى دينه . وقد أصبح كيمون شيخاً . وما أسرع
ما تتقدم السن بأبناء الأحاديث ! فلما شق عليه ذلك أزمع أن يخلص
منه . ويفرّ بدينه من إكرام المكرمين وإيثار المؤثرين ، كما فرّ قبل ذلك
من تلك المدينة التي كان الناس يُفتنون فيها عن دينهم بالتقتيل والتنكيل
والتمثيل . وأصبح أهل الدير ذات يوم يفتقدون وليّهم المبارك فلم يجدوه
حيث تعودوا أن يروه في كل صباح ، والتمسوه في كل مكان : في الدير
وفي جنة الدير ، وفي الصحراء من حول الدير ، فلم يظفروا به ولم يجدوا له
أثراً . فذهبت ظنونهم وظنون غيرهم من الناس في هذه الغيبة كل مذهب ،
وأولوها كل تأويل . ولكن كيمون نفسه لم يظن ولم يؤوّل ، وإنما استعان
الله على أن يخلص من هذا الضيق ، ودعا الله أن يُخفيه عن الناس حتى
يبلغ مأمنه ، فاستجاب الله له . ومضى في طريقه هارباً من الدير ، كما
مضى في طريقه هارباً من المدينة ، لا يلوى غلى شيء حتى أخرج من

الصحراء المجذبة ، وأمعن في أرض خصبة فيها خيرٌ وثراء كثير ، فمضى فيها لا يُغريه ما كان يرى من حياة الناس ونعيمهم ولم يمَسَّ قلبه ولا حسنه ما كان يرى من تلك المدن العامرة التي كانت تذكره بمدينته ؛ لأنها كانت تشبهها بما كان يقوم فيها من القصور الفخمة ، والملاعب الواسعة الضخمة ، وبما كان يُنصب فيها من الأسواق التي تُحملُ إليها ألوان التجارة من أطراف الأرض ، وبمن كان يضطرب فيها من هؤلاء الشبان المترفين ، ومن هؤلاء النساء المتهالكات الداعيات باللحظ واللفظ إلى الإثم والفتون .

وكان الشيخ يمضى بين هذا كله لا مُنكراً له ولا راغباً في شيء منه ؛ لأنه كان مشغولاً بنفسه ودينه عن هذا كله . حتى إذا قطع هذه الأرض من أحدٍ إلى أحدٍ ، وقف عند قرية فقيرة في طرف من أطرافها تمسُّ الخصب من ناحية ، وتمسُّ الصحراء من ناحية أخرى . أقام كيمون في هذه القرية وقد أعجبه فقرها وشظف أهلها وأعجبه هذه الصحراء التي كانت تمتد أمامه إلى غير حد . وكان كيمون كلفاً بالصحراء لا يستطيع أن يسلوها ؛ لأنه لا يستطيع أن ينسى أنه وجد فيها الهدى ، وتبين فيها وجه الصواب . فكان ينفق أيام الأسبوع أجيراً لأهل القرية يعمل فيما يحتاجون إلى إقامته من البناء . حتى إذا كان يوم الأحد خرج مع الصبح فأبعد في الصحراء حتى تنقطع الصلة بينه وبين الناس ، ثم ينفق نهاره كله في ذكر الله ويعود إلى القرية مع الليل . وكان كيمون رحماً للبائسين رقيقاً بأهل الضر : فكان إذا مر به البائس أو المحروب أو المريض رق له قلبه

ودعا له في نفسه، فما أسرع ما يزول البؤس ويُكشف الضر ويُرفع المرض؛ وكان الناس ينكرون ذلك ويعجبون له . فلما كثُر ذلك واتصل وعرفه الناس أحبوا هذا البناء وكلفوا به ، ثم استحال حبهم وكلفهم إلى شيء يشبه الفتنة . وأحسّ كيمون أنه صائر إلى مثل ما صار إليه في الدير ، فارتحل عن هذه القرية تحت الليل ، وافتقدته الناس من الغد فلم يجدوه . وكذلك أخذ الشيخ ينتقل من قرية إلى قرية ، ويرحل من مكان إلى مكان ، حريصاً على أن يُبلازم الصحراء ليقضى فيها الأحد من كل أسبوع ، يقيم في القرية ما يجمله الناس . ويفرّ من القرية حين يُحسّ أنهم قد عرفوه . حتى إذا كان في قرية من قرى الشام في آخر العمران وأول البادية عرفه رجلٌ من أهلها كأنه عربي كان يُسمى صالحاً : عرفه وعرف تستره وتنكره للناس ، فلزمه عن بعد . وخرج كيمون في يوم من أيام الأحد فأمعن في الصحراء كعادته وصالحٌ يتبعه عن بعد . حتى إذا انتهى إلى مكان من الفلاة ، قام يصلي وصالحٌ يلحظه . وإنه لفي صلاته وإذا حية عظيمة ذات رعوس سبعة قد أقبلت تسعى إليه ، فاغرة أفواهها ولها فحيحٌ مزعج مخيف . فلم يحفل بها كيمون ، ولكنه دعا الله عليها فأماتها الله في مكانها . وجزع صالح حين رآها تسعى إليه فصاح : إياك والحية ، ومضى الشيخ في صلاته حتى أتمها . ثم أقبل على صالح يسأله عن أمره . قال صالح : شهد الله ما أحببتُ أحداً ولا شيئاً حببني لك ، وما أردت إلا أن ألزمك وأتعلم منك ، فأذن لي في ذلك . قال كيمون : لست أرى بذلك بأساً . ولكنني أشفق أن تشقّ عشريني عليك ، فدونك ما أحببت إن

قدّرت على صحبتي . وعادوا إلى القرية في المساء . فلم يُقم فيها كيمون أياماً حتى عرف أهلها منه ما عرف أهل القرى التي أقام بها من قبل . وجاءه رجل من أهل القرية فقال : إني أريد أن أصلح بعض البناء في بيتي . فهل لك في أن تنظر في هذا البيت لأشارتك على ما أريد ؟ فلما انتهى معه إلى الدار أدخله في حجرة وأخذ يتحدث إليه عما يريد تغييره . ثم نظر كيمون فإذا الرجل يهوى إلى الأرض فيرفع ثوباً كان مبسوطاً وإذا صبيٌ ضير سيء الحال . فلما رآه كيمون رقّ له ودعا الله ، فنهض الصبي وليس به بأس . واستيقن البناء أن أمره قد افتضح ، فقال لصاحبه صالح : لا مقام لي بعد اليوم في هذه القرية ، إني ماض في الصحراء ، فإن شئت فاتبعني وإن شئت فأقم . ولم يدركهما صبحُ غدٍ إلا وقد انقطعت الصلّةُ بينهما وبين الحواضر . ولكن وحدتهما لم تطل ، فما أكثر القوافل التي تردّ بين الشام وبلاد العرب آخذةً في الصحراء كلّ طريق ! مرّت بهما قافلة من هذه القوافل ، فعدت عليهما واتخذتهما بضاعةً ، حتى إذا عادت إلى نجران من أرض اليمن باعتهما لرجلين من أشرف المدينة . فأما صالح فقد نسيه التاريخ ، وأكبرُ الظن أنه ذهب مع الداهيين في تلك الفتنة المنكرة ، التي أظلت أهل نجران بعد ذلك بأعوام . وأما كيمون فقد أكرم سيدهُ مثواه ، وأفرد له حجرةً في داره . فكان يعمل لمولاه بياض النهار ، ويقوم للصلاة أكثر الليل . ولاحظ سيدهُ مرةً ومرةً أن حجرة هذا العبد مضيئةٌ في الليل من غير مصباح . فأنكر ذلك أوّل الأمر ، ولكنه استيقنه بعد طول الملاحظة . فلما أصبح دعا إليه كيمون وسأله عن ذلك ، فلم

يُجِبه بشيء . فسأله عما يصنع في حجرته . قال : لا أصنع شيئاً إنما أصلى وأذكر الله . قال : فحدثني عن دينك وعن إهلك هذا الذي تعبد به ، فأني لأراك تعكف على نخلتنا هذه الطويلة التي نعكف عليها ، ولا أراك تتقدم إليها كما تفعل بالعبادة والتكريم . قال : وما نخلتكم هذه الطويلة ؟ وأين تقع من العبادة والتكريم ؟ ! وإنما هي نخلة كغيرها من النخل ، تختلف عليها الأحداثُ والحطوب ، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضرراً ، ولو دعوت الله عليها لأراكم فيها ما تكرهون . قال : فافعل ! فإنك إن تبلغ ما تريد ، دخلنا جميعاً في دينك . هنالك دعا كيمون ، وإذا ربح عاصفة تُقبل فتقتلع النخلة اقتلاعاً ، وتجتثها من أصلها اجتثاثاً . هنالك آمن السيد بدين العبد ، وأقبل أهل نجران على هذا الشيخ يسألونه ويتعلمون منه . ولم ينقض النهار حتى كان كيمون قد هدى المدينة كلها إلى دين المسيح . وكذلك استقرت النصرانية في بلاد العرب . وهم أهل المدينة أن يكرموا كيمون ويكبروه ، ويتخذوه لهم سيداً وإماماً ، ولكنه كره ذلك وتفر منه ، وفر بدينه من المدينة كما فر به من الدير ، وكما فر به من القرى . فخرج مهاجراً حتى بعث عن العمران وابتنى لنفسه في الصحراء خيمةً أقام فيها ما شاء الله أن يُقيم ، منقطعاً للعبادة والطاعة ، عاكفاً على الدين والنظر في الإنجيل . والناس يقدّمون عليه من نجران ومن حولها ، فيعلمهم ويبصرهم في دينهم ثم يصرفهم عنه في رفق حازم ، لا يرضى منهم لزوماً له ، ولا يقبل ما كانوا يحملون إليه من ضروب الهدايا .

وعظم أمر المسيحية في نجران ، حتى لم يبق من أهلها الوثنيين رجل ولا امرأة ولا غلام ولا فتاة إلا دخل في الدين الجديد ، واجتهد فيما كان يأخذه به من عبادة وتقرب إلى الله ، وحتى ضاق بذلك عدد يسير من اليهود كان مستقرًا في هذه المدينة ، يعمل فريق منه في التجارة وفريق آخر في الصناعة . فأخذ هؤلاء اليهود يجادلون نصارى نجران في دينهم ويشددون عليهم التكبير ، وينالون شيخهم ومعلمهم بالسنة حداد ، حتى اغتاظ لذلك النصارى فغضبوا لديهم . وكان بين فريق منهم وبين اليهود خصامٌ عظيمٌ شره بعض الشيء ، وارتفع أمره إلى ملك اليمن في صنعاء ، وهو الذى كان يُعرف بذي نواس .

وكان ذى نواس هذا قد نهض بملك آبائه من حمير ، بعد فتنة طويلة ملحّة ، فجدّ في جمع الكلمة وتوحيد الرأى ، وكان قد ورث يهودية أبيه تُبَعّ ، فحمل الناس عليها حملاً ، وأحيا سنتها ، وأنفق في ذلك نشاطاً عظيماً ، وأقام حكم التوراة بين أهل المدن وبين القبائل في السهل والجبل . ثم عاوده حلم أخيه حسان ، فأخذ يفكر في أن يثبأ للخروج من اليمن يهوديته لينشرها في الآفاق ، ويفرضها على أهل الشرق والغرب ولم يكن في قصره حبران كاللذتين كانا في قصر أخيه ، فلم يردّه أحدٌ عما كان قد فُهمّ به وثبأ له . وإنه لنى ذلك ، وإذا يهودى من أهل نجران أقبل مسرعاً مروّعاً حتى دخل صنعاء ، وانتهى إلى القصر ، واستأذن على الملك شاكياً باكياً مستغيثاً لليهود ، مستنجداً للتوراة . فلما أذن له ومثلاً بين يدي ذى نواس ، زعم له أن رجلاً من الروم أقبل في قافلة من

القوافل فأفسد نجران وما حولها ، وحمل المشركين من العرب والأعراب على دين المسيح ، وأن هؤلاء النصارى قد اعتزوا على اليهود وعلوا عليهم ، ثم بغوا وطغوا ، وأسرفوا في البغي والطغيان ، حتى أهانوا التوراة ونالوا من ذادَ عنها بالسوء ، وحتى قتلوا من اليهود نفراً ، وأخافوا من بقي منهم في المدينة .

وقد قدمت عليك أيها الملك فرعاً مُستصرخاً ، فلما نصرتنا، وإما حولتنا عن هذه المدينة ، التي لم يبق لنا فيها مقام .
قال الملك وقد أخذ منه الغضب وملكه الغيظ : أفتراى آذَنُ لغير اليهودية من الدين في أن يستقرّ ببلاد العرب وأنا عظيم حمير ، ووارثُ تبع ، وذو صنعاء؟! ثم آذَنُ في الجيش بالرحيل . وما هي إلا أيام حتى كانت نجران قد أحيط بها . ودعا الملك إليه جماعةً من قواده وعُظماء جنده ، فأمرهم أن يجمعوا له أشرفَ المدينة وأهلَ الرأي والمكانة فيها . فلما حشدوا له حشداً خيراً بين اليهودية والموت ، ولم يدعْ لهم مخرجاً من هذين الأمرين ، ولم يُمهلهم ليفكروا أو ليدبروا أمرهم بينهم . وما كانوا في حاجة إلى التفكير ، وما كانوا في حاجة إلى التروية ؛ فقد ملكت النصرانية عليهم قلوبهم وعقولهم واختلطت بدمائهم . فما أسرع ما أجابوا : أيها الملك ، إذا لم يكن بُدٌّ من الاختيار فإننا نختار الموت . فلما رأى الملك منهم ذلك أمرُ منادين أن يؤذّنوا في المدينة : ألا إن الملك قد خير أشرافكم بين اليهودية والموت ، فأثروا أن يموتوا ، فأبكم اختار اليهودية وأشفقَ من الموت فله أن ينحاز إلى الجيش . وطال نداء المنادين وتأذين المؤذنين

فلم ينحز إلى الجيش أحد. هنالك أمر ذو نواس فاحتفرت الأخاديد (١)،
وجمع فيها الحطب والخشب، وألقى فيها الزيت، وأضرمت فيها النار،
ودفع أهل نجران إليها دفعا. وهنالك أطلق ذو نواس أيدي حمير في
أهل نجران، ينالونهم بالقتل والمثلة (٢)، ويحتازون من أموالهم ونسأهم
ما يشاءون. وهنالك جرت الدماء أنهاراً، وانتثرت الأشلاء انتشاراً، وارتفع
اللهب إلى السماء، بنفوس الشهداء.

وفي أثناء هذا كله كان شيخ^٣ فان ضعيف قد خرج من خيمته
وأشرف من مكان مرتفع، فأخذ ينظر إلى النار ترتفع في السماء، وإلى
الدماء تجري على الأرض، وأخذ يسمع أصوات المصلين وهم يقبلون
إلى الموت، وأصوات المعتدين وهم يدفعونهم إليه، وأخذ يذكر عهداً
بعيداً، بعيداً جداً، ويستحضر صورة^٤ منكرة جداً، رآها أثناء الشباب
في مدينة من مدن البحر، جرت فيها الدماء، وانتثرت فيها الأشلاء.
واضطربت فيها النار، وصلى فيها الشهداء، وسخر فيها المعتدون. وأخذ
الشيخ ينظر إلى هذه الصورة البشعة أمامه، ويرى تلك الصورة البشعة
وراءه. ويُقارن صورة إلى صورة، ثم تحدث إلى نفسه في صوت هادئ
رقيق: لقد ضاقت نفسي الشابة بتلك الصورة ففررت من المدينة وخرجت
إلى الله عن أهلي ومالي. وما كانت الحياة قد هيأت لي من لذة وأعدت
لي من نعيم وإني لأنظر إلى هذه الصورة فأحبها وأشتها وأفتن بها

(١) الأخاديد : جمع أخدود ، وهو شق مستطيل في الأرض .

(٢) المثلة (بفتح وضم الثاء أو سكونه) : العقوبة .

وأدفع إليها . . . ماذا !! لقد انحسرت عنى الشيخوخةُ انحصاراً ، وارتفع
عنى الضعفُ ارتفاعاً ، وأصبحتُ شاباً قوياً شديداً النشاط كما كنتُ
منذَ أكثرَ من خمسين عاماً . . . ماذا ! إن هذه النار المضطربة لتعجبني ،
وإن هؤلاء الذين يُقبلون إليها ليدعونى . . . ماذا ! أرى هذه النار ولا
أسرع إليها ، وأرى هؤلاء الناس ولا أدخل فيهم . إني لأجیلُ طرفي في
السماء من أمام ومن وراء . . . ماذا ألتمس ! لن أرى آلهة اليونان كما
رأيتهم من قبل ينظرون ثم ينكرون ثم يرتحلون . إنما كان آلهةُ اليونان
باطلاً كلهم . . . وقد مات الباطل وما ينبغي له أن يبعث من جديد . ثم
يسعى كيمنون هادئاً متهدداً ، حتى إذا دنا من النار استحال سعيه عدواً
واتثاده حركةً عنيفةً ، وإذا هو ينضمُّ إلى الناس ، وإذا صوته يمتزج
بأصواتهم ، وإذا هو يدخل معهم في هذا الموت ، ليصل معهم بعد ذلك
إلى دار الخلود . . .

قلت لمحدثي : وكم كان عدد الشهداء من أهل نجران ؟ قال :
تحدثت الناس أن ذا نواس أفنى منهم قريباً من عشرين ألفاً ، وأن رجلاً
واحداً جدد في الهرب حتى أعجز الطالبين ، فنجا ومعه إنجيل قد مسته
النار ، فانطلق به إلى النجاشي يستعينه على النار . وكانت هذه القصة
آخرة الملك الحِميري ، بل آخرة الملك العربي في بلاد اليمن .

راهب الإسكندرية

أقبل أهل الدير على راهبهم الجديد يُحدِّثونه ويسمعون منه ، وكان شيخاً قد تقدمت به السن ، ولكنه احتفظ بقوة ونصرة قلما يحتفظ بهما الشيوخ إذا قاربوا السبعين . وكان وضيء الوجه ، مُشرق الجبين ، مُنطلق اللسان ، عذب الحديث في يونانيته الإسكندرية . وكانت تظهر على وجهه وفي حديثه آثار النعمة والغنى ، وحياة الرجل الذي لم يذُق بُوساً ولا فقراً ولا هواناً . وكان قد أقبل على هذا الدير الصغير الذي كان يقوم في طرف من أطراف الصحراء مما يلي الشام ، حيث تمر القوافل الآتية من بلاد العرب والذاهبة إليها . وكان مقدّمه على الدير حديثاً لم تمض عليه إلا أيام قليلة .

وكان قد أقبل يحمل مالا كثيراً فيه ذهب وفضة ، وفيه جوهر وعروض فلما بلغ الدير استأذن على رئيسه فأذن له . وهناك قدّم إليه ما كان يحمل من المال وقال : اتَّخذ من هذا المال ما تُصلح به أمر الدير وأهله ، فإن بقي منه فضلٌ فأنفقه في وجوه الخير والمعروف ؛ فإنني قد خرجتُ لك عنه كما خرجتُ لله عن لذات الحياة كلها ، ووقفتُ ما بقي لي من العمر على الطاعة والعبادة والتفكير في الدير ، ولستُ أسألك إلا أن تؤويني في

هذا الدير . لأنقطع إلى عبادة الله وانتظار أمره . قال رئيس الدير : أما أنت فقد قبلناك على الرّحب والسعة ، وما ينبغي لنا أن نردّ طارقاً يريد أن يشاركنا فيما نجن فيه من ذكر الله والإحسان إلى الناس . وأما مالك فإننا نقبله شاكرين لله أن ساقه إلينا ؛ فإنّ حاجتنا إلى المال في هذا المكان المنقطع الذي نحن فيه لا تنقضي . وسترى أنّ أيامنا وليالينا لا تخلو من هؤلاء الطارقين الذين تنقطع بهم سبل الصحراء فتؤويهم ، ونعينهم ونحملهم ، ونبدل ما نملك من الجهد لنبلغهم ما منهم . والناس يُعينوننا على هذا المعروف بالقليل والكثير ، فنقبل منهم ما يبذلون وننقله فيما ترى . ثم أوصى به أهل الدير من علمه ما للجاعة من نظام . فلم يكد يمضي بينهم أياماً حتى ألفوه وكلفوا بحديثه ، وعلموا أنّ عنده شيئاً ، وأنه ليس كغيره من هؤلاء الذين تدفعهم قوة إيمانهم أو يدفعهم بأسهم مما كانوا يبتغون من المنافع والآمال أو اللذات إلى الدير . إنّما كان رجلاً فذاً تدل مظاهره وأحاديثه على أنّ له نبأ لا كالأنباء وأملاً لا كالآمال . فأخذوا كلما فرغوا من أعمالهم وطعامهم وصلاتهم حين يُقبل الليل ، يُطيفون به . ويسمرون معه ، فيتحدثون إليه ويستمعون له . وهم في هذه الليلة يسألونه عن أمره : كيف انتهت به الحياة إلى الدير ، وكيف طابت نفسه عن هذا المال العريض والثراء الضخم فنزل عنه كما ينزل عن أيسر الأشياء ؟ قال : إنّ قصتي لا تخلو من عجب . وقد تسمعونها فتتكرون منها الشيء الكثير ، ولكني مع ذلك سأحدثكم بها لا رغبة في أن أثير العجب في نفوسكم ، ولا في أن أعينكم على إنفاق الوقت ، ولكن نصحاً

لكم وإشفاقاً عليكم ؛ فقد أرى أن أمرى يثير في نفوسكم حُبّاً للاستطلاع قوياً متصلاً ، يُوشك أن يصرفكم عن بعض ما ينبغي أن تفرغوا له . وما أريد أن أكون مصدرَ خطيئةٍ مهما يكن أمرها يسيراً .

ثم أطرقَ غيرَ طويلٍ كأنه يفكر ويستحضر أولَ قصته ، ثم قال : كنا ثلاثةُ شركاءٍ نُصرفُ بين أرجاء الأرض العريضة تجارةً واسعة . وكنا قد اقتسمنا الأرضَ بيننا أثلاثاً ، فرغ كل واحد منا لواحد منها يدبّرُ شأنه ، ويصرفُ التجارة فيه إيراداً وإصداراً . وكنا نلتقى من حين إلى حين ليلتقى بعضنا إلى بعض ما انتهت إليه تجارتهُ من ربح ، ولننظم فيما بيننا أمرَ هذه الثروة التي كانت تنمو فتسرع في النمو ، وتطرّدُ زيادتها الغربية من عام إلى عام . وكان أحدنا قد اتخذ مستقرّه في روما يدير منها تجارةَ القسم الغربيّ من الأرض . وكان الآخر قد اتخذ مقامه في قسطنطينية يُدير تجارة هذا القسم من أقسام الدولة في بلاد اليونان وتراقيا وما إليها حتى يصل إلى بلاد السيتين . وكنت أنا قد اتخذت الإسكندرية لي داراً ، وكنتُ من أهلها .

وكانت إلى تجارة الهند وهذه البلاد التي يسكنها البدو ، والتي تسيرُ منها القوافلُ فتخترق الصحراء على ظهور الإبل والتي يسمونها بلاد العرب . وكانت تجارتنا الواسعةُ تضطرنا إلى علم دقيق بأمور الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وبأمور الأقاليم والأقطار ، وما تستطيع أن تُعطي وما تستطيع أن تأخذ . وكان هذا العلمُ يدفعنا إلى نشاط شديد عند رجال المال والزراع . وإلى اتصال شديد برجال الدين والسياسة والحكم . فأما

صاحبي في قسطنطينية فقد كان واسع الحيلة حسن المدخل إلى نفوس الناس ، حتى استطاع أن يجعل لنفسه في بلاط قيصر مكاناً ممتازاً . وأستطيع أن أقول : إني جَهدتُ ووفقتُ في الجهد حتى كان حُكامُ مصر وبطارقتها وقادتها أصدقاء لي ، لا يكاد أحدهم يصل إلى الإسكندرية حتى تنشأ بينه وبينى أسبابُ المودّة والألفة ، وما هي إلا أن أصبح من خاصته وأصفيائه المقربين . ولم يكن صاحبنا الغربيُّ أقلَّ منا مهارةً ، ولا أضيّقَ منا حيلةً في التعرف إلى من في الغرب من العظماء ، والسادة ومن الأشراف والملوك .

وكانت أمورنا تجري على خير ما نحب ، إلا من ناحية واحدة كانت تُكلفنا عناءً وجهداً لا آخر لها ولا غناءً فيهما . وكانت هذه الناحية هي ناحيتي أنا ؛ فقد كنا نلقى مشقةً وعناءً في تدبير تجارة الهند والشرق ، لا نستطيع أن نصل إلى مصادرها ولا أن نأخذها من أهلها ، لبعدها الشُّقّة وضعف الأداة وانقطاع سلطان الدولة عند الصحراء . فكنا نلقى هذه التجارة كما يتلقاها الناسُ الآن من هذه القوافل التي تحملها إلينا ، فتقطعُ بها الصحراء وتُنْفِقُ في ذلك من الجهد ، وتحتملُ في ذلك من المشقة ، وتبذلُ في ذلك من النفقات ، ما يدفعها إلى أن تُتغالي في البيع ، وتشتط فيما تطلبُ من الربح . وكنا نُدعِن لشططها كما يُدعِنُ الناسُ الآن ؛ لأننا لم نكن نجد كما لا يجد الناسُ الآنُ بدءاً من هذا الإذعان . وكنا نسعى في بلاط قيصر وعند حكام الإسكندرية ونُلحُّ في السعي ، نريد أن نحمل الدولة على أن تبذل شيئاً من الجهد لتبسط

سلطاننا على الصحراء أو على البحر ، فلم يكن سعيها ينتهي إلى شيء .
وإنا لنرى ذلك ، وإذا فرصة تسنح وظروف تتهيأ ، ما كنا لنحسب لها حساباً .
وما كان ينبغي لنا أن نهملها وقد سنحت وأمكنتنا من العمل .

أقبلت سفينة البريد ذات يوم من قسطنطينية وفيها رسول أرسله
صاحبى إلى ينبثى بأن كتاباً ذا خطر قد أرسل إلى الحاكم ، ويتقدم
إلى (١) فى أن أتلف حتى أعرف من أمر هذا الكتاب ما يعنى تجارتنا ،
وإلا أقصر إذا عرفت ذلك فيما ينبغي أن أتخذ من الوسيلة لتستفيد تجارتنا
أعظم الفائدة .

فلما قرأت هذا الكتاب عرفت بما فيه ، ولم ألبث أن زرت الحاكم ،
ولم أنصرف عن مجلسه ، حتى علمت جلية الأمر ، وحتى قدرت لتجارتنا
نموماً لا حد له . ذلك أن السفينة كانت تحمل إلى الحاكم كتاباً من
ديوان قيصر ، يأمره فيه أن يهيئ أسطولاً لا يقل عن مائة من السفن
ليبحر إلى بلاد النجاشى ، وعرفت أن مصدر هذا الأمر إنما هو اعتداء
اليهود فى أقصى البلاد العربية على إخواننا فى الدين ، وتحريقهم بالنار ،
وأخذهم بألوان العذاب ، حتى بلغ الدين قتلوا منهم عشرين ألفاً أو
يزيدون . وقد لقيت عند الحاكم أنخاً لنا فى الدين من أهل تلك البلاد ،
قد استطاع أن يفلت من اليهود ومعه مصحف من مصاحف الإنجيل قد
مسته النار ، فلجأ إلى النجاشى يطلب منه الغوث ، وأظهر للنجاشى
حفيظةً وغضباً للدين ، ولكنه عجز أن يغيثه ؛ لأن جنده على قوته

(١) تقدم إليه بكذا أو فى كذا : أمره به وأوصاه .

وكثرته لم يكن يستطيع أن يعبر البحر إلا على السفن ، ولم يكن عند النجاشي من السفن قليل ولا كثير .

هنالك أرسل النجاشي هذا العربيَّ النصرانيَّ إلى قيصر يستنجده ويستعينه ، ويطلبُ إليه السفنَ لتجيزَ جيشه إلى عدوة^(١) اليمن . ولم يكد قيصرُ يرى مصحفَ الإنجيل وقد مسته النار ، ولم يكد قيصرُ يسمع قصةَ النصاري وقد نُحِدَّتْ لهم الأنخاديدُ وحُرِّقوا فيها تحريقاً ، ولم يكد قيصر يسمع قصة ذلك القديس اليوناني الذي حمل إلى العرب دين المسيح ، فذاقَ في سبيل ذلك الموت محرقاً بتلك النار التي حرَّقت غيره من المؤمنين ، حتى ثارت حفيظته وموجدته ، وأمر من فوره أن يُكتبَ للحاكم الإسكندرية في تسيير هذا الأسطول مهما يكلفه ذلك من النفقات .

فلما عرفتُ من الحاكم ومن هذا العربي جليَّة الأمر لم أطل التفكير ، وإنما عدتُ إلى الحاكم بعد ساعات وقلت له : لا عليك ! إني أريد أن أنهض بهذا الأمر ، وأن أجدَّ فيه وحدي ، وأن أريح الدولة مما قد تتكلف في سبيله من الجند والمال والمشقة . فهذا النجاشي لا يريد إلا سفناً تجيز جنده إلى اليمن ، فدعني أهيب هذه السفن . قال الحاكم وهو يتسم : لا أرى بذلك بأساً ؛ فهو يُريح الدولة ، وهو ينفعك وينفع صاحبك ؛ فما أرى أن هذه السفن ستعود فارغة ، وما أرى إلا أن قوافل الصحراء ستعب في عبورها إلى الشام في العام المقبل ، وما أرى إلا أن

(١) العدة : الشاطئ .

أهل البادية سيحسون لذع الجوع . قلتُ : وإن أهل مصر والإسكندرية
سيجدون الثروة والغنى إنُ وفقنا في هذه الرحلة ، وإن أصحاب هذه السفن
إن عادت سالمة موفورةً . سيعرفون للدولة ورجالها ما ينبغى من الحق

قال الحاكم : فهو ذاك

ولست أستطيع أن أصور لكم تلك الخواطر التي لم تكن تحصى والتي
كانت تضطرب في نفسي اضطراباً كاد يذهلها عن كل شيء . فقد
كنت أرى نفسي قائداً عظيماً على رأس أسطول ضخم ، يُبعدُ في البحر
ليرفع أعلام قيصر على أرض لم تبلغها جنودنا من قبل . وكنت أرى نفسي
سائحاً عظيماً يسجل في كل يوم ما شهد وما رأى من غرائب البر والبحر ،
ومن أطوار الناس وضروب الحيوان والنبات . وكنت أقارن بين نفسي
وبين إكسينوفون ، وأرى أن الكتاب الذي سأكتبه عن هذه الرحلة
لن يكون أقلَّ جمالا ولا روعة ولا خطراً من كتاب إكسينوفون بعد أن
عاد من رحلته المشثومة . وكنتُ أرى نفسي ثائراً للدين ، منتقماً للنصرانية ،
مؤيداً للمسيح ، ظافراً بإكبار القسس والرهبان والبطارقة في جميع أقطار
الأرض . ثم كنتُ أرى نفسي بعد هذا كله مُثرياً عظيماً قد ملك البحر ،
وقاد مائة سفينة فارغة ، ثم عاد بها مثقلةً بنخير ما تنتج الهند وبلادُ العرب
السعيدة وبلادُ الأثيوبيين من ضروب التجارة والعروض ، حتى إذا
اتهى إلى مصر نشرَ تجارته هذه في الشرق والغرب ، وغمر الأرضَ
كلها بهذه البضاعة فيسرَّ على الناس من أمرهم كل عسير ، وأتاح
للأغنياء المترفين والفقراء والبائسين من وسائل الترف واللذة ما لم يكونوا

يحملون به ، وربح من هذا كله ما لا لم أفكر في إحصائه وتقديره ، لأن ذلك كان يسلط على رأسى شيئاً من الدوار لم أكن أستطيع أن أثبت له .
ومنذ ذلك اليوم أعرضتُ عن كل شيء إلا تدبير هذه السفن وتهيتها للرحيل . فما أكثر ما اشتريتُ من سفن ، وما أكثر ما ابتنتُ منها ، وما أسرع ما بثتُ أعوانى في أقطار مصر يجمعون لى من أنواع التجارة والعروض ما كنت أريد أن أحمله ! فلم تطلبُ نفسى عن ذهاب السفن فارغة إلى بلاد النجاشى . ولم تمض ستة أشهر حتى أقلع الأسطول العظيم بعد أن بارك عليه رجال الدين ، وبمشهد حافل من رجال السياسة والأعمال ، ومن جماعات الشعب الذين كانوا ينظرون إلينا مبتهجين مستبشرين ، والذين لم يملكوا أنفسهم أن دفعوا فى الجو صيحة هائلة ملؤها البشرُ والإعجاب حين اندفعتُ سفننا تشقُ عباب الموج . وقضينا فى البحر أياماً طويلاً تطيب لنا الريحُ أحياناً ، وتنكر لنا فيها أحياناً أخرى . ونحن على كل حال مبتهجون مستبشرون ، نستمتع بما نرى من جمال الطبيعة فى هذا البحر الذى لم يألفه اليونان ، ولم يُذلوهُ لسفنهم بعدُ .
لستُ أريد أن أسوءكم بأن أصور لكم حياتى فى تلك الأيام التى قضيتها قائداً عظيماً للأسطول العظيم ، والتى كنتُ أراها أسعداً ما كان ينتظر الإنسان من دهره ، فأصبحت أراها الآن أيام شقوة ونقمة وتعَس ، وأستغفر الله جاهداً مما حملتُ فيها من أوزار وأثقال . وأعتقد أنى مهما أتكلّف من مشقة فى العبادة ، ومن حرمان فى ذات الله ، فلن أكفّر عن بعض ما جنيتُ فيها من إثم وذنب . وحسبى أن تعلموا أنى كنت

كغيرى من أهل طبقتى ومنزلتى فى الإسكندرية وغيرها من المدن التى كانت تزهر فيها الحضارة ، ويسود فيها سلطان الفلسفة والعلم ، رقيق الدين ، قد اتخذت من المسيحية ستاراً لا يكاد يُخفى ما بقى لى من عادات آبائى الوثنيين . فقد كنت أحب اللذة وأتهالك عليها ، وقد كنت أبسط سلطان عقلى على كل شىء ، فின்றى بى إلى الشك فى كل شىء . وكنت أحب وثنية اليونان القدماء ، ولكنى لأومن بها ، وأتكلف مسيحية اليونان المحدثين ، ولكنى لا أطمئن إليها . وكنت قد اتخذت لنفسى ديناً قد اتخذته أشرافنا وسادتنا لأنفسهم فى هذه الأيام . وقوام هذا الدين الشك فى كل شىء ، والإيمان باللهين اثنين ، هما اللذة والغنى . وعلى اللذة والغنى وقفت حياتى فى الإسكندرية ، وعلى اللذة والغنى وقفت حياتى حين كنت قائداً عظيماً لأسطول عظيم . فكم استصحبتُ من القيان والمغنين والشعراء والمضحكين ؛ وكم حملت من الكتب والنبيذ ! وكم أنفقت من الحيلة لأتخذ من ألوان الزهر والشجر ما يستطيع الاحتفاظ بجماله ونضرتة على بعد العهد واختلاف الجو والإقليم ! وتستطيعون بعد ذلك أن تصوروا لأنفسكم كيف قضيت تلك الأيام الطوال منذ أبحرت من مصر إلى أن بلغت بلاد الأثيوبيين .

هنالك استقبلنا الناس استقبال الفاتحين الظافرين ؛ فقد كانوا يتحرقون غيظاً على هذا الملك العربى اليهودى ومن حوله من اليهود . وكانت قلوبهم تدمى حزنأ على إخوانهم المسيحيين الذين فُتنوا عن دينهم ، واستشهدوا فى سبيل هذا المسيح . ولم تكن النار التى كان يُثيرها الغيظُ

والحزن في صدورهم أقلّ من النار التي أذكاها ذلك الملك العربيُّ اليهودي وحرّق فيها إخوانهم في الدين . وما أظن أن أحداً كره البحرَ وضاق به ، وتمنى لو غار ماؤه والتقى ساحلاه ، كما كره أولئك الناس بحرهم ذلك الذي كان يحول بينهم وبين عدوهم من اليهود . على أننا أنفقنا أياماً قبل أن نجيز بالهند إلى بلاد العرب ؛ فلم يكن بُدٌّ من أن ألقى الملكَ وأقدمَ إليه تحيةَ قيصرٍ وهديته . ولم يكن بُدٌّ من أن أصرف تجاربي وأستوثقَ لما حملتُ من العُرُوض .

وما هي إلا أيامٌ حتى كانت السفنُ قد شحنت بالهند وما يحتاج إليه منُ عدةٍ وسلاحٍ وفيّلةٍ . ولم يكن عبورُ البحرِ عسيراً ، ولم يكن النزولُ إلى أرض اليمن شاقاً ، ولم يحتاج الهند إلى كبير قتال ؛ فإن الملكَ العربي لم يكدرى هذا الجيشَ الضخمَ مجهزاً بما كان قد أُجهز به من العدةِ والسلاح ، ولم يكدرى هذه الفيلة المروعة المخيفة حتى نخاف وارتاع ، ووجه فرسه نحو البحر فاقتمحه ولم يعرف الناسُ له خبراً . وتفرقَ من كان حوله من الهند وعلى رؤوسهم أقبال اليمن وأذواؤها . وتخلصت الطريقُ لنا إلى صنعاء ، فدخلناها ظافرين ولم نلقَ كيداً . ولم نستقر في صنعاء حتى وجهنا الهند إلى تلك المدينة الشهيدة فبلغها بعد أيام ونرى من آثارها وأطلالها ما يمزق الأفتدة ويذيب النفوس .

فما أسرع ما يعمل الهند ! وما أسرع ما يُسخّر اليهود ! وما أسرع ما تُقام المدينة ! وما أسرع ما تُقام فيها البيعُ والكنائسُ ! وما أسرع ما يُنادى في الناس أن مدينةَ المسيح قد رُدت إليه وأن أهلها الذين

فرقهم الخوفُ آمنون ! وما أسرعَ ما نُحمل كثيرَون من أهل اليمن على النصرانية حملاً ! وما أسرعَ ما دخل كثيرٌ من أهل اليمن في النصرانية راغبين أو راهبين ! ونعود إلى صنعاء وقد ثأرنا للدين ، وأقمنا نجران على خير ما كان ينبغي أن تقام عليه مدينةٌ من المدن .

وأخذتُ بعد ذلك أفكر فيما ستُشحنُ به السفن من التجارة والعروض وجعلتُ أتتبعُ لذلك وأهيبُ له . وتحدثتُ فيه إلى قائد الجيش فلم يمانعني ولم يابَ عليّ ، بل تقدّم في ذلك بخير ما أحب . ولكنه طلب إلى الأعداء بالعودة بالسفن كلها إلى مصر ، فقد تظراً الطوارئ وتعرض الأحداث ويحتاج جنودُ اليمن إلى العبور إلى بلادهم ، أو يحتاج أهلُ الحبشة إلى العبور إلى إقليمهم الجديد ؛ فلا بدّ لهم من سفن وإن تكن قليلة يستعينون بها على مثل هذه الشؤون . فدعّ لنا بعض أسطولك ونحن نعوضك عنه بما شئت من المال والعروض .

وكذلك تمّ الاتفاقُ بينه وبينى على أن أنزلَ له عن ثلث الأسطول وأعود بثلاثيه وقد حملتها ما استطاعت حمله من تجارة تلکم الأقطار . ويتم كلّ شيء ، وتُقلع سفن الأسطول كلها إلا سفينة القائد العظيم ؛ فإنها تنتظر أن أصل إليها لتأخذ طريقها إلى مصر . ولكنّ حدثاً يحدث فيغير كلّ شيء ، ويقطع بينى وبين الأسطول كل سبب ، ويصرفنى عن التجارة كارها أعواماً طويلاً . ماذا أقول ! بل يصرفنى عن نفسى أعواماً طويلاً . فقد كان قادةُ الجند منذ استقرّ لهم الأمر في هذا الإقليم الجديد يختلفون بينهم اختلافاً شديداً : أيكثفون بهذا الفتح الذى وفقوا له ،

وهذا الثأر الذى ظفروا به ، فقد أرضوا الملكَ حين بسطوا سلطانه من وراء البحر ، وأرضوا الله حين انتقموا لعباده الشهداء ، أم يحملون الناس على دين الملك حملاً ، ويمحون اليهودية والوثنية من هذه الأرض محوآ؟ فأما قائد الجيش أرياط ، فقد كان صاحب سياسة وكيد ، وكان يرى الرأى الأول ، وينظر إلى هذا الإقليم على أنه مستعمرة قد ضُمتْ إلى أملاك النجاشى ، فيجب أن تُستغلَّ أرضها وأن يستدل أهلها ، ويُسخَّرُوا لخدمة سادتهم الفاتحين . وأما غيره من زعماء الجيش ، ولا سيما عظيمهم أبرهة ، فقد كانوا أصحاب نسك وطاعة ودين ، وكانوا يضعون النصرانية فى المكان الأول ، ولا يكادون يحفلون بالسياسة واستعمار الأرض . وكانوا يريدون أن يفرضوا النصرانية على اليمن فرضاً ، وتقدموا فى ذلك إلى قائدهم أرياط ، فأعرض عنهم وأبى عليهم . وما هى إلا أن ينقضوا عليه الجيش ، وما هى إلا أن ينظر الرجل فإذا هو مضطر إلى أن يضرب بعض الحبشة ببعض . ويعجبنى أنا ما أرى ، فأبقى لأشهد عاقبة هذا الخلاف . ولست أدرى كيف استحالت مسيحيتى الدقيقة إلى إيمان قوى متين . والحق أنى سألت نفسى فأطلت السؤالَ عن مصدر هذا التبديل الذى أخذتُ أحسُّه منذ وطئت قدمائى أرض اليمن . وأكبر الظن أن منظر تلك المدينة البائسة التعسة ، وما كان قد أصابها من الخراب والدمار ، لأن أهلها ثبتوا على دينهم ، ثم ما نالها فى وقت قصير من التجديد وال عمران ، لأن قوماً آخرين قد أرادوا أن يثأروا لدينهم — أكبر الظن أن هذا كله قد أثار فى ضميرى على غير شعور منى إعجاباً

بقوة هذا الإيمان الغريب الذي يحمل ألوفاً من الناس أن يستقبلوا الموت ويتهافتوا في النار فرحين مُبتهجين كأنهم الفَرَاش ، والذي يمحوا مدينة من الأرض محواً . ثم يُقيمها ربيعة العمد ، شاهقة البنيان ، معمورة بالناس . كأن الدهر لم ينلها بمكروه . فانصرفت نفسى شيئاً فشيئاً عن هذه الحياة التي كنتُ أكبرها والتي أصغرها هؤلاء المؤمنون . ومهما يكن من شيء فقد أخذتُ أحس حباً لهذه الأرض الحديدية ، وميلاً إلى البقاء فيها . عطفاً على هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يُعلوا كلمة الحق ، ويأخذوا الناس بدين المسيح راضين أو كارهين .

وإني لفي هذا كله وقد اشتد الأمرُ بين الجيشين المختصمين ، وإذا رسولُ أبرهة يُقبل على أرياط ليلبغه أن صاحبه يكره أن يقتل الجيشان وأن تُسفك دماء الأبرياء . ويقترح عليه المبارزة ، فأيهما ظفر بصاحبه كان الأمرُ إليه . فيرى أرياط في هذا الاقتراح قصداً ورفقاً وإنصافاً ، فيقبله ويوجب إليه . ويزدادُ في نفسى الحرصُ على البقاء لأشده عاقبة الأمر . وقد شهدتها فأكبرتها : التي انحصان وبتطش أرياط بعلوه ، ولكن الحربة لم تقتله وإنما شقت جبهته وأنفه وشفته . ويُسرع عبدُ لأبرهة فيضرب أرياط فيرديه . وتجتمع الحبشة على هذا الزعيم الذي كان يريد أن يكسب أهل اليمن لدين المسيح .

هنالك وقع في نفسى أن هذه العاقبة ليست من عمل الإنسان ولا من المصادفة ، وإنما هي شيء قضاه الله لأمر يُراد . فتشتد في نفسى الرغبةُ في أن أطيل البقاء بهذه الأرض لأشهد الصراع المحتوم بين المسيحية من

ناحية . واليهودية والوثنية من ناحية أخرى .
وكنْتُ مع ذلك أنزعُ نفسي نزاعاً شديداً . ولكني لم أكد أتحدث
إلى أبرهة حتى استقر رأبي على البقاء ، فأرسلتُ رفيقاً لي إلى سفينة
القائد ليَتَقَدِّمَ بالأسطول على مصر ، وقد أوصيته ، وأحكمتُ أمرى
له إحكاماً . ثم أبقى لأرى ما كان الله قد قدَّر لي أن أراه .
وهنا أذَّن مؤذِّن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حُجراتهم ،
فتفرَّقوا ، وكم كانوا يودُّون لو مُدَّت لهم أسباب السمر والحديث .
وأنفق أهلُ الدير بقيةَ ليلهم بين جاهد في العبادة ، ومُغرق في النوم
وأنفق أهلُ الدير بياض نهارهم بين مصلِّ لله ، ومُحسنٍ إلى الناس . فلما
جَنَّتْهم الليلُ وهدأت من حولهم الأشياء واتَّخذت الصحراء جلالها الرهيب ،
عادوا إلى مجلسهم يَسْمُرُونَ ، وسألوا أصحابهم أن يتمَّ عليهم ما بدأه أمس
من الحديث . فقال : تمت عزيمة بعد طول التردد والتفكير على الأوبة
إلى مصر . وانتصر في نفسي حب الوطن على حب هذه الأرض الجديدة ،
وظهر في نفسي حبُّ اللذة والغنى على هذا الميل الجديد إلى النسك والجهاد
في سبيل المسيح . فأقبلتُ على أبرهة من الغد أودِّعه قبل الرحيل . ولكني
لم أرَ قائداً ظافراً ، ولا ملكاً منتصراً ، ولا رجلاً يزدهيه الفوزُ ويُبجِّي
نفسه الأمل . وإنما رأيتُ رجلاً متهدماً محزوناً كئيباً ، قد فكر حتى عجز
عن التفكير ، وقدر حتى أعياه التقدير ، فأسلم نفسه لقضاء الله فيه ،
كأنه الغريقُ أعيته مكافحةُ الموج ، فاستسلم له وانتظر الموت . ولم أكد
أتحدث إليه حتى عرفتُ مصدرَ ما هو فيه من همٍّ وغمٍّ ، ومن كآبة وبؤس

فقد كان مستيقناً أنه أغضبَ الله ، وأحفظَ الملك ، وأساء إلى الناس .
ألم يكن قد بغى على قائده واعتدى عليه في غير حق ولا إذعان لما تقدم به
الملك إلى الجند من الطاعة لقائده والنصح لخليفته فيه ؟ فكيف استباح
لنفسه أن ينتصفَ لرأيه بيده ، وأن يفرضَ هذا الرأي على الجند فرضاً ،
لا يرجع في ذلك إلى أمر من الملك ، ولا ينتظر في ذلك رأى الملك بعد
أن يرفعه إليه ! وكيف استباح لنفسه أن يقتل رجلاً من النصارى ويسفك
دمه ظلماً وبغياً ، لا لشيء إلا لأنه لم يوافقه في الرأي ، ولم يشاركه
في الهوى ! وقد كان هذا الرجل مع ذلك نصرانياً مثله يؤمن بالمسيح
ويُصلّي لله ، وقد ثار للدين من عدوه ، وردّ المطرودين من النصارى إلى
وطنهم ، فأمنهم وأظلمهم بسُلطان واسع رفيق من الرحمة والعدل والإنصاف !
ثم هو لم يقف من العدوان والإثم عند هذا الحد ، ولكنه ابتهج بما
أُتبع له من الانتصار والظفر ، فلم يكذب يري خصمه صريعاً تحت قدميه
حتى التفت إلى عبده الذى قتل أرباط شاكراً له ، مُغرِقاً في الثناء عليه ،
قائلاً له : احتكمُ فأنا زعيمٌ لك بكل ما تريد . وقد احتكم العبد ، فأسرف
على نفسه وعلى مولاة ، وطلبَ إلى سيده أمراً عظيماً : طلبَ إليه أن يُحكّمه
في أبكار اليمن كافة ، فلا تُترفّ واحدة منهن إلى عروسها حتى تمرّ به قبل
الزفاف . ولم يشعر أبرهةُ بعظم هذا الأمر الذى طلبه إليه العبد ؛ لأن نفسه
كانت ثملة بهذا الفوز ، مُعرضة عن كل شيء غيره ، فأجاب العبدَ
إلى ما أراد ، ولم يقدر أنه عصى الله بهذا الإثم الذى اقترفه ، وأقدم على
إذلال أمة لم تعرف الذلّ ، وما كان لها أن تعرفه . ولكن أمر هذا العبد

لم يكذب يعرف في الناس حتى انتهى إلى نتيجة المحتومة ، فلم يحى العبد بعده يوماً كاملاً : لم يكذب يلقاه أول من عرف هذا النبأ من حمير حتى عدا عليه فقتله . فكان أبرهة إذاً حين لقيته متعباً مكدوداً ، مضطرب النفس ، حائراً غارقاً في ندم عميق . وجعلت أردّه إلى نفسه قليلاً قليلاً ، أجدّ لا في تهوين الأمر عليه فلم يكن أمره هيناً ولا يسيراً - بل في التقريب بينه وبين الرشد والصواب ، لعله يعود إلى التفكير والتقدير ، ولعلّ أستطيع أن أعينه على أن يجد لنفسه مخرجاً من هذا المأزق الذي اضطرّ إليه .

فقد كان عظيماً حقاً أن تذهب كل تلك الآمال والأمانى التي ملأت نفس هذا الرجل وأصحابه من قواد الجند ، ودفعتهم إلى ما دفعتهم إليه لينشروا كلمة الله ، وليديلو^(١) للنصرانية من وثنية الوثنيين ، ويهودية اليهود . وما زلتُ به ألاينه حيناً وأخاشنه حيناً آخر ، حتى هدأت نفسه بعض الشيء ، واستطعنا أن ننظر إلى الأمر في روية وتبصر ، وأقنعتنا بأن يبدأ بما لا بدّ من الابتداء به ، فيرضى هؤلاء الناس الذين أحفظهم وأثار في نفوسهم الحمية حين حكمهم عبداً من عبيده في أعراضهم وكرامتهم . وما هي إلا أن يسمع لي ويقبل رأبي ، وإذا هو يدعو إليه من حضره من أشرف حمير ، فيعتذر إليهم ويثني عليهم ، ويهنئهم بما أظهروا من عزة وإباء للضميم ، ويُقسم لو قد عرف نية العبد لما حكمه ، بل لاكتفى بما يكتفى به الناس في مثل هذه الحال . فأعتق العبد وأغناه وردّه إلى بلاد

(١) يقال : أدال الله فلانا من فلان إذا أغفره به وجعل الكرة له عليه .

الحبشة راضياً مسروراً . فأما وقد قتل هذا العبدُ نفسه فلا عليكم ولا على ،
فقد ظهر لي أنكم أحرارٌ كرام ، وسيظهر لكم أني حر كريم ، وأنّ المودة
بينكم وبينى لن تسوء ، ولكنها ستسرّكم وتقرّ أعينكم ، وستشعرون بأنى
لا أملك بلادكم لنفسي ولا للنجاشى مولاي ، وإنما أملكها لكم قبل كل
شئ ، أصلح من أمرها وأمركم مستعينا بكم على هذا الإصلاح ، فمن رأى
منكم أن يشير على بشئ فليفعل مشكوراً واثقاً بأنى سأقدرُ نصحه ،
وأسمعُ لمشورته ما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً .

وكان لهذا الكلام اللين الرفيق موقعه في نفوس هؤلاء الأشراف من
حمير ، الذين كانوا ينتظرون غضبَ أبرهة عليهم وانتقامه منهم . فلما رأوه
ملايناً مُحاسناً ، لا ينوه وحاسنوه ، وأظهروا ثقةً ورضاً واطمئناناً ، ووعدوا
بالنصح له والطاعة لأمره ، كما كانوا يفعلون مع ملوكهم من أبناء تُبَع .
وبالغ أبرهة في استرضائهم ، فأجزل لهم العطاء ، ونظم الصلة بينهم وبينه على
خير ما يحبون ، ثم خلا إلى فقال : لقد جئتني مودعاً فيما أذكر ؛ لأنك تريد
العودة إلى بلادك؟ قلت : نعم ؛ فقد طالت غيبتى عن الوطن والأهل والمال
قال : فإنى مع ذلك لن آذن لك في الرحيل . قلت : وما ذاك؟ قال :
ذلك أنك رددتني إلى نفسي وأشرت على فأحسنت المشورة ، وما أرى أنى
أستطيع فراقك منذ اليوم ؛ فأنا في حاجة إلى رأيك وتديرك ومعونتك
لى على ما سيعرضُ من الخطوب والأحداث ، وقد رفعت عنى بعض
الثقل ، وفرجت عنى بعض الحرج ، وأصلحت ما بينى وبين أهل هذه
الأرض . ولكن الملك واجدٌ على وناقمٌ منى ، ليس في ذلك شك ولا ريب

ولا بد من أن يُصلَح ما بيني وبينه على أي نحو من الأنحاء ، وليس لي غنى عن نصيحتك قبل أن تستقيم بينه وبينى الأمور . وهبها استقامت على ما أحبُّ وأهوى ، فإن بيني وبين نفسي خصومة عنيفة لا أقوى على حملها وحدي ؛ فأعني على نفسي ببقائك معي ، فإليك إن فعلت ، أن تعينني على أن أنفق حياتي في إصلاح ما بيني وبين الله ، بعد أن أثمتُ فأسرفتُ في الإثم ، وعدوتُ فأسرفتُ في العدوان .

وكنت كلما هممتُ أن أجيبه مضي في حديثه ملحاً فيه ، ولم يمكني من الكلام . وكان يقول : لقد أقدمتُ على ما أقدمتُ عليه من الأمر وإن في نفسي لآمالاً كباراً ؛ فلم أكن أريد أن أكسبَ هذه الأرض وحدها لدين المسيح ، وإنما كنت أريد أن أنشر هذا الدين في جميع هذه الأقطار التي لا تصل إليها أيدي الملوك . ولا ينبسط عليها سلطانُ قيصر وكسرى والنجاشي . فما يمنعك أن تعينني على ذلك ، وتشاركني فيما سأبذل فيه من جهد . وما سأحتملُ فيه من عناء ، وما سألقى عليه من أجر وجزاء ؟ ! وكان يقول : ولستُ أرى على تجارتك بأساً ، وإنما أرى لها الربح كلَّ الربح والنمو كلَّ النمو ؛ فما يمنعك أن تقيم هنا حتى تنظم الصلة بين بلادنا وبلادك ، فتكسبَ أنت . ونكسبَ نحن ، ويستفيدَ الناس جميعاً ! !

كل هذا الحديث المختلف أثر في نفسي وغير رأئي وعزيمتي ، وأغراني بالبقاء ، وفتح لي أبواباً من الأمل والنشاط لم أقدر قط أني سألجها في يوم من الأيام . فقد رأيتني محتكراً لتجارة الهند وبلاد العرب . ورأيتني وزيراً لملك إلا يكن عظيمًا الآن ، فسيكون عظيمًا من غير شك بعد وقت قصير .

ورأيتني سفيراً مُقياً لقيصرَ عند هذا الملك وعند النجاشي ، أستطيعُ أن أسير سياستهما فيما يُرضي مصالحَ الروم ومرافقهم وتفوقهم السياسي على عدوهم من الفرس . وما هي إلا أن أقبل الإقامة مع أبرهة ، ولو إلى حين .

وتمضي أيام ، وإذا أنباء النجاشي تصل إلينا مُخيفةً مُروعةً . فلم يكدر يعلم بما كان من اضطراب الجند وقتل قائده أرباط ، حتى أقسم لا يستقرُّ قبل أن يسفك دمَ أبرهة ويطأ أرضه . ويخلو إلى أبرهة للتشاور والتدبير ! فيتفق رأينا على أن نحل الملك من قسمه بحيلة من الحيل ، وفن من فنون المكر ؛ فإن أفلحنا فذاك ، وإلا نصبنا له الحرب وقطعنا ما بينه وبيننا من صلة . وأنتى ليده أن تمتدَّ إلينا والبحرُ بيننا وبينه ، والسفن خالصة لنا من دونه ؟ ثم يفتصد أبرهةُ ويضع دمه في قارورة ، ويملاً جراباً من تراب اليمن ، ويرسل دمه و تراب اليمن إلى الملك مُعتذراً إليه ما وسعه العذر ، مجدداً طاعته ، مؤكداً وفاءه قائلاً : « هذا دمي فليسفكه الملك ، وهذه أرضي فليطأها الملك ، تحلةً من قسمه ، وله عليّ بعد ذلك ألا أورد ولا أصدر إلا عن أمره ورأيه ورضاه ! » .

وقد أعجبت الملكَ حيلتنا هذه ، فيرضي عن قائده ويقره على عمله ، ونفرغ نحن لما كنا ندبر من الشؤون . وكانت عزيمة حقاً تلك الشؤون التي كنا ندبرها . فلم نكن نطمع في أقل من أن نرد إلى بلاد اليمن يُمنها القديم ، وثرأها الذي بعدُ صوته في الآفاق ، وفي أن نجعلها خالصة للنصرانية ، وفي أن تبسط سلطانها على بلاد العرب كافة . وكنت أداعب

في نفسي حُلماً لذيذاً ، لم يلبث أن أصبح أملاً تدفعنا إليه ظروف الحياة دفعا فقد كنت أفكر في أن أنشر سياسة قيصر وسلطانه مع دين المسيح ، وفي أن أصل بين ملك قيصر في الشام وحلفاء قيصر في اليمن ، وفي أن أخضع ما بين هذين القطرين من الأرض لسلطان إن لم يكن خالصاً لقيصر ، فهو شركة بينه وبين حليفه النجاشي ؛ وهو على كل حال مُعين لقيصر على عدوه كسرى . ولم أكن أصارح أبرهة بهذه الأحلام والآمال ، حتى اضطررتي الظروفُ إلى أن أصارحه بها ذات يوم ، حين أقبل السفراء من عند كسرى فأنبئتوا بأن الحرب قد شبت بين الفرس والروم وطلبوا إلى أبرهة أن يُعين على الروم بما يملك من قوة وتأييد . هنالك صارحت صاحبي ، ولم أجد مشقة في إقناعه برأيي وحمله على ما كنت أريد . ألم يكن يجمع بيننا وبينه الدين !

على أننا فرغنا قبل كل شيء لأمر اليمن ، فجددنا من عماراتها المتداعية ، وأقمنا سدودها المهتمة ، ونظمتنا مجارى الماء فيها تنظيماً حسناً ، واجتهدنا في نشر الدين ما وسعنا ذلك ، لانشق على الناس ولكن نأخذهم باللين والرفق ، وأقمنا كنيسة في صنعاء لم يعرف أهل هذه البلاد مثلها ضخامة وفخامة ، وجلالا وجمالا وزخرفاً : جلبنا لها المرمر من أطراف الأرض ، ودعونا لها العمال من قسطنطينية ، وحلبناها بالذهب والفضة والجوهر ، وحرقنا فيها من الطيب والبخور ما كان ينتشر عرفه إلى أماكن بعيدة حول صنعاء ، ورتبنا لها القسُس والأخبار ، ورجبنا الناس في أن يختلفوا إليها ويصلوا فيها . وقد رنا أن نقيم أمثالها في أماكن مختلفة من هذه

البلاد. ولكن العرب أهل وثنية ولجاج في الوثنية . كانوا يُكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويتفنون عنده المعروف . ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له . وكان الذين يختلفون إلى كنيستنا قليلين مهما يكثرُوا ، وكانوا جميعاً من ضُعفاء الناس وفقرائهم وأصحاب الحاجة منهم . على أننا لم نستئس وأخذنا نهي أمورنا ونرغب الوفود في طاعتنا ؛ حتى لقد دعا أبرهة إليه عظيماً من عطاء العرب في هذا الإقليم الذي يسمونه تهامة ، فأكرم مثواه وأعظم أمره . وتوجه ملكاً على قومه ، وردّه عزيزاً مكرماً .

وفي ذات يوم رُفِع إلى أبرهة أمران ضاق بهما أشد الضيق ، وخرج لهما عما قد ألف من الحلم والأناة . أصبح سدنة الكنيسة فرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم : رأوا كنيستهم قد لُطخت بالقاذورات ، وألقيت فيها الجيف ، وانتهكت حرمتها ، فثاروا بذلك ورفعوه إلى أبرهة ، وزعموا له أن هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من تهامة ، حيث يقوم لهم بيت هناك يقدسونه ويحجون إليه يسمونه الكعبة ، والعرب كلها تحج إليه وتعظم أمره ، وتعظم الذين يعيشون حوله من هذا الحي الذي يسمى قريشاً . والذي يتجر بين بلادنا وبلاد الشام .

فلما سمع الملك ذلك غضب أشد الغضب ، وأقسم ليهدم من هذا البيت وليحملن العرب على أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف ، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . ولم يكد النهار يتقدم حتى رُفعت الأنباء

إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذي أرسله إليهم ملكاً ،
فطار طائرُهُ ، وثار ثائرُهُ ، وأذّنَ من فوره بالتجهز للحرب والاستعداد
للرخيل ، وأرسل إلى النجاشي ينبئه بذلك ، ويسأله أن يمدّه بالجنود
والفيلة . وما هي إلا أيام حتى تهباً له جيشٌ ضخمٌ قوى ، وحتى فصلنا
عن صنعاء يملؤنا الأمل وتزدهينا الكبرياء . وكنت أتحدث إلى أبرهة بأننا
سنقطع هذه الطريق على طولها في غير مشقة ولا جهد ، وبأننا سنصل بين
الشام واليمن ، وبأنى سأستقبله ضيفاً في بلاد القيصر ، كما استقبلني ضيفاً
في بلاد النجاشي . وكان جيشنا يعظم ويضخم كلما تقدمنا في الطريق بمن
كان ينضم إلينا من أذواء اليمن وأقبالها .

ولكن طريقنا لم تخلُ مع ذلك من العقاب (١) ، ولم تكن أمناً كلها ،
فقد نصب لنا الحرب جماعةً من أقبال اليمن على رأسهم رجل يقال له
ذو نَفَرٍ ، غيرةً على وثنيهم ، وحفيظةً لبيتهم ذلك ، ودفاعاً عن حلفائهم
من قريش ، ولكننا هزمناهم في غير مشقة ، وأخذنا رئيسهم أسيراً . وهم
الملك أن يقتله ، ثم رقّ له وعفا عنه ، واستبقاه في أسره . ومضينا أمامنا
لا نلقى كيداً حتى كدنا نبلغ تهامة اليمن ، وإذا حي من أحيائها قوى عظيم
البأس مسلط على الأرض ، متحكّم في الطريق وفي القوافل التي تقطعها ،
يقال له نختم ، قد جمع الحربنا ، وغرّه عددُه فخيّل إليه أنه سيقهرنا كما
تعود أن يقهر الناس من قبل . ولكننا قهرناه في أقصر وقت وأيسر جهد ؛

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهي طريق في الجبل وعر ، ويكنى بها عما يعترض
الإنسان من المشاق والمصاعب .

وأخذنا رئيسه رجلا يقال له نَفَيْل بن حبيب أسيراً . وهمّ الملك أن يقتله ولكنه استعطف وغلا في الاستعطاف حتى ظفر بعفو الملك ، وتقدم مع الأدلاء ليسلكوا بنا طريقَ هذا البيت الذي كنا نقصد إليه . ونمضي في طريقنا لا نلقى كيداً ، وقد هابتنا العرب ونحلت لنا الطريق ، وأعظمت أمرنا إعظاماً . حتى إذا دنونا من مكة ، وبلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف ، تقوم على مرتفع من الأرض عظيم ، ومن حولها النخيل والكروم والحدايقُ فيها أنواع الفاكهة والتمر ، كأنها مدينةٌ من مدن الساحل الشامي قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة المجذبة فأقامت فيها مشرقة زاهية كأنها الابتسامة الجميلةُ في الوجه المظلم الكئيب ، خرج إلينا هنالك أهلُ هذه المدينة فقدموا الطاعة وأظهروا الخضوع ، وبعثوا معنا رجلاً منهم يسلك بنا إلى مكة أقرب طريق . ونمضي أمامنا حتى نبلغ مكة ، فينيخ الجيشُ ليستريح قبل أن يأخذ في الهجوم . ويأتي سفراء القبائل إلى الملك من كل مكان يقدمون إليه طاعتهم ويعرضون عليه ثلث أموالهم ، ويطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا لا يمسه بسوء ، فلا يسمع الملكُ منهم ولا يحفل بهم . ثم يرسل الملك طلائعه فتغير على ما حول مكة من الأرض وتستاق كل ما تجد فيه من مال . حتى إذا كان الغد أرسل الملكُ جماعة من أصحابه إلى مكة وكلفهم أن يسألوا عن سيدها وعظيمها ؛ فإذا لقوه أنبأوه بأن الملك لا يريد قتالهم ولا حربهم ، وإنما يريد أن يهدم هذا البيت ، فإن خلوا بينه وبين البيت فهم آمنون ، وإلا قلياًذنوا بحرب تسحقهم سحقاً . وأمر الملكُ سفراءه أن يأتوا بعظيم قريش إن أظهر الموادعة والميل إلى السلم .

وَيَمْضِي السَّفْرَاءُ ثُمَّ يَعُودُونَ وَمَعَهُمْ رَجُلٌ عَظِيمٌ ، وَسِيمٌ وَجَسِيمٌ ، لَمْ أَرِ قَطًّا أَجْمَلَ مِنْهُ ، وَلَا أَمْلَأَ لِلْعَيْنِ ، وَلَا أَوْقَعَ فِي الْقَلْبِ ، وَلَا أَشَدَّ مَهَابَةً وَجَلَالًا .
حَتَّى إِذَا بَلَغُوا سُرَادِقَ الْمَلِكِ دَخَلُوا يَسْتَأْذِنُونَ لَهُ . وَيَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ فَيَقَالُ لَهُ : هَذَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ سَيِّدُ قَرِيْشٍ وَصَاحِبُ عَيْرِهَا ، أَعْظَمُهَا شَرَفًا ، وَأَعْلَاهَا مَكَانَةً وَأَكْرَمَهَا نَفْسًا ، وَأَسْنَخَاهَا يَدًا ، يُطْعَمُ النَّاسَ فِي السَّهْلِ وَيُطْعَمُ الْوَحُوشَ فِي رَعُوسِ الْجِبَالِ . وَكَنتُ عِنْدَ الْمَلِكِ حِينَ أَدْخَلَ عَلَيْهِ هَذَا الرَّجُلَ ، وَرَأَيْتُ الْمَلِكَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَيُكَبِّرُهُ وَيُعْظِمُهُ ، وَيَلْقَاهُ بِالتَّجَلُّةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَيَهْمُ أَنْ يُجْلِسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ ، وَلَكِنَّهُ يُشْفِقُ أَنْ تُتَنَكَّرَ الْحَبْشَةُ ذَلِكَ ، فَيَنْزِلُ عَنْ سَرِيرِهِ وَيَجْلِسُ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى الْبَسَاطِ . ثُمَّ يَكْلِفُ التَّرْجَمَانَ أَنْ يَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ . فَمَا أَشَدَّ مَا عَجِبَ الْمَلِكُ حِينَ فَسَّرَ التَّرْجَمَانُ لَهُ جَوَابَ سَيِّدِ قَرِيْشٍ . قَالَ : حَاجَتِي أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ مَائَتَيْنِ مِنَ الْإِبِلِ أَخَذْتَهَا طَلَاتِعَكَ فِيمَا أَخَذْتَ أَمْسَ مِنَ الْمَالِ . قَالَ الْمَلِكُ مُسْتَهْزِئًا : لَقَدْ أَعْظَمْتِكَ حِينَ رَأَيْتَكَ ، فَإِنِّي لِأَصْغُرُ مِنْ شَأْنِكَ الْآنَ . لَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ سَتُحَدِّثُنِي فِي بَيْتِكَ هَذَا الَّذِي أُرِيدُ أَنْ أَهْدِمَهُ ، وَالَّذِي هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ ، وَشَرُّكَ وَشَرُّ آبَائِكَ ، فَإِذَا أَتَتْ تُحَدِّثُنِي فِي مَائَتَيْنِ مِنَ الْإِبِلِ ! قَالَ سَيِّدُ قَرِيْشٍ فِي صَوْتِ الْهَادِيِّ الْوَائِقِ الْمَطْمَئِنِّ : أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ ، فَلَا حَدَّ ثَمُّكَ فِيهَا ، فَأَمَّا الْبَيْتُ فَإِنَّ لَهُ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ . قَالَ الْمَلِكُ : لَنْ يَمْنَعَهُ مِنِّي . قَالَ سَيِّدُ قَرِيْشٍ : فَأَنْتَ وَذَاكَ . وَأَمْرُ الْمَلِكِ أَنْ تُرَدَّ إِلَى الشَّيْخِ إِبِلَهُ ، فَرُدَّتْ إِلَيْهِ .

ولكني تبعته لأرى ما يكون من شأنه ، فإذا هو لا يقبض هذه الإبل

إلا ليرسلها هدياً إلى هذا البيت ، الذي لم يُرد أن يتحدث إلى الملك فيه .
ويمضى هذا الشيخ إلى قومه من قريش ، فيأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب
وعلى رعوس الجبال هرباً من الملك ، وإشفاقاً من معرفة الجيش ، ويقوم
أمام بيته هذا الذي يعظمه وقد أخذ بحلقة بابه ، ومن حوله نفر من قومه
ويقول كلاماً حسن الانسجام شديد الوقع في النفس ، سمعته فأحبيته
ولكني لم أفهمه ، على أني كنت قد أخذت أحسن هذه اللغة . ثم يرسل
حلقة الباب ، ويمضى مع من كان يصحبه من قومه فيحتضن في شعب
من الشعاب . وأنظر أنا إلى هذه المدينة فإذا هي قد تخلت من أهلها ،
وقامت بيوتها هادئة ساكنة ، يُظلمها حزن عميق فيه هيبة وجلال . قامت
يُظلمها هذا الحزن ، ولكني لم أكن أرى في هذا الحزن خوفاً ولا إشفاقاً من
معاول الهادمين . وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة ، فيهم الجيش
أن يتحرك وفي مقدمته فيل عظيم ، ولكني أرى دليلنا نفيل بن حبيب
الخشعي يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويُسر فيها كلاماً ، ثم يرسلها ويشد
هارباً في الجبل .

وتثير حركة هذا الرجل في نفسي شيئاً من العجب ، فما علمت أنه
يعرف منطق الفيلة ، وما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب . عجبت ،
وليت عجبني لم يتجاوز هذه القصة ، ولكني رأيت بعد ذلك ما يقضي على
كل عجب : رأيت بعد ذلك أشياء ما قدرت قط أنني سأرى بعضها .
رأيت بعد ذلك أشياء وددت لو لم أرها قط .
وإني على ذلك لسعيد أشد السعادة ، مغتبط أشد الغبطة لأنني رأيتها ،

فهي التي هدتني إلى الحق ، وهي التي كشفت عن نفسي الغطاء . رأيت
الفيل قد برك ، حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهضَ معهم ، حتى
إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد . وَيَجِدُ ساسته بعد ذلك في إنهاضه
فلا يبلغون منه شيئاً ، يَحْتُونَهُ وَيُؤْذُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ ، ويبلغون به أقصى
مَا يَبْهِيجُ الْفِيلَ فلا ينهض ولا يهيم بالنهوض . حتى إذا أداروا رأسه نحو
الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض ومضى مُهْرُولاً ، فإذا أداروا
رأسه نحو مكة برك ولم يتقدم أمامه إصبعاً . ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا
العجب وأخذ الدّهش من نفوسنا كلّ مأخذ ، وبدأ الخوفُ يلعب
بقلوبنا ، وبدأ الذعرُ يُطلق بعضَ الألسنة بالرغبة عن دخول المدينة
والانصراف عن هذا البيت . وإنا لفي ذلك ننظر إلى الساسة وهم يعالجون
الفيل ، وإذا الجوّ يظلم شيئاً فشيئاً ، وإذا سحابٌ كثيفٌ يبدو لنا من
بعيد ، قد أقبل إلينا مُسرِعاً من ناحية البحر ، فلا نكاد نُطيل النظر
إليه حتى نتبين ، ويا أهول ما نتبين ! لسنا نرى سحاباً كالسحاب ، ولا
غماماً كالغمام ، وإنما نرى سحاباً حياً يخفق بأجنحته خفقا ، ويبعث منظره
في نفوسنا روعاً يخرجنا عن أطوارنا وينتهي بنا إلى شيء يُشبه الدهول .
إني لأرى الآن السحابَ حين كان يُقبل علينا أسراباً من طير صغار ،
لها مناقير الطير وأكف الكلاب ؛ حتى إذا دنت منا أخذت تحصبُ
الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها في مناقيرها وأرجلها . ولم تكن هذه
الحجارة تبلغ دقة العدسة ولا عظم الحمصة ، وإنما كانت شيئاً بين بين ،
وكانت على دقتها لا تمس شيئاً إلا هشمته تهشياً ، ولا تمس رجلاً إلا

ألقته صريعاً . وسلوا ما شتم عن خوف الخائفين وذُعر المدعورين ، وانصراف أصحاب الفيل عن الفيل ، وتحول الجيش عن مكة إلى غيرها من الوجوه جاداً في الهرب ، وهذه الأسرابُ من الطير تتبعه ، تحصبه بهذه الحجارة ، وتملاً الجوَّ من حوله بصياحٍ مخيف .

ولست أدري كيف انتهى أمرنا ، ولا كيف نجونا من هذه الطير . ولكني أراني مجدداً في الهرب ، ومن حولي قوم يحدّون مثلي في الهرب وقد حملوا رجلاً مريضاً سيئ الحال . حتى إذا انقطعت أصوات الطير ، ونظرنا فلم نرَ في السماء شيئاً ، أخذت أسأل عن نفسي وعمّن حولي وعن الجيش ، وأخذت أسأل عن هذا المريض الذي أراه محمولا يتأذى ، فإذا هو أبرهة ، قد مسّه حجر من تلك الحجارة فصُرع ، وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلاً قليلاً ، لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديدٌ منكر قبيح . كم تأذى هذا الرجل ! وكم احتمل من ألم في نفسه وجسمه ! وكم ذاق من مرارة الندم ولذع الحسرة واللوعة ! إني لأراه حين بلغنا صنعاء ، وأدخل إلى قصره ليمرض فيه وقد هزلَ ومسه الضر ، حتى لكأنه فرخٌ من فراخ الطير . على أن حياته لم تمتد في قصره ، وإنما ألحّ الألم عليه إلحاحاً شديداً . وأقبل أحد بنيه صباح يوم فنعاه إلى فلما سألتُ كيف مات ، علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجاراً .

وكان حديثُ الشيخ قد ملك على هؤلاء السمار نفوسهم وقلوبهم ، فأغرقوا في شيء من الوجوم لم يحسوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث واندفع في تفكير عميق بعيد . ولستُ أدري كم أنفقوا من الوقت في هذا

الوجوم الصامت ، ولكنى أعلم أن رجلا منهم شاباً لم تكن قد تقدمت به السن بعد ، خرج من هذا الصمت وأخرجهم منه حين قال بصوت متهدج تقطعه العبرات تقطيعاً : إن لهذا البيت في مكة لشأناً ! قال الشيخ : نعم ! إن لهذا البيت في مكة لشأناً ، وإن هذا الشأن هو الذى اضطرنى إلى أن أعود من اليمن مسرعاً ما وسعتنى السرعة ، حتى أبلغ مصر وأنتهى إلى الإسكندرية . وأقسم ما حفلت بأهلى ولا بوطنى ولا بشركائى فى التجارة ، ولا أتحت (١) لأحد منهم أن يسألنى من أمرى عن قليل أو كثير ، وإنما فرقت فيهم مالى تفريقاً ، وحملت منه ما استطعت حملة ، ومضيت إلى الشام يحسبى الناس تاجراً يتغنى الربح ، وإنما كنت سائحاً أبتغى هذا الدير لأدخله ، فأخرج من الحياة ولذاتها ، وما لها وغرورها ، وأفرغ للعبادة وطاعة الله .

وإنى لأرجو لو امتدت بى الحياة أن أعود إلى هذا البيت فى مكة ، لا غازياً ولا باغياً ولا قاصداً إلى شر ، بل تائباً ثائباً منيباً مستغفراً من هذا الإثم الذى شاركت فيه . وإلى أن يتيح الله لى هذه الأوبة إلى مكة ، إن كان قد قدر لى أن أراها مرة أخرى ، فسأقيم معكم ألقى من تلقون من هؤلاء الذين يأتون من مكة ويعودون إليها ، فأتحدث إليهم وأسمع منهم ، وأناهم بما أستطيع أن أناهم به من إحسان . وأذن مؤذن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حجراتهم ؛ فتفرقوا وما فى نفوسهم رغبة فى سمر ولا ميل إلى حديث ، وما منهم إلا من يفكر فى هذا البيت الذى أحجم عنه الفيل ، ورجمته طير أباييل ، ترمى عدوه بحجارة من سجيل ، فإذا هم كعصف مأكول .

(١) أتاح فلان الشيء : هياه .

١١

اليتم

قضى أهل مكة أيامهم فرحين مبتهجين ، يملؤهم الفخر ، ويزدهيهم النصر ، ويتحدثون بحديث الفيل إذا أضحوا ، ويتذاكرون انهزام الحبشة إذا أمسوا ، حتى كاد يشغلهم ذلك عن تجارتهم ويصرفهم عن مرافقهم . وتسامعت العرب بهذه الآية الكبرى التي أظهر الله بها كرامة هذا البيت ، ورفع الله بها مكانة الذين يقومون حوله من قريش ! فازداد العرب لقريش حباً وإكراماً ، وأخذت تستوثق الأمور لأهل مكة على من دنا منهم أو نأى عنهم في تهامة ونجد والحجاز . ولكن شيخاً من قريش لم يشغله فخر ، ولم يزردهه نصر ، ولم تصرفه أحاديث الناس من حوله عن حديث نفسه المتصل وحزنها المقيم ! وهو عبد المطلب بن هاشم .

ولكنّ امرأة من قريش لم يأخذها عجب ولم يملكها تيه ، ولم تشارك نساء قريش فيما كن يتخذن من زينة ، وينصرفن إليه من لذات الحياة ، إنما كانت تؤثر العزلة وترغب في الخلوة إلى نفسها ، تتحدث إليها وتسمع منها ، لا تجد في هذا الحديث حزناً صريحاً ولا سروراً صريحاً ، وإنما هو شيء بين بين : فيه راحة من لدغ اليأس ، وفيه صارف عن نشوة الأمل ! وهي آمنة بنت وهب .

كان الشيخ يذكر ابنه فيشغله الحزن المُسِيضُ العميق عما كانت فيه

قريش من بهجة وسرور ، ومن غبطة وحبور . وكان الشيخ يفكر في قصة الفيل وانصراف المغيرين عن مكة ، ثم يرى فخر قريش وتمدُّحها واستعلاءها على العرب ، فيبتسم في نفسه ساخراً منها عاطفاً عليها . فلم تصنع قريش شيئاً إلا أنها لاذت بشعاف (١) الجبال ، وفرت إلى حيث كانت تهم الوحوش ، ونحلت بين طاغية الحبشة وبين البيت . فلم تردده إذا ، ولكن الله رده ، ولم تحطيمه إذا ولكن الله حطمه . وهي على ذلك تفاخر وتكاثر ، وهي على ذلك تستكبر وتستعلي . وكذلك الإنسان يغيره بنفسه الغرور ، فيضيف إليها ما لم تفعل ، ويحمل عليها ما لم تأت من الأمر .

كان الشيخ يسخر في نفسه من قريش ، ويعطف في نفسه على قريش ، يلتمس لها المعاذير في هذا الضعف الذي يصيب الناس فيخدعهم عن أنفسهم ويكبرهم في أعينهم ، ويخيل إليهم أنهم شيء ، وما هم بشيء أمام هذه القوة القاهرة التي تغلب ولا تغلب ، والتي تقهر ولا تقهر ، والتي لا تريد إلا بلغت ما تريد . هذه القوة التي أخرجت من البحر طيراً لم يرها الناس من قبل ، فسلبتها على جيش لم ير الناس مثله من قبل ، فما هي إلا أن حلقت فوقه ساعة من نهار حتى انهزم وانحطم ، وأصبح كعصف مأكول ، وسليم البيت من عادية المعتدى ، وأمين البيت من طغيان الطاغية .

هذه القوة التي ظنَّ هو أنه قد استنقذ منها ابنه فجاه من الموت ، وضمن له حياة كحياة الرجال : فيها ما في حياة الرجال من سعادة وشقاء ،

(١) شعاف الجبال : رهوسها ، واحداً شفعة بالتحريك .

ومن راحةٍ وتعبٍ ، ومن جدٍّ وسعىٍ ، ومن اضطرابٍ بين اليمن والشام ، ومن استقرارٍ في الظواهر والبطحاء . ألم يُصارع الموتَ عن ابنه صراعاً ! ألم يشتر ابنه من القضاء شراءً ! فما هذا الجهاد بالقداح بينه وبين القضاء المسلط ! يفادى ابنه بالإبل فيشتطّ عليه القضاء ولا يرضى حتى يبلغ المائة . وفيمَ كان انتصاره ؟ وفيمَ كان ابتهاج بني هاشم ؟ وفيمَ كان ابتهاج قريش بانتصار الحياة على الموت ، وإفلات الشباب من مُدية المضحى ؟

وكان الشيخ يضحك في نفسه ضحكاً حزيناً يوشك أن يكون ياساً مهليلاً وثورةً نجاحةً ، لولا أنه كان ذا قلب تعلم كيف يطمئن للأحداث ويُدعن للخطوب ، ويصبر على النائبات . كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكاً حزيناً حين كان يفكر في غرور قريش ، وتقديرها أن الله قد ردّ طاغية الحبشة ، وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبابل ، تكريماً لها وإيثاراً ؛ وحين كان يفكر في غروره هو حين كان يقدر أن الله قد أنقذ ابنه من مُديته وفداه بمائة من الإبل إيثاراً له بالعافية ، واختصاصاً له بالكرامة . كلا ! كلا ! لم يُهزم الفيل وأصحاب الفيل إكراماً لقريش ، وإنما هي آية أجراها الله لأمر يعلمه هو ، ولا يعلم الناس منه شيئاً . ولم ينقذ الله عبداً من الموت و يفاده بمائة من الإبل إكراماً له أو إكراماً لأبيه ، وإنما أنقذه من الموت وفاداه بالإبل لأمر يريد به هو ، ولا يعلم الناس منه شيئاً . وإلا ففيم نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل ! أليس غريباً أن ينجو من الموت فيتخذ له زوجاً لا يقيم معها

إلا وقتاً قصيراً ، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود إليها كما يعود الناس إلى أزواجهم ، ولكن رفاقه يعودون وهو لا يعود ، إنما يتخلف في يثرب ليموت عند أخواله من بني النجار ؛ وقد عرفتُ زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حملها أمانةً ما زالت تحملها في جوانحها ، حتى إذا جاء أمر الله أدّت هذه الأمانة . ومن يدري ! لعلّ عبد الله لم يوجد إلا ليودع هذه الأمانة عند زوجه ! ومن يدري ! لعل آمنة لم توجد إلا لتؤدي هذه الأمانة إلى الناس !

وكان الشيخ إذا فكّر في هذا كله ، لم يملك نفسه أن يرى ابنه شديد النشاط ، عظيم القوة ، رائع الشباب ، بارع الجمال ، يستقبل السفر بأمل لا حد له ؛ ثم يراه نحيلاً ، هزيلاً ، شاحباً ، مهالكاً ، محزوناً ، يمرض على فراشه عند بني النجار ؛ ثم يراه وقد دنا منه الموت مُكابراً مُكاثراً ، فاستله من الحياة أو استلّ الحياة منه ، كأنما يثار لنفسه من تلك الهزيمة التي أصابته يوم الفداء . فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يُخرجه منه إلا اضطرابُ الناس من حوله ، وإلحاح الناس عليه ، وفيهم أبناؤه وبناته ، فيما كان يشغلهم من الأمور .

وكانت آمنة ترى نساء قریش ونساء بني هاشم من حولها ، يبسمن للأيام ويتهجن للحياة ، فيعجبها ذلك منهن ، ولا يداخلها حسدٌ لهن أو ميئلٌ إلى مشاركتهن . كانت تحسّ إحساساً قوياً ، ولكنه غامض ، بأنّ الأيام قد وقفها حظها من الغبطة وقسطها من النعيم في ذلك الوقت القصير ، الذي قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء إلى الرحيل . وكانت

تريد أن تسعد بالتفكير في هذا الجنين الذي تحسه يضطرب في أحشائها ، ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها ، وأنه قد حُرِم السعادة بهذه النعمة ، ففكره أن تستأثر من دونه بالخير ، وتتحدث إلى نفسها بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لذّة لا يستبدُّ بها الفرد ، وإنما هي مشتركة بين اثنين ، فإذا ذهب أحدهما ثقُلْتَ على الآخر وشق احتمالها عليه وكانت له مصدر ألم وحزن . ولكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممض الذي كانت تقدّره وتنتظره ، كأنما خلقت نفسها مُدعنةً ، وكأنما فطر قلبها على الرضا ، وكأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل ، رضى الناس أو سخطوا ، وأن احتماله مع الرضا والاطمئنان خير من السخط الذى لا يجدى ، والثورة التى لا تفيد .

على أن الأيام لم تكن تتقدم بأمنة نحو ذلك اليوم المشهود ، حتى يغمرها شيء يشبه نسيان النفس والانصراف عن الشعور الواضح بالحياة والتفكير الجلى فيها . وكانت تُتنفق نهارها ذاهلةً أو كالذاهلة ، وتنفق ليلاً في نوم هادئٍ حلوا الأحلام . وما أكثر ما كان يزورها من حلم ؛ وما أكثر ما كان يُليِّمُ بها من طيف ! وما أكثر ما كان يُلقى إليها من حديث ! حتى إذا كانت ذات ليلة تهباً للخروج من ذهول النهار والدخول في هدوء الليل ، أحست بعض ما يحس النساء حين يدنو منهن المخاض . هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بنى هاشم ، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالي ، أنكرن فيها كل شيء وأعجبن فيها بكل شيء . أنكرن حتى أنفسهن ؛ فقد رأين ما لم ير أحد ، وسمعن ما لم يسمع

أحد، وأحسسنَ ما لم يُحسَّ أحد . ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً ؛ فقد كانت ترى ، وهي يقظةٌ غير نائمة ، أن نوراً ينبعث منها فيسلاً الأرض من حولها ويزيل الحجب عن عيناها . وكانت تنظر فترى قصور بُصرى في أطراف الشام . وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تردى (١) في أقصى الصحراء . وكانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يظننَّ بها الظنون . وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها إلى شيء حتى تراه نوراً كله لا ظلمة فيه ، وإنما هو مشرقٌ مضى ، أو هو الإشراق الخالص . وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعةً قويةً نقيةً باهرة ساحرة ، وإنما لتدنو وتدنو حتى ينحيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها .

وكانت هذه الأخرى من صاحباتها ترى ظلمةً مظلمةً قائمة ، وتأخذها رعدةٌ قويةٌ ناهكةٌ ، ويُلِمُّ بها شيء كأنه النوم ، تسمع أثناءه صوتاً مهيباً رهيباً يسأل : إلى أين ذهبتَ به ؟ فيجيبه صوتٌ مهيبٌ رهيبٌ : إلى المشرق . ثم ينجلي عنها ما ألمَّ بها فتفتيق . ثم يعاودها ما كانت فيه ، فإذا ظلمةٌ قائمة ، وإذا رعدةٌ قويةٌ ناهكةٌ ، وإذا غاشٍ يغشاها كأنه النوم ، وإذا هي تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل : أين ذهبتَ به ؟ فيجيبه صوتٌ مهيبٌ رهيبٌ : إلى المغرب . ثم ينجلي عنها ما هي فيه فتفتيق . وكذلك لم تدنُ السماء من الأرض كما دنت في هذه الليلة . وكذلك

(١) تردى : تسرع بين العدو والمشى الشديد .

لم يرَ الناسُ من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء في هذه الليلة . ولم تكن
أمنة على هذا كله تجد أماً قليلاً أو كثيراً ، إنما كُشف عنها كل
حجاب ، ورفُع عنها كل غشاء ، وخالسَ بينها وبين عالم من الجمال الذي
يرى ومن الجمال الذي يُسمع لا عهد للناس بمثله . ثم ترى ويرى
صاحباتها كأن شهاباً انبعثت منها فلا الأرض من حولها نوراً يبهر الأبصار ،
ثم ترى فإذا ابنها قد مسّ الأرض يتقيها بيديه رافعاً رأسه إلى السماء مُحدقاً
ببصره إليها كأنما يلتمس عندها شيئاً . ثم تسرع صاحباتها إليه وإليها
ليؤدين له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة ، وما يحتاج إليه الابن
حين يستقبل الحياة ، فإذا هي لا تحتاج إلى شيء ، وإذا هو لا يحتاج
إلى شيء ، وإذا هن يتناولن أجمل صبيّ ، وأروع صبيّ ، وأبرع صبيّ ،
وإذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليداً لا كالولدان .

ثم يشرق الفجر وتبسط الشمس رداءها النقي على بطحاء مكة وما يحيط
بها من الجبال ؛ ويرتفع الضحى ، ويضطرب الناس في أمورهم وقد قضوا
ليلاً جاهلاً غافلاً ، لم يشعروا فيه بشيء ، كأن لم يكن فيه شيء . ولو قد
كُشف عنهم الغطاء ، ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا .
ولكن الله قد جعل لكل شيء قدرأ ؛ فهو يظهر آياته لمن يشاء ، ويخفي
آياته على من يشاء . وعبد المطلب جالس في الحجر وحوله أبناؤه وجماعة من
قريش ، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث . وهو يسمع إليهم
بأذنيه ؛ ويُعرض عنهم بنفسه ، يفكر في فقيدته الذي لا يستطيع أن ينساه .
وإنه لى ذلك وإذا البشير يُقبل عليه مسرعاً ، حتى إذا انتهى إليه حيّاه

وقال : لقد وُلد لك غلام ، فهلُمَّ فانظرُ إليه ؛ فلا يسمع هذه البشرى حتى يُحس أن الله قد أخلفه من فقيدته ورفق به في مُصابه ، وادخر له عزاءً عن محنته . فيسأل : أهو ابنُ عبد الله؟ فيجيبه البشير نعم . فينهض مسرعاً وينهض معه بنوه ، ويمضون لا يلوون على شيء حتى يبلغوا بيتَ آمنة . فإذا دخل الشيخ ورأى الغلامَ أحس كأنَّ الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن ، وردّه إلى غبطة وسرور بعدَ عهده بهما .

ثم يسمع حديثَ النساءِ فلا يُنكر منه شيئاً ، كأنما كان ينتظره ، وكأنما كان منه على ميعاد . ثم يرفع الصبي إليه فيقبله ويقول : لأسمينه محمدًا . قالت آمنة : لقد أتاني في النوم فأمرني أن أسميه أحمد . قال عبد المطلب : فهو محمد وهو أحمد ، وما أرى إلا أنهما بعضُ اسمائه .

قلت لمحدثي : فقد زعموا أن عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة ، ونحر الإبل لأهل الشَّعاب ، ونحر الإبل على رعوس الجبال ، ليُطعم الناس وليُطعم الوحش . قال : وهل كان عبد المطلب إلا نعمةً للناس ونقمةً على الإبل !

ولكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك ، ولم يعد إلى المسجد مع العصر . حتى رأى أنديّة قريش مُتجمعةً فيه ، تلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريف ! أذاعه في مكة رجلٌ من أهل الظواهر ، فشغل به الناس وتناقلوه . وكان هذا الرجل طلبيةً أهل المسجد ، ينتقل بحديثه من ندى إلى ندى ، فلا يكاد يُتم حديثه إلى قوم حتى يدعوهم إليهم قوم آخرون ليسمعوا منه ويسألوه . وكان يستجيب لمن يدعوه ، ولا يزهد في أن يُعيد

قصته مرةً ومرةً ، وكأنه قد أحس لنفسه خطراً ، وكأنه قد رأى نفسه مطلوباً بعد أن لم يكن من قبل لإطالباً ، وكأنه قد كبر في نفسه ، فكان يقول ويطيلُ في القول ، وكان يفصّل و يُغرق في التفصيل . وكانت أفناء قريش تسمع له ، فمنها من يُعجبُ ، ومنها من يرتاع ، ومنها من يلقى الحديث بالإغراق في الضحك ، ومنها من يلقى الحديث بهز الرءوس .

وكان هذا الرجل يقص قصصه فيقول : ما كنت أعلم أن الليل أسراراً ليست للنهار . وما كنت أعلم أن للصحراء أنباء ليست للمدن والأرض العامرة . وما كنت أحسبُ أن في هذا الهواء الذي نتسمه في هذا الفضاء الذي يحيط بنا أرواحاً تتناجى ، وأحياء تتجاذب الحديث ، حتى رأيت ما رأيت ، وسمعتُ ما سمعت ، فتبينت أن حياتنا تُغرور ، وأن علمنا جهل ، وأن أحاديثنا هُوٌ وهراء . والناس يتعجلونه فيقولون له : هات ما عندك من النبأ ، حتى إذا فرغتَ من قصته فقل ما شئت ، وهو يقول : لقد جنّيتي الليل ، وإني لفي طريق من الطائف إلى مكة فلا أحفل بذلك ولا آبه له ، ولا أفكر في أن آوي إلى حيٍّ من هذه الأحياء التي تنتشر بيوتها في الطريق لأنتظر مشرقَ الشمس ، ولكنني أمضي أمامي لا ألوي على شيء ولا أرهبُ شيئاً ، وماذا أرهب والطريق آمنة واضحة يسلكها الناس إذا أصبحوا ، ويسلكونها إذا أمسوا ، يسرون فيها مع ضوء النهار ، ويسرون فيها مع ظلمة الليل ؛ قد عرفوها فهم لا يحتاجون إلى مرشد ولا دليل . فأمضي أمامي مُجدِّاً في السرى ، أريد أن أفجأ أهلي مع الصبح . وإني لفي بعض الطريق وقد سكن من حولي كل شيء حتى لا أسمع إلا

أنخفاف مطيتي تمس الأرض مساً رقيقاً ، وإلا هذه الأنثاء التي تُرسلها المطايا إذا جَهدتها السير وحنَّتْ إلى الراحة ، وإلا ما كنت أناجي نفسي به من حديث أهلي إذ طلعت عليهم مع ضوء الشمس . وكان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئاً نقيماً ، فملاً نفسي أمناً ودعة وهلدوءاً .

وإني لني ذلك ، وإذا غمغمة تصل إلى من بعيد ، فلا أحفيل بها ولا ألتى إليها بالاً ، وإنما أمضى فيما أنا فيه من الاستمتاع بلذة هذا السرى ، ومس أنخفاف مطيتي للأرض ، وحينها إلى ما بَعُدَ عهدُها به من الراحة ، وأحاديث نفسي عن فارقت ، في الطائف وعن سألتني في مكة . ولكن الغمغمة تدنو مني أو أنا أدنو منها ، وإذا هي تشتد شيئاً فشيئاً ، وإذا أصواتها تمتاز وتستبين ، وإذا أنا أسمع أحاديث قوم يتهامون ، وإذا أنا أنظر فلا أرى أحداً . والقمر مع ذلك مشرق مضى ، والفلاة مع ذلك مبسوطة لا عوج فيها ولا ارتفاع ، والحديث مع ذلك من حولي واضح يملأ الهواء ، وقلبي مع ذلك يضطرب ويمشي في صدري رعباً . وأنا أذهب بمطيتي إلى أمام وأرجع بها إلى وراء ، وأذهب بها عن يمين وأذهب بها عن شمال ، وأرفع بصري إلى السماء وأخفض بصري إلى الأرض ، فلا أرى شيئاً ولا أتبيّن شيئاً إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشى الأرض برداء نقي رقيق . وهذه النجوم التي لا تُحصى وقد تألّقت في السماء كأنها المصابيح ، وانطلقت في طريقها مسرعة كأنها تستبق ، وهذه الأحاديث الواضحة تتحدث بها جماعات لا أراها ، ولكنها لا تستقر ، وإنما يمضي بعضها إثر بعض . وإني لأسمع قائلاً يقول : « انظروا إلى السماء ، فما أرى

أنها كعهدنا بها من قبل . إن نجومها لتتألق في قوة لم نرها قط . إنها لتسبق في سرعة لم نرها قط . إنها لتدنو من الأرض حتى إن نارها لتوشك أن تحترقنا . إن التصعيد في السماء لعسير . وفيم تصعد إلى السماء وإن السماء لتهبط إلينا ! إن البقاء على الأرض لعسير . وأنتى لنا الثبات بهذا الضوء الذي لا يخفى عليه شيء ، حتى أشباحنا الخفية التي لا تراها العيون ! النجاء النجاء ! إن للغيب لعجباً ، وإن في الأرض لحدثاً ، وإن الزمان ليستدير ، وإنا لا ندري أشر أريد بالناس أم خيراً ! » .

وإني لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى ، فيبهرنى ما أسمع ويسحرنى ما أرى ، وأشغل به حتى عن أن أسائل نفسي ، أين أكون وما تكون هذه الأصوات . ولكنى أحس أصواتاً أخرى كأنها تهيب بأهل تلك الأصوات التي كنت أسمعها قائلة : النجاء النجاء ! ولكن إلى أين ؟ ! إنكم لتفرون من مكة كأن شيئاً أزعجكم عنها وقد كنتم فيها آمينين ، وقد كنا نفير إليكم لأن شيئاً أزعجنا عن دورنا ، وأخرجنا من مأمنا ، واضطرتنا إلى أن نهم في الأرض ، لا ندري ما هو ، ولا ندري من أين جاء ، إنا لتسامع من أطراف الأرض بأن حدثاً قد حدث ، وبأن كائناً قد كان . إنا لتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض ، فسقطت شرفاته وتهدم بنيانه . وإذا أصوات أخرى تصيح منتشرة في الفضاء : وإنا لتسامع بأن نار الفرس قد خبت فجأة لأول مرة منذ ألف سنة . وإذا أصوات أخرى تصيح : إنا لتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفّت ، وما عهدناها إلا غزيرة جمّة الماء . وإذا هذه الأصوات كلها تملأ الأرض ، رقيقة خفيفة ، خائفة

قلبيقة: النجاء! النجاء! إن للسماء لحبراً، وإن الأرض لتستقبل يوماً لم تستقبله من قبل، وإن لهذا اليوم في حياة الأرض لشأناً لا ندري أخير هو أم شر! النجاء النجاء!

وقد فقدت صوابي وأضللت عقلي، فلا أحس شيئاً، ولا أرى شيئاً، ولا أسمع شيئاً، كأنما انتزعتُ من الحياة انتزاعاً. ثم يمسي برد السحر فأفوق وكأنما ثبتتُ إلى نفسي من سفر بعيد. وأنظر حولي فأرى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها، وأرى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودُّها محزوناً، وأرى النجوم تنهزم في السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً، وأرى ناقتي مذعنة لحكم السرى تمضي أمامها كأن شيئاً لم يكن من حولها. وأبلغ أهلي مع الصبح، فيستقبلونني دهشين كما كنت أقدّر، ولكني لا أستمتع بهذا الدهش كما كنت أريد.

ويتفرق الناس عن هذا الرجل وقد سمعوا منه، وإن بعضهم ليسأل بعضاً: ماذا يقول وماذا رأى؟ وإن بعضهم ليقول لبعض: لقد أخذته النوم فعبثت به الأحلام، وإن بعضهم ليقول لبعض: لقد مرَّ بجماعة من جن الصحراء كانوا يسمرون.

ويسمع عبد المطلب هذا كله فتثور في نفسه خواطر لا ينكرها ولا يعرفها، ولكنه لا يطيل الوقوف عندها؛ لأنه مشغول عنها بمقدّم حفيده اليتيم.

الحاضنة

وعطف الله على هذا اليتيم قلباً ملئتُ حُبّاً، وفاضت حناناً ورحمة،
قلما يظفر بمثلها المنعمون المترفون من أبناء الأغنياء، وأصحاب الثراء الواسع
والجاه العريض . هذه الأمة الحبشية قد ورثها اليتيم عن أبيه الفقيد مع
خمس أجمال أوارك^(١) وقطعة من الغنم ، كانت حين أقبل اليتيم إلى هذه
الأرض فتاةً في ريعان الشباب ومبتدأ الحياة ، لم ننس وطنها القديم ولم
تألف وطنها الجديد، ولم تسلم عن حرّيتها، ولم تأنس إلى رِقِّها . نفسها
معلقة بين لونين من ألوان الحياة : كان أحدهما صفوفاً كله ، وهو لون
الحياة العزيزة في بلد عزيز وبين قوم أعزّة كرام . وكان الآخر يوشك أن
يكون كدراً كله، لا تنظر إلا رأته مظلماً حالكأ ، لا يبسم فيه أمل ، ولا
ينبعث منه ضوء ، وهو لون الحياة الذليلة في بلد نازح ، وبين قوم غرباء
لا تعرفهم ولا تألفهم ؛ إنما دفعها إليهم خطوب الحياة دفعاً ، وألقها إليهم
صروف النوى إلقاء . فهذا شبابها يذبل ، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق .
وهذه آمالها تُبتر بترأ ، وقد كانت تريد أن تمتد وتنسط . وهي ترى هذا كله
خاشعة خاضعة ، مؤمنة مذعنة ، لم تختر منه شيئاً ، ولا تستطيع أن تغير منه
شيئاً . وهي قد وطنت نفسها أو وطنتها الأحداث على أن تكون أمةً طيبةً

(١) الأوارك من الإبل : التي ترعى الأراك . واحدها آركة .

تخدُم سادتها في نُصْح أو في غش ، ولكنها تُظهر لهم الطاعة والخضوع على كل حال . وهي محزونة النفس كاسفة البال ، لا تبسم إلاّ مُتكلفة ولا ترضى إلاّ متصنّعه ، ولا تطمئن إلى هؤلاء الذين من حولها ينظرون إليها نظرات مهما يملأها العطف والرفق ، فهي نظرات السادة الذين يملكون ويستعلون ، ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون ، كما يتصرفون في الأشياء : لهم أن يبيعوها وإن لم تُؤثّر أن تباع ، ولهم أن يهبوها وإن لم تحب أن تُهب ، ولهم أن ينقلوها من يد إلى يد ، ومن مكان إلى مكان ، ولعلها أن تكون مُؤثرةً لهذه اليد التي بُسطت عليها ، منكرةً لهذه اليد التي يراد أن تُنقلَ إليها . ولعلها أن تكون قد ألفت هذا المكان الذي استقرت فيه وكرهت غيره من الأمكنة . ولكنها لا تستطيع أن تريد أو لا تستطيع أن تُنفذَ ما تريد . وأى قيمة للإرادة إذا عجز صاحبها العجز كله عن أن يُنفذَها ويُجرى أحكامها ! إنما الإرادة العاجزةُ أقبحُ صور الذل ، وأشنعُ ألوان الرق ، وأبغضُ ما يلقي الإنسان في الحياة . انظر إلى هذه الأمة الناشئة لم تتعود الرق بعدُ ولم تطمئن إليه ، نفسها ثائرةٌ مُظلمة ، وقلبها جامع مكظوم ، وهي مبغضةٌ لكل إنسان ، ضيقة بكل شيء . انظر إليها تشهدُ ما شهدَ غيرها من النساء في تلك الليلة الفذة ، فتضطرب نفسها الناشئة لما رأت ، ويبتهج قلبها الحزين لما شهد ، ثم لا تكاد ترى هذا الوليد اليتيم حتى يُلقى اللهُ حبه في قلبها ، وحتى يعطفها الله عليه ، وحتى يجعله لها قرّة عين ، وحتى يُصبح وجهه الصغير المضيء ابتسامةً في حياتها المظلمة ، ويُصبح شخصه الضئيل

العظيم منقيداً لها من هذا اليأس القائم ، وعزاء لها عن هذا الشقاء العظيم .
وإذا هي تألفُ الطفلَ وتكلف به ، وإذا هي تحضن الطفل وتحنو
عليه ، وإذا هي تُؤثره من المحبة والبرِّ ، ومن المودة والعطف ومن الحنان
والرفق ، بكل هذه الكنوز التي لا تفتنى ، والتي تحتويها قلوب النساء ،
والتي كانت تريد أن تغيضَ لأن تُخطوبَ الحياة قد فرضت عليها الرقَّ
والذل فرضاً . إن هذا اليتيم لينزل من قلبها الحزين منزل السرور ، ومن
نفسها الكثيبة منزل الابتهاج . إنها لتجد فيه كل ما فقدت من
أمل وكرامة وعزّة وحرية . إنها لتريد أن تختصَّ به من دون الناس جميعاً .
إنها لتريد أن تخصصه بنفسها من دون الناس جميعاً . وإن الله ليحقق لها من
هذا كله أكثر ما تريد . إنها لتقف نفسها على الطفل أياماً ، حتى إذا
قبلت الظئر^(١) فانتزعته منها ومن أمه انتزاعاً ورحلت به إلى البادية ،
ضاقت هي بالظئر وكرهت هذا الرحيل . ولو قد أتيح لها أن تنفذ ما
كانت تريد لاستبقت الظئر معها في مكة ، أو لرحلت هي مع الظئر
إلى البادية . ولكن متى أتيح لأمة أن تُنفذ ما تريد ! ولها على ذلك أسوة
بهذه الأمّ الحرة الكريمة التي تُسلم ابنها إلى الظئر ، لاتستبقها معها في
مكة ، ولا ترحل هي مع الظئر إلى البادية .

فلتفارق صفياً دهنراً طويلاً أو قصيراً ، كما تُفارق الأم طفلها دهنراً
طويلاً أو قصيراً . ولتصبرُ على هذا الفراق . وهل يُخلق الرقيقُ إلا
للصبر والاحتمال !

(١) الظئر : التي ترضع غير ولدها وتعطف عليه .

ويُنفق الصبي عند الظئر ما شاء الله أن يُنفق من وقت ، لا يزور أمه ولا حاضنته إلا لِمَماً . وكلتاها تسعد بهذه الزيارة القصيرة ، وكلتاها تشقى باستئناف الفراق ، وكلتاها تدعن لما لا بد من الإذعان له .
ثم يعود الصبي الناشئ من البادية إلى مكة ، فيقيم إقامةً ملؤها الرحمة والعطف بين هذه القلوب الكريمة التي تحبه وتحنو عليه : قلب أمه الحرة المحزونة ، وقلب حاضنته الأمة الفتاة ، وقلب جدّه الشيخ الوقور . كلهم سعيد بالعطف على هذا الطفل والرعاية له ، والطفل ناعمٌ بعطفهم عليه ورعايتهم له .

ثم ترحل أمُّ الطفل به إلى يثرب لتزيره أخواله من بني النجار ، فترحل الحاضنةُ معهما ، وينعم الطفل بحنان هذين القلبين الكريمين . حتى إذا بلغ يثرب رأى أرضاً لم يكن قد رآها ، وقد قدر له مع ذلك أن يُقيمَ فيها حياً وأن يقيمَ فيها ميتاً ، وقد سبقه أبوه إلى زيارتها ، وقد سبقه أبوه إلى أن يُؤثرها له داراً تُؤويه .

هنالك رأى الطفل قبرَ أبيه . وهنالك لعبَ الطفلُ مع أطفال مثله سيكونون له أصدقاءً وأنصاراً حينَ يَجِدُ الجَدَّ ، وحين يبلغ الكتابُ أجله ، وحين يتم في الأرض ما قدر في السماء . حتى إذا قضى الطفلُ وأمه وطراً من زيارة الأرض الموعودة ، عاد بين أمّيه الكريمتين إلى موطنه بمكة . ولكن قضاء الله يجب أن ينفذ ، وحكمة الله يجب أن تبلغ ، وإرادة الله يجب أن تكون .

فلا يكاد الطفل يبعد عن يثرب حتى تُتِمَّ العلة بأمه كما أملت بأبيه

قبل أن يصل إلى الدنيا . ولا يكاد الطفل ينتهي إلى الأبواء (١) حتى يتزع الموتُ منه أمّه أو يتزعه من أمه ، كما نزع الموتُ منه أباه أو كما نزع من أبيه .

وكذلك أدّيت الأمانةُ إلى الأرض ، وذَهَبَ عبدُ الله وذَهبت أمانته بعد أن أدّياها . وأصبح الطفل كما أراد الله له أن يكون يتيماً قد فقد أمّه وفقد أباه ، وليس له من يؤويه إلا الله الذي قد وعد بإيوائه وكفالاته ، وحفظه وحمايته من العاديات .

لقد نخلص الطفلُ لحاضنته من دون الناس . فلتَقِفْ عليه نفسها كلها ، لتقف عليه حبا كله ، ولتخلص له كما نخلص لها . وانظر إليها تعود بالطفل إلى جدّه وأعمامه وحيداً فريداً ، ليس له من يرعاه أو يكلّؤه إلا قلبها العظيم الكريم .

من ذلك الوقت أصبحت للطفل أمّاً ، رعته صبيّاً وشابّاً ، فرغت له ولم تُشغل عنه بأحد ولا بشيء . حتى إذا بلغ سنّ الرجال واتخذ له أسرة ، وأوى زوجه خديجة بنت خويلد ، نظر إلى هذه الأمة التي نشأته ونعمته بحبا وحنانها ، فأعتقها وردّها لها حقها الكامل في الحياة الحرة الكريمة . هنالك اتخذت لها زوجاً من أهل يثرب كان مقياً بمكة ، فعاشت معه ما شاء الله أن تعيش ، ورحلت معه إلى يثرب ، حتى إذا مات عادت إلى ابنها الأول ومعها ابنها الثاني أيمن بن عبيد ، فعاشت في كنف هذا اليتيم

(١) الأبواء : قرية بين المدينة ومكة ، وبينها وبين الحنفية بما يلي المدينة ثلاثة

وعشرون ميلاً .

وعاش معها ابنها سعيدين ناعمين .

ثم يُتم الله نعمته على هذا اليتيم ، ويختاره لما قدر له من الكرامة واحتمال الأعباء الثقال ، فلا تشغله نعمة ولا محنة ولا راحة ولا جهاد عن أمه هذه . وانظرُ إليه يتحدث عنها إلى أصحابه فيقول هذه الكلمة التي ملؤها البرّ والحنان والوفاء : « إنها بقيّة أهل بيتي ! » . وانظرُ إليه حريصاً على أن تحيا وتنعم بالحياة ، حريصاً على ألا يكون حظها من السعادة في هذه الدنيا أقلّ من حظ غيرها من الحرائر ، انظرُ كيف يلتمس لها الزوج فيقول لأصحابه : « من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أمّ أيمن » . هنالك أسرع مولاة زيد فاتخذها له زوجاً .

إيه أيتها الأمّ الكريمةُ الرحيمة ! لقد منحت ابنك صبيّاً وشابّاً كلّ ما كنت تستطيعين أن تمنحيه من الحب والودّ ، ومن العطف والحنان . وما هو ذا الآن قد بلغ ما قدر الله أن يبلغ من ارتفاع المكانة وعلو المنزلة وجلال الخطر ! انظري ! إنه ليؤذّي في سبيل الله . إنه ليُمتحن في نفسه وفي عشيرته وفي أصحابه . إنه ليلقى في ذلك أشدّ الجهد ، ويحتملُ في ذلك أعظمَ الثقل ، ويستقبلُ ذلك بأحسن الصبر . انظري إليه وانظري إلى نفسك ! إنك لتُحبيبه وتُكبرينه وترحمينه ! لقد استجبت له حين دعا ، وآمنت به حين أندر وبشّر . انظري ! إن قومه ليأثمرون به ليقتلوه أو يُخرجوه أو يُشبتوه (١) . وإن الله ليأذنُ له في الهجرة ، وإنه ليترك مكة

(١) ليشتوه : ليسجنوه أو يوثقوه أو يشنّوه بالضرب والجرح ، من قولهم : ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح . (عن الكشاف)

طريداً ليعود إليها مُنتصراً مُظفراً . انظري ! إنه ليقيمُ الآن في يثرب بين
أبصاره الذين آووه . وبين رفاقه الذين كعبَ معهم صبيهاً ، وأنت
ترُمقينه وترعينه من قريب حيناً ، ومن بعيد حيناً آخر . انظري !
أستطيعين فراقه ؟ لقد ضيقت بالظنن حين نقلته إلى البادية . كلا ! كلا !
إن أصحابه ليهاجرون ليلحقوا به ويعيشوا معه ، فكيف لا تهاجر أمه !
ومتى صبرت أمٌ مثلها على فراق ابن مثله ! ها هي ذى قد تركت
مكة مهاجرةً إلى الله ورسوله ، وابنها وصفيها . إنها لتقطع الطريق بين
سكة والمدينة يُؤنسها ما يملأ قلبها من الإيمان ، وما يعمره من الحب .
إنها لتحمل مشقة الطريق وجهد السفر صابرةً عليهما . وما كان أصبرها
على المشقة والجهد ! إنها لتستلذ المشقة والجهد ، وتستعذب الألم
والضراء . إنها لتسافر صائمةً . إنها لتستأنس في رحلتها بهذين الصديقين
الذين يحبهما المؤمنون : الظمأ والجوع ، وأنعم بهما رفيقين ! وأنعم بهما
معينين على الهجرة في سبيل الله ! إنها لتقطع أكثر الطريق وتصبح من
المدينة غير بعيد . إن النهار ليتقدم بطيئاً مسرفاً في البطء ، وإن الشمس
لترسل على الأرض أشعة من اللهب ، وإن الأرض لتضطرم من شدة
القيظ ، وإن الجو ليتوهج من اللهب الذي يضطرم فيه ، وإن هذه
المرأة الضعيفة لتسعى في هذه النار المحرقة إلى حيث تنعم بالحياة في ظل
ابنها رصفيها ومخرجها من الرق إلى الحرية : ومخرجها من الظلمة إلى النور !
إنها لتسعى ما وسعها السعى . ولكن الأمد بعيد ، والجهد شديد ، والماء
منقطع والظمأ محرق ، وجسمها ضعيف لا يثبت لهذه العاديات التي

لا تثبت لها أجسام الناس ! ولكنها تسعى لا يائسة ولا بائسة ولا مستسلمة ، حتى يبلغ الجهدُ بها أقصاه ، وحتى يترأى لها هذا الشبح المنكر الخيف الذي يترأى لمن تنقطع بهم أسباب الحياة في الصحراء : شبحُ الموت . ولكنها مع ذلك لا تيأس ولا تستسلم ، ولا تفارق ما ألفت من الرضا . انظري أمامك ماذا ترين ؟ إنه رشاءٌ أبيضٌ ناصعُ البياض ينزلُ إليك من السماء ، وقد عُلقتُ فيه دلو قد مُلئتُ ماءً . من أرسلَ إليك هذه الدلو ؟ من قدمَ إليك هذا الماء ؟ لم أرسلتُ إليك هذه الدلو ؟ لم قدمَ إليك هذا الماء ؟ هلم اشربي ! فإنما تذوقين اليومَ هذا الماء العذب ماء الخلود الذي ستشربينه بعد حين طويل أو قصير حتى يسكنك الله . دارك من الجنة ! رأيت أن ابنك لم يكن متكلفاً ولا مغروراً حين قال لأصحابه : « من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليزوج أمّ أيمن » ! اشربي من هذا الماء ، فلن تظمئي بعد هذه الشربة أبداً !

وتشربُ أمّ أيمن من هذا الماء ، وتنفقُ أمّ أيمن بعد هذه الشربة أعواماً طويلاً ، فيها الشدةُ واللين ، وفيها البؤس والنعيمُ ، وفيها الجهدُ والعناء ، ولكنها لا تعرف الظماً ولا تحسه ولا تشكوه ، وكيف يظماً من شرب ماء الخلود ! .

أسرعي الآن يا أمّ أيمن إلى يثرب ؛ فإن ابنك ينتظرك فيها ، قد أمنَ بعد خوف ، واطمأن بعد قلق .

وتبلغ أمّ أيمن المدينة ، فيلقاها ابنها حفيظاً بها عطوفاً عليها ، وتلقاه هي بما عودته أن تلقاه به من هذا الحبِّ السمع والعطف الباسم .

وتقضى معه أيامها في المدينة ، لا تكاد تفارقه إلا حين لا تستطيع أن تراققه . انظر إليها يوم أُحُد وقد شهدت الحرب مع المسلمين ، وإنها لتطوف بالماء تسقى الجرحى ومن مسنهم الجهد . ولم لا وقد عرفت حرّ الظمأ وبرد الرّى ! ومن يدري ! لعل هذه القطرات التي كانت تصبها في أفواه الجرحى قطرات قد مستها رحمةُ الله ففقدتُ جوهرها الفاني ، واستحالت إلى هذا الجوهر الخالد الذي شربت منه أمّ أيمن حين تذلت إليها الدلو من السماء ! وانظر إليها وقد شهدت تخيير مع ابنها توأسي المسلمين وتمنحهم من عطفها ورعايتها ورحمتها فضل ما يمتلي به قلبها الساذج الكريم ! وانظر إليها في أيام السلم تغدو على ابنها وتروح إليه ، فيلقاها مبتسماً دائماً ، مبتهجاً دائماً ، مُداعباً لها من حين إلى حين . تسأله مرة أن يحملها ، فيقول لها : « أجملك على ولد الناقة » فلاتفهم منه ، فتقول : يا رسول الله ، إنه لا يطيقني ولا أريده . فيقول : متضاحكاً : « لا أجملك إلا على ولد الناقة ! » .

وكان ابنها يمزح ولكنه لم يكن يقول إلا حقاً . وكان يحب أن يداعبها ويعبث بها في رفق : فهو يقول ذات يوم : « غطّيت قناعك يا أمّ أيمن » . وتلقاه يوم حنين قبل الموقعة ، فتريد أن تدعو للمسلمين بخير فتقول : « ثبتّ الله أقدامكم » . فيقول ابنها : « اسكتي يا أمّ أيمن فإنك عسراء اللسان ! » .

وقد سمع لها الله فثبت أقدام المسلمين . وقد امتحنها الله فاختار ابنها أيمن وآثره بالشهادة يوم حنين .

إيه أيتها الأمّ الرعوم ؛ إنك لتمنحين ابنك وصفيتك اليوم شيئاً جديداً
لم تمنحيه من قبل ، إنك لتبذلين في سبيل الله وفي سبيله دم ابنك العزيز .
ولكنك تلقين الشكّل صابرة آملة راضية ، كما لقيت الظماً من قبل صابرة
محملة واثقة . ولئن فقدت أيمنَ يوم حنين ، إنّ لك تخلفاً منه في ابنك
أسامة بن زيد ، أثير النبي وحببيه ، وقائد جيش المسلمين بأمر النبي وإن
كان بعدُ لحدثاً ناشئاً . هذا جيش ابنك أسامة مرابطاً يتأهب للرحيل .
وهذا ابنك وصفيتك في بيته قد ثقل عليه المرض ، وفتحت له أبواب السماء
وأقبلت عليه الملائكة أفواجاً تحمل إليه روحَ الله ورحمته وتبشره بجوار الله .
انظري ! لقد اختار الله لنبيه جواره الأعلى ، وصعدت نفسه الكريمة إلى
حيث أريد لها أن تكون مع الصّديقين والشهداء والصالحين وأصفياء الله
وأنبياؤه . ماذا ؟ ! إنك لتبكين ! وما يبكيك يا أمّ أيمن ؟ قالت لمن ألقها
عليها هذا السؤال : أي والله ! لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
سيموت ، ولكني إنما أبكي على الوحي إذا انقطع عنا من السماء .
نعم ؛ لقد قبض ابنك وانقطع الوحي ، وستحصلين ذلك دهرأ .
ستشهادين خلافةَ أبي بكر ، وستشهادين خلافةَ عمر ، وستبكين مرة
أخرى حين يموت عمر ، وستسألين عن هذا البكاء فتقولين : « الآن وهى
الإسلام » . وستستقبلين خلافةَ عثمان وقد طال صبرك على انقطاع
الوحي ، وشوقك إلى أخبار السماء ، وسيسعى إليك المسلكُ رقيقاً بك عطوفاً
عديك ، وسيقبض نفسك الكريمة إلى حيثُ تسعد بجوار ابنك الكريم !
تحدث ابنُ سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : نخاصه ابنُ

أبي الفرات مولى أسامة بن زيد ، الحسن بن أسامة بن زيد ونازعه . فقال له ابن أبي الفرات في كلامه : يا ابن بركة (يريد أم أيمن) فقال الحسن : اشهدوا . ورفعني إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وهو يومئذ قاضي المدينة أو وال لعمر بن عبد العزيز ، وقص عليه قصته . فقال أبو بكر لابن أبي الفرات : ما أردت إلى قولك يا ابن بركة ؟ قال : سميتها باسمها ، قال أبو بكر : إنما أردت بهذا التصغير بها ، وحالها من الإسلام حالها ، ورسول الله يقول لها يا أمه ويا أم أيمن ! لا أقالني الله إن أقلتك ! فضربه سبعين سوطاً (١) .

(١) طبقات ابن سعد الجزء الثاني ص ١٦٤ .

١٣

المراضع

أقبل المراضع إلى مكة عجاجاً نحافاً ، تحملهن حُرٌّ عجافٌ نحافٌ ،
ويصحبهن أزواجهن قد مسهم الضرُّ ، وأعيانهم الكسب ، واشتدَّتْ
عليهم السنة ، وأجدبت بهم الأرض ، فإِ يجنون إلى أمن ولا دعة ولا
حياة سبيلاً . وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة ، يلتمسون الرضعاء
أبناء السادة والمترفين في قريش ، ويتغنون بذلك فضلاً من مال ، منافلةً
من نعيم ، وحظاً من هذا البر الذي تطمع فيه المراضعُ عند أهل الرضعاء .
فلما ألقوا رحالهم ، انحدر المراضع إلى مكة يعرضن أنفسهن على دور
الأغنياء وأهل الثراء ، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء .
وأسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون ويلقون سراة الناس من قريش ،
فيسمعون منهم ويتحدثون إليهم ، ويستعينون بهم على احتمال أثقال
الحياة في تلك البادية النائية ، بادية بنى سعد بن بكر . وما هي إلا
طوفةٌ في الضحى على بعض المنازل والدور حتى آب المراضعُ
موفورات محبورات ، قد وجدت كل واحدة منهن رضيعاً من أسرة
كريمة موسرة ، فامتألت يدها بالمال ، ونفسها بالأمل ، وقلبها بالغبطة
والأمن على قوت العيال ، إلا حليلة بنت أبي ذؤيب ؛ فإنها عادت
إلى زوجها كثيبة محزونة لا تحمل إلا ابنها الهزيل النحيل الذي يصيح

في غير انقطاع ، ويبكى في غير هدوء ، لشدة ما مسه من ألم
الظماً والجوع .

ولقي الإعرابيُّ امرأته الشابة محزوناً مثلها ، كثيباً مثلها ، ولا يؤذيه
ما يحسّ من الجوع والظماً كما يؤذيه ما يسمع ويرى من بكاء الطفل
وتوجع أمه البائسة . قال : إني لأرى أترابك من المراضع يرجعن

موفورات محبورات يحملن الرضعاء ، فما بالك تعودين لا تحملين رضيعاً
إلا هذا الطفل ؟ أعلّك قد دلت الناس على مكاننا من البؤس وحظنا
من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذي لا ينقطع له صياح ! أعلّك
قد أياست الأمهات وأخفّت الآباء ألا يلقى أبناؤهم عندك ما يرويه

من ظماً أو يشبعهم من جوع ! ليتني لم أنحدر مع الناس إلى المسجد ،
وليتني بقيت هنا أحفظ عليك هذا الطفل حتى لا يسمع الأمهات والآباء
له بكاءً ولا شكاة ، وحتى لا يرى الآباء والأمهات عليه بؤساً ولا ضرراً !
قالت : والله ما صدّ عني الآباء والأمهات ، ولقد أسكتُ هذا الطفل
فما بكى ولا شكاً ، وما أحسّ أحد على ولا عليه ضرراً أو شراً ، وإنما
صدّدت أنا عن رضيع صدّ عنه الأتراب من قبلي . قال الأعرابيُّ :

وفيم صدّكن عنه واجتنا بكن له ؟ قالت : يتيم ليس له أب يرعاه
أو يكلّؤه ، إنما هو إلى أمه وجدّه . وما تصنع أمّه وما يصنع جدّه ؛
وماذا تنتظر من برّ الأمهات بالمراضع ، ومن برّ الجدود بالخفدة وإنهم
لكثير ! قال صدقت ، وما لإرضاع اليتامى والمساكين أقبلنا من ديار
بنى سعد ! وإني لأجد في نفسي إشفاقاً على هذا اليتيم ورحمة .

ولكن ماذا نصنع به في تلك الأرض النائية إذا لم يصل إليه وإلينا من
براً أهله ما يقيمه و يقيمنا ويُصلح من حاله ومن حالنا ! قالت :
لقد رأيتُه فأحببته ، ونظرتُ إليه ففرقتُ له . ولقد آنست من أمه
دعةً وليناً . ولقد نازعتني نفسي إلى أن أحمله لولا أني أشفقتُ مما تقول ،
ولولا أني ذكرت الجذبَ وشدةَ السنة وانقطاع المادّة ، وأشفقت عليه بما
نحن فيه . قال الأعرابي : فسنتقلُ إذاً كما أقبلنا ويقفل القوم راضين !
وإني والله يا ابنة أبي ذؤيب ما أدري أتبلغنا أتأنا وشارفنا (١) ديار
بنى سعد ، وإنك لتعلمين أن أتانا منهوكة مكدودة ، وأن شارفنا
ما تبضُّ قطرةً من لبن . قالت ؛ فلنقمُ فإن الأطفال يولدون ، ولعل
الله أن يرزقنا بين اليوم وغد رضيعاً نجد عند أهله ما يُرضينا .
وهمّ المراضع بالقفول ، وأخذت بنت أبي ذؤيب تنظر إليهن
مخزونة مكلومة ، يؤذيها ما ترى من إنجاحهن وإخفاقها ، ومن قفولهن
وتخلفها . وأخذ الأعرابي ينظر إلى رفاقه يشدون الرحال على المطايا .
ويحملون النساء على الأُتن ، فيؤذيه ذلك ويغيظه ، ولكنه يُخفي .
من الغيظ ويظهر التجلد والصبر . حتى إذا مضى اليوم وأمعنوا في
الطريق وبعُدوا عن مرمى العين ، نظر الرجل إلى امرأته : ونظرت
المرأة إلى زوجها ، ونظر الزوجان إلى ابنيهما واستمعا لبيكاته ، وإذا هي
تقول لزوجها : ما أدري ! لعلني لم أحسن حين جاريتُ أترابي وأعرضتُ
عن هذا اليتيم . وإن نفسي لتنازعني إليه . وإن قلبي ليعطفني عليه .

(١) الأتار : أتم خير . والشارف من النود : المسة .

وإني لأحسّ كأنه يدعوني ، وإني لأشعرُ كأنني لا أستطيع عنه صبراً ،
وإني لأرجو إن استجبتُ لهذا الدعاء الخفيّ أن يكون الله قد قدّر
لنا خيراً وآثرنا ببعض ما نحب ! قال : فلا عليك يا ابنة أبي ذؤيب !
اذهبي إلى يتيمة فخذيه ؛ فإنني أكره أن يرحل القومُ ونبقى ، وأن
يصلوا إلى ديار بني سعد ، فيتحدثُ المراضعُ أنهنّ قد ظفرن بالرضعاء ،
وأن نفوس الآباء والأمهات قد انصرفتُ عنك وزهدتُ فيك .
وتنهض بنت أبي ذؤيب فتعود إلى آمنة فتعرضُ عليها إرضاعَ الطفل ،
وإذا آمنة تأبى وقد آذاها ما رأت من إعراض المراضع وانصرافهن ، وعلى
وجهها آيات حزن عميق ، وفي صوتها بقية من بكاء ، وأمتها بركةُ
تعيها على الإباء وتحرّضها على الامتناع . ولكن ابنة أبي ذؤيب
تنظر إلى الطفل فإذا قلبها يمتلي حباً له ، وإذا هي تحسّ أنها مدفوعةُ
ليه دفعاً ، وإذا هي تُسرع إلى الطفل فترفعه بين يديها وتدنيه من
صدرها ، وإذا الطفل يلتمس الثدي كأنما كان منه على ميعاد ،
وإذا هو يشرب حتى يروى ، وإذا بنت أبي ذؤيب تجد من اللين
ما لم تكن تجد من قبل ، وإذا آمنة تستجيب لها ، وكيف تأبى عليها
وقد رأت من حبها للطفل ومن إقبال الطفل عليها ومن إرضاعها له ما رأت !
لقد أصبحت هذه الظئرُ له أمّاً . قالت آمنة : خذيه ولا تراعى ؛
فإنني لأرجو ألا تجدى منه إلا خيراً ؛ فلقد حملته فما وجدت له ثقلاً ،
ولقد انتظرته تسعة أشهر فما أحسست مما يُحس النساء قليلاً ولا كثيراً .
ولولا غاشية الحزن التي غشيتنا بفقد أبيه لكانت هذه الأشهر أسعد

ما تظفر به امرأة من دهرها . ولكن الحوادث تحدثُ والخطوبُ تُتلىمُ
والآمالُ تُتقطعُ وقد كان يرجى أن تتصل ، والسحبُ تراكمُ فتحجبُ
ضوء الشمس ! ولقد وضعتُ هذا الصبيَّ فما عرف صاحباتي عليَّ
وعليه شيئاً مما تعودن أن يعرفن على الأمهات والولدان . وإنك لتنكرين
يا ظئرُ لو تسمعين . قالت حليلة : وماذا أسمع ، وماذا أنكر ؟ قالت
آمنة : لم أكن تلك الليلة في دار من دور قريش ، وإنما كنت في
مكان لم يألّفه الناس : كنت في بحر من النور كله رحمة وبرٍّ ورضوان .
وما لك لا تنكرين هذا يا ظئرُ وقد أنكرته أنا وأنكرته صواحي ! وما لك
لا تعجبين يا ظئرُ وقد عجبتُ وعجبتُ صواحي وعجب جدّه الشيخ !
سلي حاضنته هذه تنبئك بما رأيت وما سمعت . سلي من شئت من نساء
بنى هاشم ورجاهم تعلمي أن لابني هذا اليتيم شأناً ليس لغيره من
أبناء الأغنياء وأهل اليسار . لا تراعي يا ظئرُ ؛ فإنك تحملين وليداً
كريماً لأب كريم ، وجدّ كريم . ثم انهلت من عينها دموع غزار ،
وقالت في صوت يقطعه البكاء : لا تيأسي يا ظئرُ ؛ فإن معروفنا على
قلته سيصل إليك ، وربّ قليل خير من كثير . قالت حليلة : وقد
رقّ قلبها ، وجادت عنها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات :
لابأس عليك يا ابنة وهب ! فإني والله ما استطعت صبراً على هذا الصبي
منذ رأيتّه . وإني والله ما أدري ما الذي عطفني عليه حتى رجعتُ إليك
أخذهُ منك . وقد كنت أستطيع القفول ، وقد كنت أستطيع المكث
في بلدكم هذا يوماً أو أياماً ؛ فالأطفال يولدون ، وسراةُ قريش في

حاجة إلى المراضع كل يوم : ولكنه والله أمرٌ يراد . وانصرفت حليلة بابنها الحديد راضية مسرورة . قانعة بما زودتها به آمنة من البر والمعروف . حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابي لقيها باسم الثغر ، مُشرق الوجه . سعيداً أن لم تعد إلى صفر اليدين . ولم يكد ينظر إلى الطفل حتى انطق لسانه ، وإذا هو يقول لامرأته : إيه يا ابنة أبي ذؤيب ! ما رأيتُ كالיום وجهاً مشرقاً يفيض منه البشر ، إني والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير .

وينهض الأعرابي إلى شارفه يلتمس في تضرعها الجفاف قطرات من لبن يئيل بها ظمأ امرأته ، وينقع بها بعض غلته . فما أسرع ما يأخذه عجباً لا ينقضي حين يرى شارفه حافلة تمنحه من اللبن ما يريد وما تريد امرأته ، وفوق ما يريد وما تريد امرأته . وينظر الأعرابي فإذا ابنه الأول يجد عند أمه ما يُرويه ويرضيه ، وإذا وجهه الكالح المظلم قد أخذ يُشرق ويُضيء ، وإذا ابتسامته حلوة طاهرة قد ارتسمت على ثغره البريء ، وإذا هو يقول لامرأته : تعلمي يا ابنة أبي ذؤيب أنك قد حملت نسمة مباركة !

وتنهض الظئر إلى أتانها فتركبها وتضع الرضيع بين يديها ، وينهض الأعرابي إلى شارفه فيمتطيها . ويرميان بنفسيهما في الطريق يلتمسان الركب من بني سعد ، والركب بعيد قد دُفع به في الطريق طويلة نائية . ولكن الأعرابية تجد من أتانها نشاطاً وحدّة ، ولكن الأعرابي يجد من شارفه قوة ومرحاً ، وهما يمضيان وكأنهما تطوى لهما الأرض

طيباً : ثم يقول الأعرابي لامرأته مُمدتى عينيك يا ابنة ذؤيب أترين شيئاً ؟ قالت : أى والله أنى لأراهم . وإنهم لأدنى من مرى العين . وما هى إلا أن يبلغ الأعرابي جماعة بنى سعد ، فيعجبُ الناسُ بأمر حليلة وقد أدركتهم فى غير جهد ولا كد . والأمدُ بعيد . والطريقُ شاق . ويسأل النساء حليلة عن هذا الرضيع الذى تحمله ، فإذا أنبأتهنّ بنبئه أظهرنَ لها الرقة والرثاء ، وأضمرن التيه والكبرياء . ويمضى الراكب آخذاً بأطراف الحديث ، وإن حليلة لتسبق أترابها حتى تُعيهن ، وإن أترابها ليقلن لها : أهذه أتانك يا ابنة أبى ذؤيب التى أقبلت بك إلى مكة ؟ فتقول : هى والله أتانى ما غيرتها . فيقلن : اربعى علينا^(١) يا ابنة أبى ذؤيب ؛ فما رأينا كاليوم مرحاً ولا عدواً . ويبلغ الراكب ديار بنى سعد ، ويثوب المراضع إلى بيوتهن ، ويستأنفن حياة أهل البادية فى أرض مُجدبة قلّ فيها الرعى والماء ، وكثُر فيها البؤس والشقاء . وَغَمُّ حليلة ترعى كما ترعى الغنم . ولكنها تروح ملاء حُفلاً لا يظماً أصحابها ولا يجوعون ، وتروح غنم السعديين مهزولةً نحيلة ناضبة ، لا تكاد تبيضُ بما يبيل الريق . وهم يقولون لرُعّاتهم : ويلكم ! ارعو حيث ترعى غنمُ ابنة ذؤيب . فيقول الرعاة : والله إنا لنعرى حيث ترعى ، وإنها والله لا تجد أكثر مما نجد ، ولكنها تروح ملاء وتروح بغنمنا كما تروحون ؛ لا تُغنى من ظمأ ولا جوع . فيقولون : إن لابنة أبى ذؤيب نشأناً . وتنعم حليلة وينعم أتاؤها حياءً

(١) اربعى علينا : أى ارفقى .

راضية هادئة ، وينمو رضيعها ويزكو . وتقضى هذه الأسرة عامين راضيين لا تعرف فيهما مشقة ولا جهداً ، ولا تجد فيهما ألماً ولا سقماً ، وإنما هي أيامٌ وليالٍ تطردُ ويمضي بعضها في أثر بعض لا كدرٍ فيها ولا تنغيص حتى إذا آن للرضيع أن يثوب إلى أمه نظرت حليلةٌ وزوجها فإذا الطفلُ قد نما وزكا كأحسن ما ينمو الأطفال ويزكون ، لم يكد يُتم الثانية وكأنه ابن أربع ، والقوم عليه حِرَاص ، ولكنهم يُؤدونه على ذلك إلى أمه كارهين .

ثم تهم حليلةٌ أن ترجع وقد أرضت آمنة وعبد المطلب ، وأرضتها آمنةٌ وعبد المطلب ، ولكنها لا تستطيع فراق الطفل حباً له وحدباً عليه ، ورغبة في استبقاء ما وجدت في استصحابه من خير ؛ فتلح على آمنة أن ترده معها إلى البادية ، هناك حيث الهواء النقي ، والسماء الصافية ، والحياة الهادئة البريئة ، هناك حيث لا مرض ولا وباء ولا فساد . وتجيها آمنة إلى ما أرادت وقد آثرت الطفل على نفسها ، وضحت بلدة الأمومة في سبيل تنشيء ابنها تنشياً صالحاً . وهل عرفت آمنة إلا التضحية ! وتمضي حليلةٌ بالصبي راضية ، وتبقى آمنة في مكة محزونة . وتنظر بركةً إلى حليلة نظرات فيهن الحسد . وتنظر بركة إلى آمنة نظرات فيهن اللوم .

قلتُ لمحدثي : فكيف قضى الصبي أيامه بعد ذلك في البادية ؟
وكم أقام عند ظئره في ديار بني سعد ؟ قال : إن لهذا لحديثاً عجيباً ،
مهماً أبلغ من البراعة وقوة البيان فلن أقصه عليك في تلك السداجة

الخلوة الأخاذة التي كان يقصّها مكحول على أهل الشام . فاسمع حديث مكحول فإنك واجدٌ فيه مثلَ ما وجدت من اللذة والعظة والعبرة والمتاع .

قال مكحول : حدثني سداد بن أوس قال : بينا نحن جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل شيخٌ من بني عامر ، وهو مدّره قومه وسيدهم ، شيخ كبير يتوكأ على عصاً ، فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قائماً ، ونسبه إلى جدّه فقال : يا بن عبد المطلب ، إني أنبتُ أنك تزعم أنك رسولُ الله إلى الناس ، أرسلك بما أرسلَ به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء . ألا وإنك فوّتتَ بعظيم ! وإنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل ، وأنت ممن يعبدُ هذه الحجارة والأوثان ، فمالك وللنبوة ؟ ولكن لكل قول حقيقة ، فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك . قال : فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمسألته ، ثم قال : « يا أخا بني عامر ! إن لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأً ومجلساً ، فاجلس » . فثنى رجله ثم برك كما يبرك البعير . فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال : « يا أخا بني عامر ! إن حقيقة قولي وبدء شأنى أنى دعوةُ أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى بن مريم ، وأنى كنتُ بكرَ أمى ، وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل ، وجعلتُ تشتكى إلى صواحبها ثِقَل ما تجد . ثم إن أمى رأت في المنام أن الذى فى بطنها نور . قالت : فجعلتُ أتبعُ بصرى النور ، والنورُ يسبق بصرى ، حتى أضاءت مشارقُ

الأرض ومغاربها . ثم إنها ولدتني فنشأت . فلما أن نشأتُ بُغِضْتُ إلى أوْثانُ قريشٍ وُبغِضَ إلى الشعرُ . وكنتُ مُسترضعاً في بني ليث ابن بكر . فبينما أنا ذات يوم مُمتبذ من أهلي في بطن وادٍ مع أتراب لي من الصبيان تتقاذف بيننا بالجلَّة (١) إذ أتانا رهطٌ ثلاثة معهم بطستٌ من ذهبٍ ملىً ثلجاً ، فأخذوني من بين أصحابي ، فخرج أصحابي هراًباً حتى انتهوا إلى شفير الوادي ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أربكم (٢) إلى هذا الغلام فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش وهو مُسترضعٌ فينا من غلام يتيم ليس له أب ؟ فماذا يردُّ عليكم قتله؟ وماذا تُصيبون من ذلك ؟ ولكن إن كنتم لا بدت قاتليه فاختراروا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم .

فلما رأى الصبيان القوم لا يحIRON إليهم جواباً ، انطلقوا هراًباً مسرعين إلى الحى يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم . فعمد أحدهم فأضجنى على الأرض إضجاعاً لطيفاً ، ثم شق ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مساً ، ثم أخرج أحشاء بطنى ، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها . ثم قام الثانى منهم فقال لصاحبه : تنح فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى ، وأنا أنظرُ إليه ، فصدعته ، ثم أخرج منه

(١) الجلَّة : البعر .

(٢) الأرب (بفتح الهمزة والراء وبكسر الهمزة وسكون الراء) : الحاجة

مضغفة سوداء فرمى بها ، ثم قال بيده (١) يَمْنَةً مِنْهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً ،
فإذا أنا بنخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه ، فختم به قلبي
فامتلاً نوراً ، وذلك نُورُ النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه ، فوجدت
برد ذلك الخاتم في قلبي دهنراً . ثم قال الثالث لصاحبه : تَنَحَّ .
فَتَنَحَّى عَنِّي ، فأمر يده ما بين مَفرقِ صدرى إلى منتهى عاتى فالتأم
ذلك الشق بإذن الله ، ثم أخذ بيدي فأنهضتني من مكاني إنهاضاً لطيفاً ،
ثم قال للأول الذى شق بطني : زَنَهُ بِعَشْرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ ، فوزنوني بهم
فَرَجَحْتَهُمْ . ثم قال : زَنَهُ بِمِائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ ، فوزنوني بهم فَرَجَحْتَهُمْ . ثم
قال : زَنَهُ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ ، فوزنوني بهم فَرَجَحْتَهُمْ . فقال : دَعُوهُ ،
فَلَوْ وَزَنْتُمُوهُ بِأُمَّتِهِ كُلِّهَا لَرَجَحْتَهُمْ . قال : ثُمَّ ضَمَمُونِي إِلَى صُدُورِهِمْ ،
وَقَبَلُوا رَأْسِي وَمَا بَيْنَ عَيْنِي . ثم قالوا : يَا حَبِيبُ ! لَا تُتْرَعُ ! إِنَّكَ
لَوْ تَدْرِي مَا يَرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ . قال فبينما نحن كذلك
إذا أنا بالحى قد جاءوا بجذافيرهم ، وإذا أمى - وهى ظئر - أمام الحى
تَهْتِفُ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَتَقُولُ : يَا ضَعِيفَاهُ ! فَانْكَبُوا عَلَيَّ فَقَبَلُوا رَأْسِي
وَمَا بَيْنَ عَيْنِي ، فقالوا : حَيْدَا أَنْتَ مِنْ ضَعِيفٍ ! ثم قالت ظئرى :
يَا وَحِيدَاهُ ! فَانْكَبُوا عَلَيَّ فَضَمَمُونِي إِلَى صُدُورِهِمْ وَقَبَلُوا رَأْسِي
وَمَا بَيْنَ عَيْنِي ، ثم قالوا : حَيْدَا أَنْتَ مِنْ وَحِيدٍ ! وَمَا أَنْتَ بِوَحِيدٍ !
إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ . ثم قالت ظئرى :
يَا يَتِيمَاهُ ! اسْتَضَعَفْتَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ فَقُتِلْتَ لِضَعْفِكَ ! فَانْكَبُوا عَلَيَّ

(١) قال بيده : أهوى بها ، وقال برأسه : هزه . (عن أساس البلاغة)

فضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني وقالوا جبذا أنت من يتم ! ما أكرمك على الله ! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير ! فوصلوا بي إلى شفير الوادي . فلما بصرت بي أمي ، وهي ظئري ، قالت : يا بني ألا أراك حياً بعد ! فجاءت حتى انكبت عليّ وضمتني إلى صدرها . فوالذي نفسي بيده إني لني حجرها وقد ضمتني إليها ، وإن يدي في يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أن القوم يبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم . يقول بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه ألم^(١) أو طائف من الجن ، فانطلقوا به إلى كاهنتنا حتى ينظر إليه ويداويه . فقلت : يا هذا ، ما بي شيء مما تذكر ؛ إن إرادتي سليمة وفؤادي صحيح ليس بي قلب^(٢) . فقال أبي - وهو زوج ظئري - ألا ترون كلامه كلام صحيح ! إني لأرجو ألا يكون بابني بأس . فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن ، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه . فلما قصوا عليه قصتي قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم . فسألني فاقصصت عليه أمري ما بين أوله وآخره . فلما سمع قولي وثب إلىّ وضمني إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليذلن دينكم وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط . فعمدت ظئري فانتزعني

(١) ألم (بالتحريك) : طرف من الجنون .

(٢) القلب (بالتحريك) : الألم والعلّة .

من حجره وقالت : لأنت أعتته وأجنُّ من ابني هذا ! فلو علمتُ
أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، فاطلبُ لنفسك مَنْ يقتلك
فإننا غيرُ قاتلي هذا الغلام . ثم احتملوني فأدُّوني إلى أهلي . فأصبحتُ
مُفزعاً مما فعل بي ، وأصبح أثرُ الشق ما بين صدري إلى منتهى
عانتى كأنه الشُّراك^(١) . فذلك حقيقةُ قولي وبدء شأني يا أخا بني عامر .
فقال العامريُّ : أشهد بالله الذي لا إله غيره إن أمرك حقٌّ . فأنبئني
بأشياء أسألك عنها . قال سَلْ عنك - وكان النبي صلى الله عليه
وسلم قبل ذلك يقول للسائل : سَلْ عما شئتَ وعما بدا لك ، فقال
للعامريُّ يومئذ : « سَلْ عنك » لأنها لغة بني عامر ، فكلمه بما أعلم -
فقال له العامريُّ : أخبرني يا بن عبد المطلب ما يزيدُ في العلم ؟ قال :
التعلم . قال : فأخبرني ما يدلُّ على العلم ؟ قال النبي صلى الله عليه
وسلم : السؤال . قال : فأخبرني ماذا يزيد في الشرِّ ؟ قال : التماذي .
قال : فأخبرني هل ينفع البرُّ بعد الفجور ؟ قال : « نعم » : التوبةُ
تغسل^(٢) الحوبة ، والحسنات يُذهبن السيئات ، وإذا ذكرَ العبدُ
ربه عند الرخاء أغاثه عند البلاء . قال العامريُّ : وكيف ذلك
يا بن عبد المطلب ؟ قال : « ذلك بأن الله يقول : لا وعزتي وجلالي
لا أجمعُ لعبدي أمنين ، ولا أجمع له أبداً خوفين : إن هو خافني في

(١) الشرك : أحدِ سيور النعل التي تكون على وجهها .
(٢) الحوبة (بفتح الحاء وضمها) : الإثم .

الدنيا أمني يوم أجمع فيه عبادى عندي فى حظيرة القُدس فيدوم له أمنه ، ولا أتحقّه فيمن أتحق . وإن هو أمني فى الدنيا خافى يوم أجمع فيه عبادى ليلقات يوم معلوم فيدوم له خوفه . « قال : يا بن عبد المطلب ، أخبرنى إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع الأنداد وتكفر باللات والعزى ، وتقرّ بما جاء من الله من كتاب أو رسول ، وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتصوم شهراً من السنة ، وتؤدى زكاة مالك يطهرك الله بها ويطيب لك مالك ، وتحج البيت إذا وجدت إليه سبيلا ، وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ، وبالجنة والنار . » قال : يا بن عبد المطلب ، فإذا فعلت ذلك فما لى ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تركنى . » قال : يا بن عبد المطلب ، هل مع هذا من الدنيا شىء فإنه يعجبنى الوطأة من العيش ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « نعم النصر والتمكن فى البلاد . » قال : فأجاب وأتاب (١) قلت لمحدثى : إن هذا النبأ لعجيب ! فمن لهذا الشيخ العامرى بما كان يعلم من أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ؟ قال : كان كثير من هؤلاء العرب يلقون اليهود ويلقون النصارى ، فيعلمون منهم علم الأنبياء ، وينتهون إلى نفور من دينهم القديم فى

(١) تاريخ الطبرى جزء ٢ من صفحة ١٢٦ إلى ١٢٨ طبعة القاهرة .

غير اطمئنان إلى يهودية اليهود ونصرانية النصارى ، فأخرجهم الله بالإسلام من حيرتهم تلك .

قلتُ لمُحدثي : فكيف انتهى حديث مكهول إلى أهل الشام ؟ قال
أما علمتَ أنَّ شدَّاد بن أوس سكن فلسطين وأنفق شطراً طويلاً
من حياته في بيت المقدس يُعلِّمُ الناس ويحدثهم ، وعده بذلك النبيّ
نفسه ؟ فقد تحدثوا أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وهو يجود بنفسه فقال : ما لك يا شدَّاد ؟ قال : ضاقت بي الدنيا .
فقال : « ليس عليك ، إن الشام سيفتح ، وبيت المقدس سيفتح ،
وتكون أنت وولدك من بعد أئمة فيهم إن شاء الله تعالى (١) » .

(١) الإصابة جزء ٣ صفحة ١٩٥ طبعة المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٢٢٥

١٤

البرّ

ضاقَت الدار باليتيم وحاضنته بعد أن أقفرت من أمه آمنة ؛ فضمه
جدّه الشيخ إليه وكان به حَفِيًّا (١) وعليه حريصاً، يُكرمه ويؤثره بالخير
ويمنحه من الحنان والود ما كان يفيض به قلبه الكريم ، وكأنه كان
قد جمع في قلبه نصيب ابنه عبد الله من حبه أكثر من ستّ سنين
يزيدهُ وَيُنميه ، حتى إذا ضمّ الصبيّ إليه أخذ يمنحه هذا الحب
ويختصّه بهذا الحنان . وأخذ الطفلُ يحسّ ذلك وَيَنعمُ به ، ويألفُ
جدّه ويطمئن إليه بل يطمع فيه ، ويبلغ من الجرأة عليه ما لم يكن
يلفه صغارُ بنيه وكبارُهم . كانوا لا يدنون منه إلا أن يُدنيهم ،
ولا يجلسون منه إلا مجلسَ الإكبار والإجلال ، وكان الطفلُ يدنو
منه متى شاء ، وينصرفُ عنه متى أحبّ . وتبلغ الجرأةُ به أن يسبقه
إلى مجلسه فيجلس فيه وَيستأثر من دونه بالفراش . وكان أعمامه
وعمّاتُه يرون منه هذا فيحاولون ردّه عنه وتأديبه بأداب الأسرة، ولكن
الشيخ كان يكفهم عنه ويقول : دعوا ابني إنه ليؤنيسُ ملكاً .
ولم يكن هذا الشيخ يسميه إلا بهذا الاسم الحلو ، كان إذا تحدث
عنه قلما يذكر محمداً أو أحمداً ، إنما كان يقول جاء ابني وذهب ابني .

(١) حنو به : معني به يسأل عن شؤونه ويكرمه .

وكان يقول (لبركة): استوصى بابني . وكان يقول لأبي طالب :
احتفظ بابني . فليس غريباً أن يُلمّ المرضُ بالشيخ ويثقلَ عليه
فيكتب اليتيم ويمتلئ قلبه حزنًا وألمًا . وما يمنعه أن يكتب وما يمنعه
أن يحزن ويألم ، وقد كان يعيش في ظلّ جده عيشاً إن لم يكن
يسراً كله ودعةً كله ، فقد كان حباً كله وحناناً كله ! ويصبح
الشيخ ذات يوم مثقلاً مكدوداً يحسّ كأن الحياة تفارقه ، وكأن الموت
يسعى إليه ، فلا يشكّ في أن هذا اليوم آخرُ عهده بالدنيا . هنالك
فكر الشيخ في هذا الدهر الطويل الذي أنفقه بين الناس جاهداً في
الخير ما استطاع ، باذلاً معروفه ما وسعه البذل ، مطوفاً في أقطار
الأرض بتجارته وتجارة قريش ، ومقيماً في مكة بين نسائه وبنيه ،
يذهب من داره إلى المسجد ويعود من المسجد إلى داره ، لا يغدو إلاّ
مفكراً في خير ، ولا يروح إلاّ مفكراً في معروف . والناس من حوله
ينعمون ببرّه بهم وعطفه عليهم ، فيحبونه ويؤثرونه ويصفونه المودة
ويصدّقونه الولاء . وفكر الشيخ في هذه المحن والخطوب التي ألمّت به
وألحّت عليه ، فلم تُلنّ قناته ولم تقللّ حدّه ، وإنما تركته كما
لقبته صلباً جلدأ حازماً ماضى العزم ، كأنه الشجرة العظيمة قد
ثبت أصلها في الأرض وامتدت أغصانها القوية في الجوّ ، فهي
مستقرة في مكانها تختلف عليها العواصف فلا تضطرب ولا تميل .
وفكر الشيخ في ابنه عبد الله كيف كان يحبه ويألفه ويضنّ به على
المكروه ، وكيف لم يمنعه هذا الحبّ من أن يقدمه ليوفى به ما كان

قد فرض على نفسه من النذر ، وكيف جدّ في ذلك ، وجدّ الفتى في الطاعة والإذعان ، حتى اقترح عليه الفداء ، وكيف فادى ابنه فعالي في الفداء ، وكيف اغتبط وابتهج حين قبل الآلهة فداءه وتركوا له ابنه ، ثم كيف أرسله إلى الشام ليموت في يثرب بعد أن اتجر فأفاد ربماً كثيراً .

نعم ! وفكر الشيخ في آمنة كيف نُخطبت للفتى ، وكيف احتملت فقدّه كريمةً آبية . ثم فكر في هذا الطفل اليتيم وفي هذه الأطوار الغريبة التي أحاطت بمقدمه إلى الأرض ودخوله في الحياة - فكر في هذا كله فرضى عن نفسه كما رضى عنه الناس ، وحزن على نفسه كما حزن عليه الناس ، وكان واثقاً بأن ما رأى من الأحداث التي لم يرَ الناسُ مثلها لم يُرسل إليه عبثاً ولم يُسلط عليه إلا لأمر يُراد . وكان يُقدّر أنّ هذا الأمر الذي يُراد إنما يُراد بابنه اليتيم . وكان يودّ لو مُدّت له الحياة فرأى من أمر ابنه ما لم يكن يشكّ في أنه واقعٌ محتوم . ولكن الحياة لا تُنال بالرغبة والموت لا يُدفع بالكره ، والأيام لم تُعط الناس عهداً بأن تكون عند ما يُريدون . وهل مُدّت أسباب الحياة لعبد الله حتى يرى ابنه وليداً ! بل هل مُدّت أسباب الحياة لعبد الله حتى يعلم أنه قد ترك وارثاً ! لقد مات وهو يعلم حقّ العلم أنه لم يُعقب ، ولو قد كشف عنه الحجاب لعلم أنه أعقب لا كما يُعقب الناس . وهل مُدّت أسباب الحياة لآمنة حتى تسعد بابنها اليتيم ! لقد ولدته فاختطفته منها المرضع واحتفظت

به زمناً طويلاً . ولم تكذب الأمّ تنعمُ بابنها حتى أقبل الموتُ فقطع ما بينهما من سبب ، وأبى إلا أن ينقلها إلى جوار زوجها الذي طالما كانت تذكره وتفكر فيه . فلم تتمدّدْ أسباب الحياة للشيخ وقد أنفقَ في الأرض أكثرَ من مائة سنة ذاقَ فيها خيراً الحياة وشرها ، وبلا فيها حلوَ الحياة ومرّها ! لم تتمدّدْ له أسباب الحياة وكل شيء من حوله ومن حول الطفل يدلّ على أن حياة هذا الصبيّ لن تكون كحياة غيره من الصبيان ، يسيرةً لا عوج فيها ولا التواء ، وإنما ستكون حياةً فيها امتحان وبلاء ، وفيها تصفية وتطهير ! لقد فقد أباه وفقد أمه ، وهو الآن سيفقد جدّه ، وسيصبح بعد ساعات يتيماً حقاً ، ووحيداً حقاً ، ليس له من يعطف عليه أو يرقّ له إلا هذه الأمة التي تحضنه ، وعمه الذي سيكفله كما يكفل الأعمامُ أبناء الإخوة !

وكان الشيخ يفكر في هذا ويحسّ أنه يزدادُ ثِقَلًا على ثِقَل . ويشعر كأنه يُفارق ما حوله ومن حوله قليلاً قليلاً ، لا يتقدّم في الزمان لحظةً حتى يخطو إليه الموت خطوات . وكان الشيخ يحب أن يسمع من أصوات الناس أكثرَ ما يستطيع أن يسمع قبل أن يغمره الموتُ فلا تصل إليه الأصوات . وكان أحبّ الأحاديث إلى الشيخ في هذه اللحظات القليلة الباقية حديثُ نفسه ، فيدعو بناته ويطلبُ إليهن أن يبكينه كما يبكي النساء الموتى ، ويُبلح عليهن في ذلك ؛ لأنه يُريد أن يسمعهن أو لأنه يريد أن يسمع رثاء نفسه . ولعله لو استطاع أن يرثى نفسه بنفسه لفعل . وهؤلاء بناته من حوله يرفعن أصواتهن

نادبات نائحات ، معدّات مآثره ومقاخره . مصوّرات هذا
الحزن العميق الذي يسعى حثيثاً إلى قلوبهن ، كما كان الموت يسعى
حثيثاً إلى الشيخ . والصبي قائم من وراء السرير يرى ويسمع ويمتلي
قلبه بما يرى وما يسمع ، وتنهّل من عينيه دموع صامتة لعلها لو
رآها الشيخ لأرضته !

ولكن الشيخ يسرع إلى الموت أو يسرع إليه الموت . فهو يسمع
بناته ولا يستطيع أن يردّ عليهن أو يتحدث إليهن ، فيكتفي بما لا بدّ
له من أن يكتفي به من الإيماء . ثم يسرع إلى الموت ويسرع الموت
إليه حتى يلتقيا فلا إيماء ولا حرّاك ، قد سكت الشيخ وسكت بناته
لحظة . ثم تمضي حياة الناس في طريقها ، فيشغل أهل الشيخ
بالشيخ ليقطعوا هذه الأسباب الواهية التي بقيت بينه وبين الأحياء
والأشياء ، ليغيبوه في قبره ، وليفرغوا لشؤونهم ، وليحفظوا منه هذه
الذكرى التي تملأ القلب كله ، ثم تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تتخذ
لها مكاناً ضيقاً خفياً تستقرّ فيه ، يحسها الرجل حيناً ويجهلها أحياناً .
والصبي محزون كئيب . يذكر أمه . ويذكر جده . وينظر إلى
حاضنته وينظر إلى عمه ، ويفوض أمره بعد هذا إلى الله .

وقد شَمِله الله برعاية لا تفتر ، وكأله بعناية لا تغفل ؛ فلم يلق
من الناس في طفولته وشبابه شراً ولا نُكراً ، ولا احتمل منهم ألماً
ولا مكروهاً . عطف عليه عمّه كما كان يعطف عليه جده ، حتى
أثره بالمودّة واختصه بالبرّ . ولقى منه عمه مثل ما كان يلقى جده

حُبًّا بِحَبِّ وَوَدًّا بُوْد . وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ رَجُلًا مَرُوءَةً وَصَدُقٍ وَحَسَنٍ .
بَلَاءً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فَقِيرًا كَثِيرَ الْعِيَالِ ، وَكَانَ يَجِدُ جَهْدًا عَظِيمًا فِي
إِقَامَةِ عِيَالِهِ الْكَثِيرِينَ وَسَدِّ خَلَاتِهِمْ . فَلَمَّا ضَمَّ إِلَيْهِ هَذَا الْيَتِيمَ صَلُحَ
أَمْرُهُ وَحَسُنَتْ حَالُهُ ، وَوَجَدَ الْبَرَكَتَةَ وَالسَّعَةَ فِيمَا كَانَ يُتَاحَ لَهُ مِنَ الْقَلِيلِ .
كَانَ يَكْسِبُ لِعِيَالِهِ مَا يَسْتَطِيعُ ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ حَوْلَهُ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ إِلَّا
أَنْ يَمْسُوهُ مَسًّا رَفِيقًا ، ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ وَقَدْ اسْتَنْفَدُوهُ وَمَا زَالُوا جِيَاعًا . فَلَمَّا
ضَمَّ الرَّجُلُ إِلَيْهِ ابْنَ أَخِيهِ الْيَتِيمَ لَمْ يَزِدْ مَا كَانَ يَكْسِبُ ، وَلَكِنْ اللَّهُ
بَارَكَ فِيهِ وَزَكَّاهُ . فَكَانَ الرَّجُلُ يَجْمَعُ عِيَالَهُ ، وَمَعَهُمْ يَتِيمُهُ هَذَا ،
حَوْلَ هَذَا الْقَلِيلِ ، فَلَا يَقُومُونَ إِلَّا وَقَدْ أَدْرَكُوا مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ أَلْمَ الْجُوعِ
وَيُبَلِّغُهُمُ الرِّضَا وَالْإِطْمِئْنَانَ .

وَكَذَلِكَ أَنْفَقَ الْيَتِيمُ طِفُولَتَهُ وَصَبَاهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقَلْبَيْنِ الرَّحِيمَيْنِ :
قَلْبِ عَمِّهِ وَقَلْبِ حَاضِنَتِهِ .

وَلَسْتُ أَعْرِفُ صَبِيًّا تَأْتُرُ بِحَيَاةِ الصَّبَا وَاحْتَفَظَ بِمُحَادَثِهِ وَذَكَرِيَاتِهِ
مَا أَقَامَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَوَفَّى لِلذِّينِ بَرًّا بِهِ وَأَحْسَنُوا إِلَيْهِ كَهَذَا الصَّبِيِّ .
لَمْ يَكُدْ يَقْدِرُ عَلَى الْبِرِّ وَإِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ وَإِظْهَارِ شُكْرِهِ لِلنِّعْمَةِ ، وَاعْتِرَافِهِ
بِالْحَمِيلِ ، حَتَّى ضَرَبَ لِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ أَرْوَعَ الْأَمْثَالِ وَأَبْلَغَهَا تَأْثِيرًا فِي
الْقُلُوبِ .

أَرْضَعْتَهُ أُمَّةً لَأَبِي لَهَبٍ يُقَالُ لَهَا تُؤَيِّبَةُ أَيَّامًا قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَهُ
حَلِيمَةُ . فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا حَفَظَ لَهَا هَذِهِ النِّعْمَةَ وَعَرَفَ لَهَا
الْحَمِيلَ ! فَلَمْ يَكُدْ يَقْدِرُ عَلَى شُكْرِهَا وَالْبِرِّ . حَتَّى جَهْدَ فِي ذَلِكَ

وإذا هو يحمل زوجه خديجة على أن تسعى عند أبي لهب في أن تشتري منه هذه الأمة لتعتقها ، فيأبى أبو لهب ، فيتصلُ معروفُ الرضيع بأمه هذه ما أقام بمكة ، حتى إذا هاجر إلى المدينة لم ينس أمه ولم يهملها ، وإنما أرسل إليها الصلوات والكسوة من حين إلى حين . حتى إذا عاد من خيبر وقيل له : إن ثويبة قد ماتت سألت عن قربتها لينالهم بما كان ينالها به من المعروف ، فأنبئ بأنها لم تترك أحداً .

وحياة أهل البادية مملوءة بالضنك حافلة بالشقاء . فانظر إلى بيت يهبط مكة تستعين بابنها على أثقال الحياة ، فيكلم لها خديجة مسحة بعيراً وأربعين شاة . وانظر إليها تستأذن عليه مرة أخرى ، فإذا أدخلت عليه ورآها قال : أمي ! أمي ! ثم يبسط رداءه فأجلسها عليه ! ثم أدخل يده من دون ثيابها فمس صدرها مساً ، ثم قضى حاجتها . ثم انظر إليه بعد أن أعظم وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها ، وقد نصره الله يوم حنين على هوزان ، فهزم الجند واحتوى المال وسبي الذرية والنساء ، وقسم الغنائم بين المسلمين . وإنه بالجرعانة (١) صباح يوم وإذا وفد من هوزان يُقبل عليه مسلماً منبئاً بإسلام من وراءه من الناس ، وفي هذا الوفد عمه من الرضاعة ، وإذا عمه يتحدث إليه فيقول : يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا وأرضعناك

(١) الجرعانة (بكسر الجيم وسكون العين وقد تكسر العين) : موضع بين مكة والطائف .

بشُدِّينَا . لقد رأيتك مُرضِعاً فما رأيتُ مُرضِعاً خيراً منك . ورأيتُك
فَطِيماً فما رأيتُ فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيتُ شاباً خيراً
منك ، وقد تكاملتُ فيك خلالُ الخير . ونحن مع ذلك أصلك
وعشيرتُك ، فامن علينا من الله عليك . فيجيبه : لقد استأنيتُ
بكم حتى ظننتُ أنكم لا تقدُمون ، وقد قسمتُ السبيَ وجرتُ فيه
السهمان^(١) فما كان منه لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسألُ لكم
الناس . فإذا صليتُ بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى
المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإنني سأقول لكم : ما كان لي
ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلبُ لكم إلى الناس . فلما صلى
الظهر قامَ الوفدُ ، فأتم ما أمر به ، ووفى لهم بوعده ، وشفع لهم من
الناس^(٢) ، فرُدَّت عليهم نساؤهم وأبناؤهم ، لم يَأب ذلك إلا نفرٌ من
الأعراب اشترى منهم ما كان في أيديهم من السبي وردَّ على أهله .
قلت لمحدثي : فإن هذا الوفاء يُلغِج التأثير في النفوس ، وأبلغ منه
هذه الحيلة الطاهرة البريئة في استخلاص السبي من الدين ملكوه ،
فيها وفاء . وفيها ردٌّ للحرية على آلاف من الناس ، وفيها إقرارٌ للأمن
والسلم في قبيلة ضخمة قوية من العرب ، وفيها تخليص القلوب من
الضغينة والموجدة والحقد ، وتبشيرها لقبول الإسلام والنصح للمسلمين
في صدق وإخلاص قال محمَّدٌ : ولكن له وفاء آخر يملأ

(١) السهمان : جمع سهم وهو النصيب والحظ .

(٢) طبقات ابن سعد جزء ١ ص ٣٠٠ قسم أول طبع ليدن

القلوب رحمة ويمزقها لوعةً وأسى ؛ لأنه وفاء المحب الصادق في الحب ، والعاجز عن النفع الذي لا يملك لمن يحب خيراً . قلت : وكيف يجد العجز إلى هذا القلب العظيم سبيلاً ؟ قال : إن لله قنَدَراً مهما تعظم القلوب فلن تغيره ولن تُبدل له . لقد كان أشد الناس برّاً بأمه ووفاء لعمه : مرّ بقبر أمه عام الحديبية فاستأذن ربّه في أن يزور القبر . فأذن له ، فزاره وأصلحه ومكث عنده حيناً . ثم استأذن ربه في أن يستغفر لأمه فأبى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً كثيراً ، وبكى المسلمون لبكائه ، واكتأب المسلمون لاكتنابه ، ودخل مكة عام الفتح متناً منتصراً . وبينما هو في بعض مواضعها رأى أصل قبر فعطف عليه وأقام عنده . واستأذن في الاستغفار لصاحب القبر فلم يُؤذن له ، فمخزوناً كثيراً ، وبكى فبكى الناس . وما رأى الناس يوماً باكياً من ذلك اليوم (١) ! واختلط أمر هذا القبر على الرواة ، فظنوه قبر أمّه . وقبر أمّه في الأبواء . ومن يدري ! لعله قبر جدّه الشيخ . وعرض الإسلام على عمه وألح عليه . وكاد الرجل أن يقبل له لا تحيّن الجاهلية فلما مات قال ابن أخيه : لأستغفرن لك ، فلامه القرآن في ذلك لوماً عنيفاً .

تبارك الله ! رجلٌ يُخرج الله به أمةً كاملة من الظلمات إلى النور . ويفتح لها به أبواب الخير على مصاريحها إلى آخر الدهر . ثم يأبى الله عليه أن يستغفر لأمه وعمه . وأن ينقذ أهله الأقرين

(١) طبقات ابن سعد ، الجزء الأول .

الذين أدّوه إلى الناس وحمّوه حتى أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة (١) .
قلت لمحدثي : وماذا تنكر من ذلك وعدل الله محتوم لا يقبل
أخذاً ولا رداً ، ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة ؟ قال : لا أنكر
شيئاً ، وأعوذ بالله أن أنكر شيئاً وأنا أعلم أن الله قد تآذن أنه لا يغفر
أن يُشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . إنما أرثي الناس الذين
يرون الخير فيجتنبونه ، ويرون الشرّ فيتهاكون عليه . أرثي لهؤلاء
الذين يبلغ بهم الضعفُ وِخورُ النفوس أن يظلموا الأبرياء ويعتدوا
على الهادعين ليؤثروا أهلهم وقرباتهم بما ليس لهم بحق . ولو قد حاول
الناس أن يتأثروا المثُلَ العليا ويتأسوا بالأسوة الحسنة لكان لهم في
مثل هذه القصة صارفٌ عما يجترحون من السيئات ، ويادعُ عما
يفرفون من الآثام . هل ترى أبلغ في تصوير العدل الصارم الحازم
الذي لا يقبل هواده ولا يحتمل رقاً ، لأنه ليس موضع هواده ولا
رفق ، من هذه الآية الكريمة التي يُلام فيها النبي والمسلمون حين
استغفروا لمن لا مَطْمَعَ له في المغفرة :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا
أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ
لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » (٢)

(١) تفسير الطبري جزء ١١ من صفحة ٣٠ إلى ٣٤ .

(٢) من سورة التوبة ، الآيتان ١١٣ ، ١١٤ .

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٤٦٩٨
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٠٩٩-X

١ / ٨٧ / ١٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

كتب أخرى للمؤلف

- في المباحث الإسلامية :
- في الأدب والنقد :
- في الأدب الجاهلي
حديث الأربعماء (٣ أجزاء)
مع المتنبى
من حديث الشعر والنثر
- في أدب التمثيل :
- في القصة والرواية :
الحب الضائع
شجرة البؤس
المعذبون في الأرض
- في التراجم والسير :
على هامش السيرة (٣ أجزاء)
عثمان
الأيام (٣ أجزاء)
- في الاجتماع :
- في التربية :
- في سلسلة اقرأ :
أحلام شهر زاد
الوعد الحق
صوت أبي العلاء
- مرآة الإسلام
فصول في الأدب والنقد
تجديد ذكرى أبي العلاء
مع أبي العلاء في سجنه
ألوان - جنة الشوك
من الأدب التمثيل اليوناني
- دعاء الكروان
صوت باريس
ما وراء النهر (قصة لم تتم)
- الوعد الحق - الشيخان
على وبنوه
أديب - قادة الفكر
نظام الأثينيين
مستقبل الثقافة في مصر
- الحب الضائع
رحلة الربيع
المعذبون في الأرض

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story